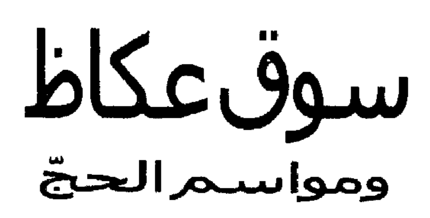

سوق عكاظ
ومواسم الحجّ

عنوان الكتاب

سوقُ عكاظ ومواسم الحجّ

المؤلِّفُ: عرفان محمد حمُّور

الناشِر والموزِّع

مؤسسة الرِحَاب الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

المدير المسؤول: أحمد فوَّاز

هاتف: ٠٣/٣٥٩٧٨٨

ص.ب: ١١/٣٨٤٧

بيروت - لبنان

التنضيد والإخراج

مؤسسة غَوْر پْرِسْ

هاتف: ٠٣/٦٣٣٥٩٨

العنوان: البربير - بناية كاملة - ط ٤

بيروت - لبنان

تصميم الغلاف والفهارس الفنيَّة

د. هدال عرفان حمُّور

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

اقتصرت على بعض القبائل فقط، وذلك إذا استثنينا مواسم الحجّ إلى مكة، ومواسم التربُّع في البوادي والأرياف. فلْيكُنْ تأريخنا لعكاظ إذن تأريخاً لكل مواسم العرب، وتأريخاً للكثير من عاداتهم الاجتماعية.

كانت متاجِرُ العربِ، وغيرِ العرب، تُحْمَلُ من مَواضِعها إلى عُكاظ، فيقصدها في موسمها من أراد الميرةَ أو التجارةَ على السواء. فلما عَظُمَ شأنُها، وصارت مَجْمعاً عامّاً للعرب، أَمَّها الشعراءُ والخطباءُ، وكان معظمُ همِّهم انتقاءَ الكلمات الفصيحة، المشهورة عند قبائل العرب، ولا سيما قبائلِ الحجازِ ونَجْدٍ وما اتصل بها، أو جاوَرَها، طمعاً في أن تنتشِرَ أقوالُهم في العرب كافةً، فكانت عكاظٌ بذلك، مع المواسم الدينيَّةِ الكبرى، والأسواقِ العامَّة الأخرى، أقوى عاملٍ في توحيد لغة العرب، وتَهْذيبِ لهجاتهم، واختلاطِ قبائلهم، والاقترابِ من المجتمع العربيّ القَوْميّ الواحد. وقد كانت وحدةُ اللغةِ والأفكار المقدّمةَ الكبرى التي سبَقَتِ الإسلامَ، مُتَرقِّبَةً لأَوَانه، «فالشعورُ بالعربيّة، والفخرُ باللسان العربيّ مُقدّمةٌ لا بدَّ منها للدعوةِ التي واجَهتِ العربَ بآيَةِ البلاغة في القرآن الكريم...»[1]، ذلك أن لهجات القبائل العربية كان بينها تَفَاوُتٌ في النُّطْقِ والمُفْرَداتِ والقواعد، وكان هذا التفاوُتُ يَقِلُّ، أو يكْثُرُ، تَبَعاً لقُوَّةِ أو ضَعفِ العلائق التي تربطُ بين القبائل، وتَبَعاً لاختلاف عوامل المكان والزمان، التي يُؤَثِّرُ اختلافُها وتَفَاوتُها أعظمَ تأثيرٍ في اللغة. ولئن كانت عكاظٌ بدأتْ سوقاً تجاريةً، أو موسماً دينيّاً، لقد انتهت في آثارها إلى تطوُّرٍ عميق في مجتمعاتِ العرب وحياتهم، ولولاها لكانت لغةُ العرب لغاتٍ، من العسير على أصحابها أنْ يَفهمَ بعضُهم على بعضٍ شيئاً بها. فعُكاظٌ لم تكن سُوقاً وحسْبُ، وإنما كانت عالَماً للعرب

---

(١) عباس محمود العقاد ـ مطلع النور: ٧٦.

● عَكَظَهُ عن حاجَتِهِ، وعكَّظَهُ: رَدَّهُ عنها، وصَرَفَهُ[١]. . .

تلك هي جملةٌ من معاني الكلمة، ومن التأمُّلِ فيها يبدو لنا، وكأن الكلمة إنما وُضِعتْ من أجل هذه السوق، وليس لأيَّةِ عِلَّةٍ لُغويَّةٍ أخرى، فكل مَعْنىً منها له دَلاَلةٌ على بعض ما كان يجري في السوق، وهذا ما أعْجَزَ الباحثين، وأهلَ الأخبار، فذهبوا في التفسير والتعليل مذاهبَ مختلفةً شَتَّى، وقَلَّبُوا الكلمةَ على بعض هذه المعاني، فقيل إن السوق سُمِّيت عُكاظاً، لأن قبائل العرب كانت، إذا حَضَرت موسمَها، تَتَفاخَرُ فيه، فيعكِظُ بعضُهم بعضاً بالفَخَار، أي يغْلِبُه بالمفاخرة. . . وكانوا يَتَحاجُّونَ، فيعكظُ أحدُهم خصمَهُ بالحُجَّة عكْظاً، أي يقْهرُهُ. وقيل إنها سمِّيت بذلك من تَعكَّظَ القومُ تَعكُّظاً، إذا تَحبَّسُوا لينظروا في أمورهم، وكانت العربُ تجتمعُ بعكاظ للتشاوُرِ والنظرِ في شؤونهم[٢].

وفي اعتقادنا أن تلك المعاني كلَّها صالحةٌ لتعليل التسْمِيَة، فالحبْسُ، والعَرْكُ، والعِرَاكُ، والقهْرُ، والمفاخرةُ، والدَّعْكُ، والدَّلْكُ، والمجادَلةُ، والمَطْلُ، والاجتماعُ، والازدحامُ، والتمتُّعُ، وما إلى ذلك، جميعُها من أغراض عكاظٍ ووقَائِعِهِ، وهذا مذهبٌ في التَسْمِيَةِ تتجلَّىٰ فيه عبقريةُ العرب، وبراعتُهم في اختيار كلماتهم. والواقع أن ما كانت العربُ تعالجه في مواسم عكاظ، فضلاً عن التجارة، أوسعُ من أن يُحيطَ به عَدٌّ، فكانوا يتناشدون ما أحْدثَ شعراؤهم من الشعر، ويتفاخَرون، ويتَحاجَوْن[٣]، ويتنافَرون[٤]،

---

(١) ابن منظور ـ لسان العرب: ٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨ (عكظ).

(٢) **ياقوت الحموي** ـ معجم البلدان: ٤/ ١٤٢، ولسان العرب: ٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، و**محمد عاطف بك** ـ أدبيات اللغة العربية: ١/ ١٢ (المطبعة الأميرية بمصر ١٩٠٩ م).

(٣) **تحاجَوْا**: تطارَحُوا الأحَاجي لامتحان الفِطْنة والعقل.

(٤) **المنافَرة**: التفاخُر بعِزَّة النَّفَر وكثرة العدد.

①ـ مَذَاهبُ القدماء وبعض المتأخّرين في مَوضع عكاظ ومَعَالِمِهِ:

صَفْوةُ ما يمكنُ اسْتخلاصُه من أقوال القدماء، أن موضعَ عكاظٍ كان بأَعْلا نَجْدٍ(١)، في أرضٍ هي من دِيَار قبائل قيس بن عيلان بن مُضَر(٢)، بين وادي نخلة، ومدينة الطائف(٣)، ووراءَ قَرْنِ المنازل(٤)، بنحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، أي مسيرةِ ليلةٍ واحدة، على طريق المسَافر من مكة إلى اليمن، وأنه من أعمال الطائف، على عشرة أمْيالٍ، إلى اثْنَيْ عَشَرَ مِيلاً منه(٥). وقيل بل إن بينه وبين مدينة الطائف ليلةً، أي نحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، وأن بينه وبين مكَّةَ ثلاثَ ليالٍ، وأن السوق كانت تُقامُ بمكانٍ منه يُسمَّىٰ: الأُثَيْداءُ(٦)... وذُكر أن فيه صخوراً، كانوا يطوفون بها، ويحجُّون إليها، وبه كانت أيامُ الفِجَار الآخِر(٧)، إلا اليومَ الأوَّلَ منها، كانت الوقعةُ فيه بموضعٍ في وادي نَخْلةٍ،

---

(١) **محمد بن حبيب** ـ المحبَّر: ٢٦٧، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، **وأبو علي المرزوقي** ـ الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥، ود. **عبد الوهاب عزام** ـ موقع عكاظ: ٤٣ ـ ٥٣، **وعالِيَةُ نَجْدٍ**: ما فوق أرضِ نَجْدٍ إلى أرض تهامة، وإلى ما وراء مكة، وهي الحجازُ وما والاها. وعاليةُ الوادي وأعلاهُ حيثُ ينحدر الماءُ منه، وسافِلتُه أو أسْفلُه حيث ينصبُّ إليه. وعلى ذلك فأعلى نَجْدٍ يقع في الغرب والجنوب منها.

(٢) **أبو الوليد الأزرقي** ـ أخبار مكة: ١/ ١٩٠.

(٣) **ياقوت الحموي** ـ معجم البلدان: ٤/ ١٤٢، **وأبو الفرج الأصفهاني** ـ الأغاني: ٢٢/ ٦٤.

(٤) **قرن المنازل**: من المعلوم أن وادي نخلة موضعٌ على ليلةٍ من مكة، فيه نخلٌ وكرومٌ، وهو مجتمع وادِيَيْ نخلة اليمانية ونخلة الشامية، وقَرْنُ المنازل مَوضعٌ بنخلة اليمانية يُعرف اليومَ بالسَّيْل الكبير، وهو ميقاتُ الإحرام لحاجِّ نَجْدٍ واليمن والطائف، بينه وبين مكة ليلتان، أو (٥١) ميلاً تقريباً، وبينه وبين الطائف (٣٦) ميلاً، فيكون الطريق بين مكة والطائف نحو (٨٧) ميلاً ـ (معجم البلدان: ١/ ٤٤٩، ٤/ ٣٣٢، ٥/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨، وأخبار مكة: ٢/ ٣١٠).

(٥) أخبار مكة: ١/ ١٩٠، والأغاني: ٢٢/ ٦٤.

(٦) **الأُثَيْداء**: موضعٌ اندرستْ معالمه فبات مجهولاً.

(٧) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

يُحدِّثنا بشيء من أخبارها؟ مع أنه نظر من موقفه على الحُرَيْرة نحو الجنوب، فرأى جَبَلاً أبْعَدَ من الحُرَيْرة ومن عكاظ؟ والواقع أن الرجل أُتِيَ في حُكمه من تَوَهُّمٍ، نَشَأ في فكره من أمرين، **أحَدُهما**: بلوغُه موقعَ الحُريْرة قادماً إليها من الغرب إلى الشرق رأساً، **والآخَرُ**: ما عَزاهُ ابنُ بُليهد إلى عَرَّامٍ السُّلميّ من كلامٍ لم يَقُلْه كما أشرنا آنفاً... فاسمعْ معي حديثَ الدكتور عزَّام:

«سِرْنا من مطار الحَوِيَّة صَوْبَ الشرق، نحو اثنيْ عشَرَ كِيلاً، فإذا أرضٌ واسعةٌ مُطمئنَّة، أدركنا فرْقَ ما بينها وبين الأرض التي سرنا عليها من الحَوِيَّة، يدلُّ منظرُها على أنها مجتمعُ مياه... ثم قال: سِرْنا إلى الشرق، نقصدُ حَرَّةً كبيرةً، عاليةً، مُشْرِفَةً على سهل واسع. سرنا إليها بالسيارات، نمرُّ بأحجارٍ كبيرةٍ بيضاءَ من المرمر... فلما بَلَغنا الحرَّةَ... صَعَدنا، وأَجَلْنا البصرَ فيما حَوْلَنا... فقال ابنُ بُلَيْهد: إن عَرَّام بنَ الأصبغ السُّلَمي يقول في عكاظ: وهو في أرض مستوية، ليس بها جبال، وإذا كنتَ في عكاظ طَلَعتْ عليك الشمسُ على حَرَّةٍ سوداء. وبه عُبَيْلاتٌ بِيضٌ تُطيفُ بها العربُ في جاهليَّتِهم، ويَنْحرون عندها... فقال الدكتور عَزَّام: فلننظُرْ تصديقَ هذا! هذه أرضٌ مستوية، وهذه الحَرَّةُ تطلعُ الشمسُ عليها، أعني أنها شرقيُّ المكان. قال هو (أي ابنُ بليهد)، وبَدَويٌّ كان معنا: وهذه الحَرَّةُ تُسمَّى الخَلَصَ... والعُبَيْلات البِيضُ قد رأيناها في طريقنا متفرقةً، وسنراها..»[١]، والغريبُ أن الدكتور عزام لم يُحقِّقِ النصَّ الذي عَزاهُ ابنُ بُليهد إلى عرَّام السُّلَمي بل قال في حاشيةٍ له: «يُنظَر كتابُ جبالِ تهامة لعرَّام»[٢]، وكأنه لم يطَّلع بنفسه عليه!

(١) موقع عكاظ: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المرجع نفسه: ٢١/الحاشية.

وقرن المنازل ستةُ أميال[1]، فيكون موقعُها بذلك شمالَ الطائف، ولعله يكون أيضاً إلى الغرب والشمال من موقع عكاظ، ولكنها اليومَ باتتْ مجهولةً بعدما خربت. وقد ذكر الهمداني أن سَراةَ الطائف، غَوْرُها مَكةُ، ونجْدُها دِيارُ هَوازِنَ من عكاظٍ والفُتُق[2]. وقيل كذلك إنه كان بجنب عكاظ وادٍ عريضٌ، من بلاد قيس بن عيلان، يُقال له رَحْرَحَان، وقع فيه يومان من أيام العرب، ولم يَعُدِ اليوم معروفاً[3]. وذكر ياقوت أن موضعَ «كلاخ» قريبٌ من عكاظ[4]، وهو قريةٌ بها مَزارعُ، تقع شمالَ وادي بَسْل، ما تزال معروفةً[5].

* * *

ويُضَافُ هنا أيضاً ما نقله الجاسِرُ وعزَّامٌ وابنُ بُليهد، في موقع عكاظ، عن صفة جزيرة العرب للهمداني، وقد أثْبَتَ في كتابه أُرْجُوزةً، ذكر فيها صاحبُها عيسى بنُ أحمد الرِدَاعيُّ اليمانيُّ، المواضعَ التي مرَّ بها تِباعاً، في طريقه من صنعاء إلى مكة للحجِّ[6]. . . على أن هنالك طريقين من اليمن إلى مكة، أحَدُهما تهاميٌّ، يأخذُ على ساحل البحر الأحمر، وهو أَطْولُ مسافةً، والآخَرُ يأخذُ على صنعاءَ، فصَعْدَة، فنجْرانَ[7]، فبِيشَة، فتَبالَة، فتُرَبَة، فأَوْقَح، فكلاخ، فجِلْدان، فعكاظ، أو الطائف، فرأس المناقب، فقَرْن المنازل أي السيْل الكبير، وينتهي إلى مكة[8]. وهذا الطريق هو الذي سلكهُ

---

(١) موقع عكاظ: ٤٤ ـ ٤٦، ٦٧.
(٢) المرجع نفسه: ٤٩.
(٣) أبو الفضل الميداني ـ مجمع الأمثال: ٢/ ٥٢٠، ولسان العرب: ٢/ ٤٤٧ (رحح).
(٤) معجم البلدان: ٤/ ٤٧٤.
(٥) موقع عكاظ: ٦٥.
(٦) المرجع نفسه: ٢٣ ـ ٢٧، ٣٣ ـ ٣٤، ٥٨ ـ ٥٩.
(٧) معجم البلدان: ٥/ ١٨٧.
(٨) موقع عكاظ: ٥٥ ـ ٥٦.

صاحبُ الأُرْجُوزَة، ويبدو من نَسَقِ المواضع، التي جَعَلَ يذكرُها في أبياته، أن موقع عكاظٍ إنما هو في مُحيط الطائف، قريبٌ منه، وقبل السَّيْل الكبير، في طريقِ الذاهب إلى مكة. وسنذكرُ، فيما يلي، موضعَ الشاهِدِ فقط من أبيات الأُرْجُوزة، وذلك بعد خروج الراجز من «تُرَبَة»، ووصوله إلى «أَوْقَح» حيث قال يخاطبُ أولاً ناقتَهُ، ثم زوجتَه هِنْداً:

قلتُ لها في مُطْلَخِمٍّ طاخِ	«بأَوْقَحٍ» ذي المنهل الوضَّاخِ[1]
يا ناقُ هَمَّ الشهرُ بانْسِلاخِ	فأزْمِعي بالجِدِّ، لا التراخي[2]
فانْتَهضَتْ بمُشْرِفٍ شَمَّاخِ	قاربةً للورْدِ من «كَلاخِ»[3]
يا هندُ لو أبصرتِ عن عِيَانِ	قَلائِصاً يُوضِعْنَ في «جِلْدانِ»[4]
مُشْفِقَةً من زاجرٍ كَظَّاظِ	مُسْهِلةً للخَبْتِ من «عكاظِ»[5]
تاركةً «قُرّانَ للمَنَاقِبِ»	و «شَرِباً» في جُنْحِ ليلٍ واقِبِ[6]
واستبدلتْ بالخوف دارَ الأمنِ	وجاءتِ الميقاتَ «وادي قَرْنِ»[7]

ومن الواضح أن الرجل ترك مَنْهلَ «أَوْقح» إلى «كلاخ»، ثم إلى «جِلْدان»، ثم نزل إلى «عكاظ» فاجتاز فيها «شَرِباً وقُرَّانَ» إلى «المناقب»، ثم

---

(١) المُطلَخِمُّ: الشديد. الطاخي: الليلُ المظلم. الوضَّاخ: الممتلىء.

(٢) انسَلَخ الشهر: مضى ولعلَّه أراد شهر ذي القعدة. الزَّمَاعُ: المَضَاءُ في الأمر والعزمُ عليه.

(٣) المُشْرِف: العالي. الشمَّاخ: المتكَبِّرُ أو المرتفِعُ.

(٤) القَلائِصُ: الإبلُ الشابَّةُ الطويلة القوائم، مُفْردها: قَلُوص. أَوْضَعَ البعيرُ: أسرع في سيره، ويُوضِعْن: يُسْرِعن.

(٥) الزاجِرُ: السائق والدافع. الكَظَّاظُ: المغْتَاظُ أشدَّ الغيظ. مُسْهِلَةً: نازلةً من الجبل إلى السهل. الخَبْتُ: الأرضُ الواسعةُ المطمئِنَّةُ (وهو وصف لأرض عكاظ).

(٦) الواقِبُ: المُظْلم.

(٧) الميقات: حدودُ الحَرَم، حيث يُحْرِمُ الحاجُّ.

إلى وادي «قَرْن» في السيل الكبير، أي «قرن المنازل»... ويبدو من بقية الأُرْجُوزَة أنه تابَعَ طريقه بعدئذٍ إلى مكة، سالِكاً وادي نخلة من طريق البَوْبَاة، وهي البُهَيْتَاء، ويقالُ لها: البُهَيْتَة، فالزَّيْمَة، فسَبُوحَة، فمنهل حنين، فالشرائع، فمكة المكرَّمة.

والمتقدمون الذين قالوا إن سوق عكاظ تقعُ على الطريق بين وادي نخلة والطائف، للمسافر من مكة إلى اليمن، أرادوا هذا الطريق، وهو الذي سلَكَتْهُ قريشٌ في أول يومٍ من الفِجَار الأخير، وسُمِّي يومَ نخلة[١]، وذلك لمّا جاءَها في عكاظ مقتلُ سيِّدِ هوازِنَ عُرْوَة بنِ عُتْبَة الكِلاَبيّ، بيد حلِيفها البرَّاضِ بنِ قيسٍ الكِنَانيّ، فقد خَشِيَتِ انْدِلاعَ الحربِ بينها وبين قبائل هوازِنَ، وهم أصحابُ السوق، وأهلُ تلك البلادِ من «تَبَالَة»[٢] إلى حدود «نَخْلة»[٣] فاحتالتْ بخُدْعةٍ على سادة هوازن، وارتحلتْ من السوق مع الفجر، فاجتازت وادي شَرِب إلى قرن المنازل، قاصدةً نَخْلة اليمانية... وكان الخبرُ أتَىٰ هوازِنَ آخرَ النهار[٤]، بعد ارتحال قريش، فركبوا في طلبهم حتى أدركوهم بنخلة[٥]. فاقْتَتَلوا قتالاً يسيراً، حتى دخلت قريشٌ حدودَ

---

(١) موقع عكاظ: ٤٥.

(٢) تَبالة: قريةٌ من تهامة الحجاز، تقع بعد «بيشة»، وهي قريةٌ من جهة اليمن، غنَّاءُ، في وادٍ كثير الأهل، وبينهما أربعة وعشرون ميلاً، ويقعُ بعد بيشة مَوْضعُ «تُرَبَة»، وهو وادٍ على أربع ليالٍ من الطائف، يسكنه بنو عامر من هوازن. (معجم البلدان: ١/٥٢٩، و ٢/٩، و ٢/ ٢١، وتاج العروس: ٢/٦٨ ـ ٦٩ ترب).

(٣) موقع عكاظ: ٥٤ ـ ٥٥ و ٥٨.

(٤) أيام العرب في الجاهلية: ٣٣٠.

(٥) الكامل: ١/ ٥٩٢.

يُتَّخذُ من الدقيق والماء أو اللبن، أغْلَظُ من الحَسَاءِ، وأرَقُّ من العَصِيدة، يُؤكل في شِدَّة الزمن، وغلاءِ السعر، وعَجفِ المال، وكانت قريشٌ تُكْثِرِ من أكلها، فعُيِّرتْ بها حتى سُمُّوا سَخِينةً[١] . . .

أما سائرُ المواضِع التي مَرَّ بها الراجِزُ فأكثَرُها ما يزال معروفاً، ولكننا نَجتَزِىءُ بما يعنينا أمرُه، **فأَوْقَحُ** موضعٌ به مَنْهلُ ماءٍ عَذْبٍ، يقعُ إلى الشرق من وادي كلاخ، بَعْد جبل عُنٍّ إلى غَربه. **وكلاخُ**، كما ذكرنا، وادٍ قريبٌ من عكاظ، فيه قريةٌ ومَزَارِعُ، ماؤه ثقيلٌ ملحٌ[٢]، يقع إلى الشمال والشرق من بَسْل. **وبَسْلُ** من أوْدِيَة الطائف، جنوبُه لبني فَهْم بن عمرو، وشمالُه لبني نصر بن معاوية، وكلاهما من قبائل قيس بن عيلان، وبين بَسْل ووادي لِيَّة بلدٌ يُسمَّىٰ **جِلْدَان**[٣]، مَوقعُه إلى الشمال من كلاخ، وهو في أرضٍ سهلةٍ، مُتَّصلةٍ بسهل **رُكْبَة**[٤]، وفيها هضبةٌ سوداءُ، كانت تُسمَّىٰ «بَتَعَة»، وكانوا يُعَظمونها[٥]، ويُسَمُّونها اليومَ: **حَلاَةَ جِلْدان**[٦]، وهي من منازل بني نصر بن معاوية[٧]. أمّا «**لِيَّة**» فوادٍ من نواحي الطائف[٨]، إلى شرقها، وهو من منازل بني نصر بن معاوية، وقيل: إن جنوبه لبني ثقيف، وشماله لبني نصر[٩]،

---

(١) لسان العرب: ١٣/ ٢٠٦ (سخن).
(٢) موقع عكاظ: ٢٤، ٣٣، ٥٨.
(٣) معجم البلدان: ١/ ٤٢٣.
(٤) موقع عكاظ: ٦٣.
(٥) معجم البلدان: ١/ ٣٣٥، ٤٢٣، و ٢/ ١٤.
(٦) موقع عكاظ: ٦٣.
(٧) معجم البلدان: ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١.
(٨) المرجع نفسه: ٥/ ٣٠.
(٩) موقع عكاظ: ٥٤، والمفصَّل: ٤/ ١٤٢.

وهما من هوازن. وبعد جِلْدَانَ، نزلَ الراجزُ إلى **عكاظ** وسَهْلِها الواسِع، واجتاز فيه مواضِعَ **شَرِبٍ وقُرَّانَ** إلى **المناقب**، ليُقْبِلَ بعدها على وادي قَرْنٍ، مِيقاتِ الإحْرام، وهو **قَرْنُ المنازل** عند السيل الكبير... وعَدَّ الهمدانيُّ مواضِعَ شَرِبٍ وقُرَّان من أرض عكاظ، يضربُ على مَشْرقها **جبلُ الحَضَنِ**، حَضَنِ عكاظ، وهو على مَسيرةِ يومٍ وبعضِ يوم من هذا الطريق[١]، موقعُه بأعْلا نَجْدٍ، أي في حَدِّها الجنوبي إلى الغرب، ويُقال في المثَل: **أَنْجَدَ** من رأى حَضَناً[٢]، أي بَلَغَ بلادَ نَجْدٍ إذا رآهُ. **وقُرّانُ** وادٍ قُربَ الطائف[٣]، ينحدر من الأرض الواقعة بين وادي الحَوِيَّة ووادي السيل الصغير، وهو في غَرْبه، ويلتقي مِن ثَمَّ بوادي العقيق الكبير، ويقعُ وادي قُرَّانَ غربَ عكاظ، يفصِلُ بينهما جبالٌ صغيرة، تمتدُّ من الجنوب الغربي، إلى الشمال الشرقيّ[٤]. أما **المنَاقِبُ** فمعلومٌ أنها **الرِّيعَان**[٥]، التي يهبط إليها المسافرُ إلى مكة، بعد أن يجتازَ السَّيْلَ الصغير، في طريقه إلى قَرْنِ المنازل[٦].

* * *

وأخيراً، إن ما أَجْمَلناهُ من مذاهب القدماء في مَوضِع عكاظ، وما أضَفْناهُ إليها من أقوال بعض الباحثين المتأخرين، ثم ما أثْبَتْناه من بيانٍ للمَعَالم التي كانت تكتَنِفُ مَوْضعَ عكاظ، ومن تَعْيينٍ لمواقِعِها منه، ومَوْقعِه منها... من شأنه مُجْتَمِعاً أن يأتيَ مُصَدِّقاً لمَا ذهب إليه:

---

(١) موقع عكاظ: ٤٩، ٦٣.

(٢) معجم البلدان: ٢/ ٢٧١.

(٣) المرجع نفسه: ٤/ ٣١٨.

(٤) موقع عكاظ: ٦٥.

(٥) الرِّيعَانُ: مفردُها الرِيعُ، وهي الطرُق المنفرجةُ في الجبل.

(٦) موقع عكاظ: ٢٧، ٣٤، ٤٥.

١ ـ معظمُ المؤرِّخين في تَعْيينهم مَوْقعَ عكاظ بين وادي نَخْلة والطائف، على طريق مكة ـ صنعاء، وفي تحديدِهم مَوْضِعَه بالحدِّ الجنوبيّ من نَجْدٍ، في بلاد قَيس بن عَيْلان.

٢ ـ **الأزرقيُّ** في قوله: «... وعكاظ وراءَ قرن المنازل بمرحلة، على طريق صنعاء، في عَمَل الطائف، على بريد منها»[١].

٣ ـ **الأَصْمعيُّ** في قوله: «عكاظُ نَخْلٌ في وادٍ، بينه وبين الطائف ليلةٌ، وبينه وبين مكة ثلاثُ ليالٍ، وبه كانت تقومُ سوقُ العرب...»[٢].

٤ ـ عرَّامُ بنُ الأَصْبَغ في وَصْفِه أرضَ عكاظ بأنها مُسْتَوِيَةٌ، غيرُ وَعرة، ليس بها جبلٌ أو عَلَمٌ، وبأنها قريبةٌ من جبل عُنٍّ[٣].

٥ ـ الهمدانيُّ فيما ذكره من أُرجوزة الرِّدَاعيّ، التي رَسمتْ طريقَ صنعاءَ ـ مكة، وعيَّنَتْ موقعَ عكاظٍ بعد هَضبة جِلْدَان، وقبل المناقب، على التحديد.

ولا أرى مُوجِباً للتوقُّفِ كثيراً عند الفرق، بين تقديرالأزرقي لبُعْدِ عكاظ عن الطائف بِبَريدٍ، أي نحوِ إثني عشر ميلاً، وتقديرِ الأصمعيّ له بليلةٍ، أي نحو أربعة وعشرين ميلاً، وذلك لأمرين:

الأوَّلُ: أن أرضَ عكاظٍ سهلٌ واسعٌ ممتدٌّ، كان يتَّسِعُ لعَدَدٍ من الأُلوف بخِيَامِهم وأنعامهم وسائر بضائعهم، ولم تكن بُقْعةً صغيرةً لِيَسْهُلَ قياسُ بُعْدِها عن الطائف، والطائفُ كذلك لم يكن قريةً صغيرةً منفردةً، بل كان منطقةً واسعةً مُتَرامِيةَ الأطراف.

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٩٠.

(٢) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٣) أسماء جبال تهامة: ٤٣.

والآخَرُ: إتّفاقُهما معاً في تَقْديرهما للمسافة بين عكاظ وقَرن المنازل بليلةٍ واحدةٍ، صرَّح بها الأزرقيُّ، وكَنَىٰ عنها الأَصمعيُّ، بتقديره المسَافةَ بين مكة وعكاظ بثلاث ليالٍ، ونحن نعلم أن ما بين مكة وقرن المنازل ليلتان، فيكون ما بين قرن المنازل وعكاظ ليلةً واحدةً. أمَّا قولُ الأصمعي بأن عكاظ نَخْلٌ في وادٍ، فقد علمنا أن هذا الوادي هو وادي شَرِبٍ قطعاً، ولا شك في ذلك، والموضعُ بات واضحاً، فَلْنَنظُرْ أين رأى الباحثون المتأخِّرون هذا الموضع...

* * *

(٢) ـ الكشفُ عن موضع عكاظ:

١ ـ نُشِرَ للشيخ العَلاَّمة حمد الجاسِر، سنة (١٩٥٠ م)، تحقيقٌ جيِّد في موضع عكاظ، كان أعَدَّهُ سنة (١٩٤٤ م = ١٣٦٣ هـ). وجعله د. عَزَّام من ضمن كتابه «موقع عكاظ». وقد قدَّم الرجلُ لتحقيقه بالقول: «هذه كلمةٌ، حاولتُ أن أُوضِّح بها موقعَ سوق عكاظ، مُورداً أقوال مُتَقدِّمي المؤرِّخين، وواصِفاً، على ضَوء مُشَاهدتي، المكانَ الذي لا يُخامرني شكٌّ في أنه هو موقعُ ذلك السوق، ومُحاولاً تطبيق تلك الأقوال على أوصاف ذلك المكان...»[١].

وبعد أن تَقَصَّى أقوالَ المتقدمين، قَولاً قَولاً، ولم يَدَعْ منها شيئاً، مع الشرح والتعليق، انتهى إلى أنها في جُملتها، وعلى اختلاف عباراتها، متقاربةٌ في المعنى، متطابقةٌ في الدلالة، وقد لا يوجد للقدماء ما يُخالفها[٢]... ثم ذكر أن تلك الأقوال تَتَلخَّصُ بأن موقع عكاظ:

---

(١) موقع عكاظ: ٤٣.

(٢) المرجع نفسه: ٥٣.

● كان في أعْلَى نَجْد، وليس في تهامة، أو الحجاز، أو اليمن.

● وأنه في بلاد بعض قبائل قيس بن عيلان من مُضَر.

● وأنه على طريق اليمن من مكة، بين المناقب وكلاخ.. أي وراء قرن المنازل.

● وأنه يبعد عن الطائف مسافةً، اختلف المتقدِّمُون في تقديرها، بين عشرة أميال أو اثنَيْ عَشَرَ ميلاً، ومَسيرةِ يوم، أي نحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، ولا يُعَدُّ هذا الاختلافُ جوهرياً، لأن الطائف إسمٌ لا يُطلَق على المدينة وحَسْب، بل وعلى القُرى والأمكنة التابعة لها، مِن حَوْلها.

● وأنه يقعُ في صحراءَ مُسْتَوِيةٍ، خاليةٍ من الأَعْلام والجبال، سوى صخراتٍ كِبَارٍ، وحُرَيْرةٍ في مَهبِّ الجنوب منه.

● وأنه مُتَّصِلٌ بأرض رُكْبَةَ، ويقع جبلُ حَضَنٍ في مَشْرقه، على مسافة يومٍ وبعضِ يوم، ووادي قُرَّانَ في مَغْربه، بقُرْبه.

● وأن من أَوْديته وادي شَرِب[1]...

وانتهى الشيخ من هذه الخُلاصة إلى القول: «إن جميع الأوصاف المُتَقدِّمةِ، تنطبق انطباقاً تامّاً، على الأرض الواسعة، الواقعةِ شَرْقَ الطائف، بمَيْلٍ نحو الشمال، خارجَ سلسلة الجبال المُطِيفَةِ به. وتبعدُ تلك الأرضُ عن الطائف نحو اثنين وعشرين ميلاً تقريباً. **ويَحُدُّها من الغرب**: جبالُ بلادِ بني عَدْوان في العَقْربِ وشَرِبٍ والعُبَيْلاء[2]. **ومن الجنوب**: **أَبْرَقُ العُبَيْلاء**[3]،

---

(١) موقع عكاظ: ٥٤ ـ ٦١.

(٢) العَقْربُ وشَرِبٌ والعُبَيلاءُ: كانت في الجاهلية، وما تزال حتى اليوم لبني عَدْوان بنِ عمرو بن قيس عيلان. وتقع قريةُ شَرِبٍ على ميل واحدٍ من الحَوِيَّة.

(٣) الأبرق: الأرض الغليظةُ فيها حجارةٌ ورمل وطين.

وضِلَعُ الخَلَص[1]. **ومن الشرق**: صحراءُ رُكْبَة. **ومن الشمال**: طرَفُ رُكْبَة، والجبالُ الواقعةُ شرقَ وادي قُرَّان... **وتشملُ هذه الأرضُ: وادي الأُخَيْضِر، ووادي شَرِب**، عندما يَخرُجان من الجبال ويَفِيضَانِ في الصحراء، وما بينهما من الأرض، وما اتصل بها من طَرفِ رُكْبة»[2].

ثم أشار الجاسِرُ إلى المواضع الواقعةِ قربَ عكاظ، التي يُستدلُّ بها على مَوضعه، فذكر أن منها ما يزال معروفاً باسمه حتى اليوم، مثل: بُسّ، وجلدان، وحَضَن، ورُكبة، وشَرِب، والعَبلاء، وعُنّ، وقُرّان، وكلاخ، وضِلَع الخَلَص (الحريرة)، والعَقْرب، والأُخَيضِر، وغيرِها... ومنها ما صار مجهولاً، مثل: الأُثَيْداء، وشَمْطة، وبَقْعاء، والخُدود، والفُتق والقفا[3]... لكنَّ ما عرَّفهُ منها كان كافياً للتحقيق، الذي جَعله أوَّلَ مَن اكتشفَ موضعَ عكاظ، وعَيَّن حُدودَهُ ومَعَالِمَهُ، وأَثْبتَ ذلك بالأَدلَّة القاطعة، والبراهين الساطعة، وإن كان بعضُ الباحثين ممَّن جاؤوا أخيراً، ذهبوا مذاهبَ مخالفةً.

* * *

٢ ـ ويبدو أن تحقيق الشيخ الجاسِر، كان إرْهاصاً لتحقيقٍ آخَرَ، قام به العالمُ النجديُّ محمد بن بُليهد مرَّتَين، في الموضعِ عَيْنِهِ، عند مَجْمع الوادِيَيْن: شَرِبٍ والأُخَيْضِر، المرةُ الأولى كانت نحو سنة (١٩٤٩ م)، في صُحْبة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز، وكان ما يزال أميراً، والثانية كانت سنة (١٩٥٠ م)، وقد صَحِبَهُ فيها عبدُ الوهاب عزَّام، وهو ما يُفهم من كلام الأخير حيث قال: «... وقد أخبرني منذ أشهرٍ، الصديقُ الأديبُ

---

(١) ضِلَع الخَلَص: الحُريرة.

(٢) موقع عكاظ: ٦٢.

(٣) المرجع نفسه: ٦٢ ـ ٦٧.

الهاشميات[1]، وهو:

أهل الحنيفةِ، فاسْأَلْ عن مَكانِهِمُ   بالمَوْقِفيْن، ومُلْقَىٰ الرَّحْلِ من شَرِبِ

ومُلْقَىٰ الرَّحْلِ من شَرِبٍ كنايةٌ عن الموضع، الذي كانت تُلْقَى فيه الرِحَالُ، من وادي شَرِب، وهو سوقُ عكاظ. ذكر ذلك لابْنِ بليهد مُعَلِّمُه الشيخُ ابنُ عيسى، وهو إبراهيمُ بنُ صالح[2]، المؤرِّخُ النجديُّ، وكان وَجَدهُ في كتاب مخطوطٍ، بإحدى مكتبات البصرة، يتحدَّث عن أخبار نجْدٍ وجبالها ومياهها، وفيه أن شَرِباً والأُخَيْضِرَ وادِيَان قُرْبَ الطائف، يَنصَبَّان من الغرب إلى الشرق، وعكاظٌ مَجْمَعُ الواديين[3].

وعلى ذلك، خَلُص ابنُ بُلَيهد إلى أن **موضعَ عكاظ هو مَجْمعُ الواديين: شَرِبٍ والأُخَيضِر**، يَحدُّهُ من الشرق نبعُ ماءٍ يُسمَّى المبعوث، ومن الغرب، على مسافة اثنَيْ عَشَرَ كِيلاً منه، مطارُ الحَوِيَّة[4].

* * *

وأما عبد الوهاب عزَّام، فارْتَحل إلى مَوْضع عكاظ، عند مَجْمع الوادِيَيْن، لِمُعَايَنَةِ المعالم الجغرافية للموضع، والمطابقة بينها وبين ما ذُكر عنها في أقوال المؤرِّخين... فوقف على الحُرَيْرة، المعروفةِ اليومَ بِحَرَّةِ الخَلَص، ونظر إلى أقصى الجنوب، فرأى هضبةَ جلدان، وتُسمَّى اليومَ حَلاةَ

---

(١) موقع عكاظ: ٣٢.

(٢) إبراهيم بن صالح بن إبراهيم: (١٢٧٠ ـ ١٣٤٣ هـ = ١٨٥٤ ـ ١٩٢٥ م). وُلد في بلدة أُشَيْقِر، بإقليم الوشم من نَجْد، وتعلَّم فيها. رحَل إلى الهند والأحْسَاء والبصرة وغيرها، ثم استقرَّ في بلدته، يُقْرِئُ العلم، ويُدوِّن الأخبار. توفي في عُنَيْزة بالقَصِيم.

(٣) موقع عكاظ: ٣٧ ـ ٣٨.

(٤) المرجع نفسه: ٣١، ٣٢.

القولِ بأن شَرِباً في عكاظ[١]، مع أن الرجُلَ لم يقل ذلك[٢]، بل قاله غيره. وكنَّا عَرَضْنا كثيراً من مشاهداته، وناقشنا بعضَها، في حديثنا عن مذاهب المؤرخين في موضع عكاظ، وأخذنا عليه في تَعيينه موقعَ الحُرَيْرة بشرقِ عكاظ، استنادَهُ إلى نصٍّ غيرِ موجودٍ أصلاً في كتاب عرّام السُّلَمي.

* * *

٣ ـ ثم عَلَّق الأستاذ رشدي مَلْحَس، سنة (١٩٦٥ م)، في تحقيقه كتابَ أخبار مكة للأزرقي، على موقع عكاظ فقال في الحاشية: «عكاظ بالقُرب من نواحي رُكْبَة، إلى جهات الطائف»[٣]، فأنْهَى بذلك كلَّ خلاف، وقطع كلَّ شكٍّ، وهو مُحقِّق جغرافيٌّ جيّدٌ، حقَّق كثيراً من الأمكنة والمنازل التاريخية في جزيرة العرب، أثناء إقامةٍ بالديوان الملكيّ السعوديّ، استمرَّتْ زهاءَ ثلاثين عاماً[٤].

ولعلّ من المفيد أن أُشِيرَ هنا إلى تعليقٍ آخَر للسيد مَلْحَس، ذكر فيه أن مدينة الطائف تبعُدُ اليومَ عن مكة، مئةً وسبعةً وثلاثين كِيلاً، للسيارات، بطريق السَّيْل الكبير[٥]، أي قرن المنازل. ونظرتُ فوجدتُ هذا القَدْرَ يساوي نحوَ خمسةٍ وثمانين ميلاً، وهو قريبٌ جداً من تقدير المؤرِّخين المتقدِّمين للمسافة من مكة إلى عكاظ، ومنه إلى الطائف. مع العلم بأن طريق السيارات أقصَرُ، لأنه ينحرف بعد المناقب يميناً، ويتَّجهُ مباشرةً إلى الطائف، بينما

---

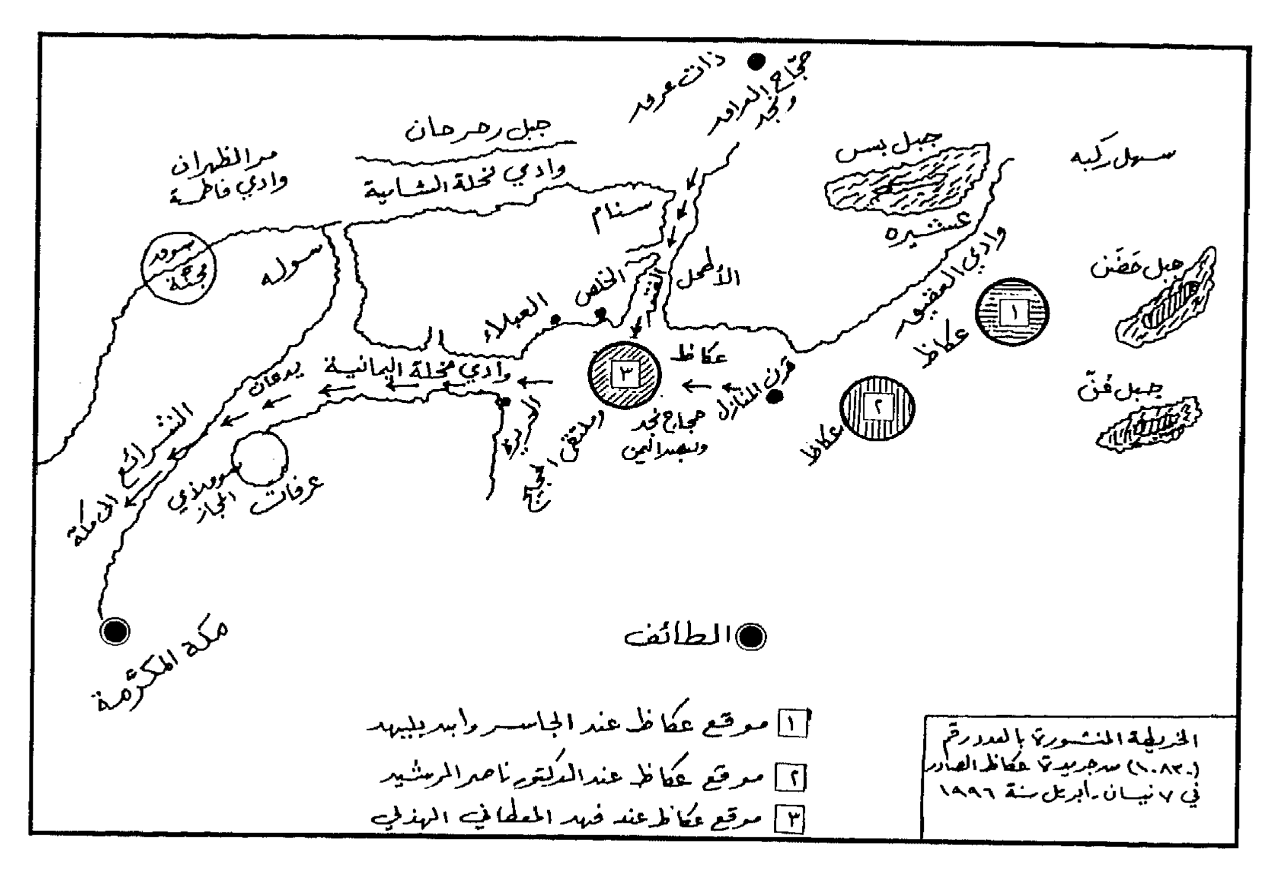
(١) موقع عكاظ: ٢١.

(٢) معجم البلدان: ٣/ ٣٣٢.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٧، الحاشية رقم ٩.

(٤) خير الدين الزركلي ـ الأعلام: ٣/ ٢١.

(٥) أخبار مكة: ٢/ ١٥٧، الحاشية رقم ٦.



وقد بادر صاحبُ السُّمُوِّ الملكيّ الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، فألَّف لجنةً من الأدباء والخبراء، وكلَّفها العملَ على تحديد هذا الموقع، وتسليم موضعه إلى إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف. وقد اجتمعت اللجنةُ في المدَّة من (٢٢/ ٢/ ١٤١٧) حتى (٥/ ٣/ ١٤١٧ هـ=١٩٩٦ م)، وعكفت على دراسة مختلف الآراء، والخرائط المُعدَّة من قبل بعض الباحثين، والكتُب المصنَّفة في هذا الموضوع قديماً وحديثاً، ثم انتقلت إلى المكان، وعاينت فيه المعالم والآثار الباقية، ثم رجَّحتْ الموضعَ الواقعَ شمالَ شرقِ الطائف على خمسة وأربعين كيلاً، والمُحدَّد: **بالأُثَيْداء** من الجنوب الغربي، **والعبلاءِ** من الجنوب الشرقي، **والحُريْرة** من الشمال الشرقي، ووادي **الأُخَيْضِر** من الغرب. وقد اعتمد سموُّ الأمير نايف بن عبد العزيز، حَفِظه الله، هذا الترجيح، والخريطةَ التي رُسمت للموقع، وتمَّ تسليم الموضع إلى

من عكاظ، وأن تكتشفَ فُجاءَةً موضعَ الأُثَيداء في الجنوب الغربي من عكاظ.

ويبدو لي أن هذا هو مذهب الأستاذ عبد الله محمد الشايع، غَلَب على توجُّه اللجنة، وهو أحدُ أعضائها، قرأتُه له في جريدة عكاظ[١]، وعلَّقْتُ عليه يومئذٍ بالتعليق المناسب[٢]. فقد انطلق فيه من ظنِّه بأن «**الحُرَيْرة**» هي الحدُّ الشماليُّ للسوق، وبأن «**الأُثَيْداءَ**» مُصَغَّرُ «الأَثْداء»، وبأن الأثداءَ جمعُ «ثَدْي»! وكان ذهب إلى المكان ليكتشفَ الموقع، فشاهد في بعض أجزائه من جهة الغرب: «نُتوءاتٍ بارزةً، لعلَّ العرب القدماء شبَّهوها بالثَّدي، فسَمُّوا الهُضَيْبَةَ بالأُثَيْداء»، وقال في موضع آخر: «وعندما وقفتُ في وسط الأرض المستوية، نظرتُ ذات اليمين وذات اليسار عسى أن أرى جُبيلاً متميِّزاً، وفي ناحية الشرق شاهدتُ أَكمتَيْن مُتقاربتيْن، خُيِّل لي أنهما على شكل ثَدْيين»، وخوفَ الوقوع في غلط تحوَّل بنظره إلى جهة الغرب[٣].

وكان خلاصة تعليقي عليه أنه أقام استنتاجه على الوهم، فإذا جاز أن نغلطَ اليوم في النحو والصرف، فإن عرب الجاهلية لا يمكن أن يكونوا كذلك. وإذا رجعنا إلى معاجم اللغة وجدنا أن الثديَ يُجمع على: **أَثْدٍ وثُدِيّ وثِدِيّ**، وليس على أثداء، ويُصغَّر على: **ثُدَيَّة**... وعلى ذلك يكون استنتاجُه بدلالة المعنى الذي تَوهَّمه وحَمَله على اللفظ غلطاً!

ومن الجائز أن تكون الأُثَيْداءُ تصغيراً للأثآد جمع الثَّأَدِ، بنقل الهمزة إلى أوَّله **والثَّأَدُ**: الثَرى والنَدى، **والأَثْآدُ**: البَلَلُ، وربما كان أصلُ الكلمة **الأَثْآد**، فصارت بالقلب الأَثْداء، ودلالتُها على الندى والبَلَل والثرى أبْيَنُ لموضع السوق من نتوءاتٍ صغيرة تُشبه الثدي.

---

(١) جريدة عكاظ ـ الملحق الثقافي بالعدد رقم (١٠٦٢٧) في ١٧/ ٩/ ١٩٩٥.

(٢) جريدة عكاظ ـ الملحق الثقافي بالعدد رقم (١٠٦٥٢) في ١٢/ ١٠/ ١٩٩٥.

(٣) المرجع.

خلاصةُ الأمر أن اللجنة خطَتْ خطوةً، نرجو أن تكون قد أفلحتْ فيها، وأن تُؤدِّي إلى اكتشاف الحقِّ في حدود عكاظ، ومن الواضح أنها اتجهت بالموقع جنوباً، وكان من حقِّه أن ينطلق شمالاً، وأن يتصل بسهل رُكبة، ومُلْتقَى وادِييْ شَرِب والأُخَيْضِر، وربما بجبَل حَضَن الذي كان يُسمَّى حَضَنَ عكاظ . . .

* * *

(٣)ـ آراءُ بعض الباحثين السابقين في موضع عكاظ :

جَرتْ، في العصر الحديث، عِدَّةُ محاولات للكشْفِ عن موضع عكاظ، وبيان مَوقعِه من الأَرضِين، التي ما انفكَّتْ أسماؤها تُذكرُ، كلما ذُكر اسمُ عكاظ . . . وكان للباحثين في ذلك كلامٌ كثيرٌ، وآراءُ مختلفةٌ، منها أن عكاظاً كان يقع في السَّيْل الكبير عند قَرْنِ المنازل، ومنها أنه في موضع السَّيْل الصغير، بين المناقب والطائف، ومنها أنه بِسَهْلِ رُكْبة، في شمالِهِ المتَّصلِ بِوادي عُشَيْرة، ومنها أنه بِوادي عَقْرب، في شرق الطائف، بعد قليل من أم الحمض[1] . . . وهي آراء علَّق عليها الشيخُ الجاسِرُ بأنها جانَفتِ الصوابَ، وخالَفتِ الحقَّ، فلم يُكلِّفْ نفسَه عنَاء مناقشتها، أو بيانَ ما فيها من جَنَفٍ، أو باطلٍ، أو غلطٍ، تَظهر جَليَّةً إذا قُورنت بأقوال المتقدمين[2] .

على أننا سنعرضُ هنا، باختصار، آراءَ بعضِ أولئك الباحثين، ولا سيما الذين ارتحلوا إلى جزيرة العرب، بحثاً عن موضع عكاظ .

١ ـ رأي الأستاذ خير الدين الزِركلي :

كانت له رحلة من دمشق إلى مكة، سنة (١٩٢٠ م)، رأى فيها أشياءَ،

---

(١) د. محمد حسين هيكل ـ في منزل الوحي : ٣٦٤.
(٢) موقع عكاظ : ٤٣.

وسمع أخباراً وروايات، فكتب سنة (١٩٢٣ م) يقول: «. . . على مرحلتين من مكة، للذاهب إلى الطائف في طريق السَّيْل، يميلُ قاصِدُ عكاظ نحو اليمين، فيسيرُ نحوَ نصف الساعة، فإذا هو أمام نهرٍ، في باحة واسعة الجوانب، يُسَمُّونَها: القانس (بالقاف المعقودة)، وهي موضع سوق عكاظ. . . وهذه الباحة هي مجتمعُ الطُرق إلى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعةٌ، تُشْرف على جبال اليمن. . . والواقفُ فيها يرى على مَقْربةٍ منه موضعين مرتفعين، أحدُهما يُسمَّى: الدِّمَّة (بكسْرٍ ففتح)[1]، والآخَرُ: البُهيْتَة (بصيغة التصغير)، وعكاظُ هو الفاصِلُ بين الدِّمَّة والوادي الموصِل إلى الطريق، التي يمرُّ بها سَالِكُو دَرْب السَّيْل (أي درب اليمانية)[2]. . . ثم قال بعدئذٍ: وسمعتُ كثيراً من أهل الطائف يقولون: إن عكاظاً كان في مكانٍ، يُعرف اليوم باسم القَهاوي، في وادي لِيَّة من الطائف، غير أن الشيُوعَ يُؤيِّدُ ما قلناه آنفاً، من أنه هو القانِسُ نفسُه، وعليه أكثرُ العارفين من أهل هذه الديار»[3].

ويبدو أن الزِرْكليَّ أُتيَ في رأيه من اعتقاده بأن مَوْضعَ عكاظ على مرحلتين من مكة، فَفَتَّش عنه في منطقة السَّيْل الكبير، وذلك غلطٌ منه، لأن المتقدِّمين قالوا إنه على ثلاث مَراحِلَ من مكة[4]، أي بعد السيل الكبير بنحو مرحلة، وليس عنده! ثم إن «القانس» الذي ظنَّه موضعَ عكاظ، لا يَمُتُّ بصلةٍ إلى ما جاء في أقوال المتقدمين عن المعالم المتَّصِلةِ بأرض عكاظ.

* * *

---

(١) الدِّمَّةُ: لعلها تصحيف لكلمة الزَّيْمة، وهي كما قلنا آنفاً أولُ درب اليمانية إلى البُهَيْتَة.

(٢) دربُ اليمانية: هو الطريق إلى السَّيْل الكبير، والمسافةُ بين مكة والزَّيْمة تقاربُ ما بين الزيمة والسَّيْل الكبير، أي قرن المنازل.

(٣) ما رأيتُ وما سمعت: ٧٩.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

٢ ـ رأي الدكتور محمد حسين هيكل:

ارتحل إلى مكة للحجّ، ثم زار الطائف، وفكَّر في القيام ببعض البحث، أثناء عَوْدِهِ منها، لعله يهتدي إلى شيءٍ تطمئِنُّ له النفسُ، في تحقيق موضع عكاظ، فزار الأمكنةَ التي زَعَمتِ الرواياتُ المختلفةُ أن عكاظاً كانت تُقام بها، وكتب سنة (١٩٣٧ م) في كتابه «في منزل الوحي»، مُسْتبعِداً أن يكون موضعُ عكاظ بوادي عقرب، شرقَ الطائف، لأنه قريبٌ جداًمن الطائف، وليس مُلْتقىً لطرق القوافل. واسْتَبعدَ أيضاً أن يكون على حدود وادي رُكبة عند اتصاله بوادي عُشَيْرة، لأن العُشَيْرة لا تقعُ بين مكة والطائف، بل على مسافة يومين من الطائف إلى الشمال[١]. واسْتَبعدَ بالتالي أن يكون جنوبَ الطائف بمَيْلٍ إلى الشرق قليلٍ، لأنه لا يكون عندئذٍ بين مكة والطائف[٢]. ولم يستبعد أن يكون بالسَّيْل الصغير، لأنه، كما رآه، صالحٌ لقيام عكاظ به، لكثرةِ مياهه، ولانْفِساح البادية عنده، وهو يقع على مسيرة يومٍ من الطائف، وثلاثةِ أيام من مكة بسَيْر الإبل[٣]. ولكنه رجَّح أن يكون بالسَّيْل الكبير، أو على مَقْرُبةٍ منه، في موضعٍ هنالك يُقال له: الخُرّ، من وادي غَسَلَة، وراء جبل دَمَا[٤]. . . وليس هذا بصحيح!

وعلى الرغم من أنه أقام تحقيقه، على أساس أن موضعَ عكاظ يجب أن يكون على ثلاثة أيام من مكة، ويومٍ من الطائف، أي أن يكون ما بين مكة وعكاظ ثلاثةَ أمثال ما بين عكاظ والطائف[٥]. لكنه وقع في الغَلَطِ لمَّا حَسِبَ

---

(١) في منزل الوحي: ٣٧٣ ـ ٣٧٤.
(٢) المرجع نفسه: ٣٧٩ ـ ٣٨٠.
(٣) المرجع: ٣٨٠.
(٤) المرجع: ٣٨٠ ـ ٣٨٢.
(٥) المرجع: ٣٧٤.

السَّيْلَ الكبيرَ موضعاً لعكاظ، وهو على يومين فقط من مكة! وإني أعتقد أن العِلَّة في غَلطه تَوهُّمُهُ أن أيام الفِجَار الخمسة كانت كلُّها بعكاظ، وأن قُرَيْشاً فرَّتْ في اليوم الأول من عكاظ، فوصلت في سُوَيْعاتٍ إلى موضع نخلة، على حُدود الحَرَم المكّيّ، فاحْتَمتْ به من هوازن[1]. والواقع أن أول أيام الفجار لم يكن بعكاظ، بل في مَوضع نخلة، وأن المسافة بينه وبين عكاظ يومٌ وليلة، أي مرحلتانِ، أو نحوُ ثمانية وأربعين ميلاً.

* * *

وأخيراً، إن للدكتور هيكل مذهباً غريباً في موقع عكاظ قال فيه: «... وأوّلُ ما وقفتُ عنده أن عكاظاً تختلفُ بموقعِها عن مجنَّة وذي المجاز، فهي تقع في الآفاق من مكة، في حين تقعُ مجنَّة وذو المجاز منها في حدود مواقيت الإحْرام. مِن ثَمَّ كان يُبَاحُ بعُكاظ، ما لم يكن يُباح بمجنَّة وذي المجاز، من ألوان اللهو والمجُون، ومن ضُروب التجارة والتبادل. هذا إلى أن ذا القعدة الذي كانت عكاظ تُعقَد فيه، لم يكن له من الحُرْمَةِ ما كان لذي الحجَّة شهرِ المناسك»[2]... وهو مذهب غير صحيح!

وكيف لا يكون لذي القَعْدة من الحُرْمَة ما كان لذي الحَجَّة، وهو من الشُهور المحرَّمة، ومن شهور الحجِّ، وإنما سُمِّيَت حربُ قريشٍ وهوازِنَ بعُكاظٍ حربَ الفِجَار، لأنها وقعت في ذي القعدة، فعُدَّ فِعْلُهم فُجوراً؟ وأمَّا أن يُبَاح بعكاظ ما لم يكن يُباح في مجنّة وذي المجاز، فأمرٌ غيرُ دقيق، بل غيرُ صحيحٍ، لأن الأسواق الثلاثة في التجارة واللهوِ والاجتماع سواء، وإنما كانوا يكفُّون عن ذلك في الثامن من ذي الحجة، فكانوا لا يتبايعون في يوم

---

(١) في منزل الوحي: ٣٧٨.

(٢) المرجع نفسه: ٣٦٧.

عَرَفة، ولا أيام مِنًى، حتى أحَلَّ لهم الإسلامُ ذلك[1]. وليس لمواقع الأسواق الثلاثة صلةٌ بما كان يجري فيها من تجارة وغيرها، ثم إن هذه المواقع ليست في حدود الحَرَم، ولا في مواقيت الإحْرام، وإن كانت مجنَّةٌ قريبةً من مكة، وذو المجازِ قريباً من عَرَفَة.

* * *

٣ ـ رأي سعيد الأفغاني:

قال: «عكاظ نَخلٌ في وادٍ، بين مكة والطائف، على مرحلتين من مكة، ومرحلة من الطائف، وموقعُها جنوبُ مكة إلى الشرق. هذا زبدةُ ما يُسْتَخلصُ من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ...»[2].

وقال: «والظاهِرُ أن ما يُطلق عليه عكاظٌ من الأرض، مُتَّسِعٌ فسيحٌ، فيه حِرَارٌ، وفيه أَرضُونَ مَسْقِيَّةٌ ذاتُ نخيل... ولا شك أن أرضاً اتسعت بعضُ أجزائها لمعاركَ عِدَّةٍ، أرضٌ فسيحةٌ واسعةٌ، وبذلك نفهم كيف كانت السوقُ تَتَنقَّلُ في عكاظ، فلا تُلازِمُ بقعةً واحدةً، لا تَحِيدُ عنها يميناً ولا شمالاً، على مدى السنين المتطاولة»[3].

ثم أشار في الحاشية إلى رأي الزِرْكليّ، من غير أن يُعلِّق عليه، وإلى رأي هيكل، فعَزا إليه ترجيحَهُ أن يكون موضعُ عكاظ جنوبَ الطائف، وجنوبَ شرقِ الطائف، وبالسَّيْل الصغير، وأخيراً بالسَّيْل الكبير! ومذهبُ الأفغاني هذا يعني أنه لم يقرأ كتابَ هيكل قراءةَ مُحقِّقٍ، فالرجلُ كما رأينا انتهى إلى ترجيح السيل الكبير فقط.

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٨٨، وانظر في حدود الحرم ومواقيت الإحرام: ٢/ ١٣٠ ـ ١٣١، ٣٠٩ ـ ٣١٠ من المرجع نفسه.

(٢) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٨٦.

(٣) المرجع نفسه: ٢٨٨.

ثم قال: «وفي شهر رمضان (١٣٧٠ هـ = ١٩٥١ م)، أي بعد صدور الطبعة الأولى من أسواق العرب بأربع عشرة سنةً، نُشِر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ص ٢٦/٣٧٧) محاولةٌ للسيد حمد الجاسر في تحديد السوق، فإذا به يجعلُها شرقيَّ الطائف، أي ليس على طريق القاصِدِ من مكة إلى الطائف في نحو ثُلُثَيْ الطريق، على ما في تعاريف القدماء. . . ومع ما بذل الجاسِرُ من جُهد، فإن النفس لا تطمئنُّ إلى مذهبه، مع اعترافه بأن أغلب الأعلام التي كانت حول عكاظ لم تعدْ معروفةً اليوم. . . ومع هذا فقد يُوفَّق باحثٌ في المستقبل إلى الصواب المُقْنِع»[١].

ويضيف الأفغاني بعد ذلك قوله: «ولمّا زرتُ الطائفَ بعد أيام الحج سنة (١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م)، حرصتُ أن أرجع بما يشفي النفسَ، وتَفرَّجْتُ على المسيل[٢]، الذي وصفوه، وسألتُ العارفين، وخرجتُ بصحبة وجيه الطائف السيد محمد صالح نصيف، وعرفتُ منه أن الذي استقرَّ عليه رأيُ الباحث السيد رشدي ملحس، وابنِ بليهد، وسُمّو الأمير فيصل، في عكاظ، أنها مُتَنقِّلةٌ على أرض تمتدُّ من جنوبي العُشَيْرة إلى المسيل الصغير والحاوية[٣]. وأظن جهداً يبذُله الأفاضلُ العارفون من أهل تلك الناحية مُوصلاً إلى الكشف عن موضع عكاظ بما يزيلُ كل رَيْبٍ إن شاء الله»[٤].

من الواضح أن رأي الأفغاني في تحقيق الجاسِر مُرْتَجَلٌ، غيرُ مُسْتَنِدٍ إلى شيءٍ من العلم! فالرجلُ كما رأينا لم يجعل عكاظاً شرقَ الطائف، بل بمَيْلٍ نحو الشمال، وعلى طريق صنعاءَ إلى مكة، كما أكَّد المؤرِّخون. أما

---

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٨٧.
(٢) المسيلُ غَلَطٌ، وصوابُه السَّيْل، ولكننا لا ندري ما أراد، السيل الكبير أم الصغير!
(٣) أراد السَّيْلَ الصغير، والحَوِيَّة.
(٤) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

④ ـ طبيعة المكان:

تبيَّن لنا مما تقدَّم، أن أرضَ عكاظ سهلٌ واسِعٌ مُطْمئنٌّ، يمتدُّ بين وادِيَيْ شَرِبٍ والأُخَيْضِر، ويتصل في الشمال والشرق بسهل رُكْبَة، وفي الجنوب والغرب بسُفُوح الطائف. . . ولا شك في أن موقعاً كهذا، كان يُوفِّر له عواملَ طبيعيَّةً طيِّبةً، كالمياه وَفْرةً وعُذوبةً، والهواءِ لِيناً ورَخَاوةً، فضلاً على ما كان يَعْمُرُه من أشجار النخيل، حتى غلبتْ عند المؤرِّخين تسمِيَته بأنه ماءٌ في صحراء، أو نخلٌ في وادٍ[1]، دليلاً على ما كان به من المياه والنخيل.

ويدلُّ على سعَتِها اسْتيعابُها للألوف من الناس تأتيها بأنعامها، وتجاراتها، وتضربُ فيها خِيَامها، وتبني قُبَابَها[2]. . . وإن أرضاً، استوعبتْ بعضُ أجزائها، مَعارِكَ كبرى، لا بُدَّ أن تكون واسعةً فسيحةً، ولا سيما إذا ذكرنا أن تلك المعارك كانوا يحشدون لها حُشوداً، يُعْشِي الناظرين بريقُ أسلحتها! وهذا ما عبَّرتْ عنه خيرَ تعبيرٍ، عاتكةُ بنتُ عبد المطلب تَذُمُّ حربَ الفِجَار بعُكاظ، فقالت:

سائلْ بنا في قومنا ... ولْيَكْفِ من شرٍّ سَماعُهْ
قَيْساً، وما جمعوا لنا ... في مَجْمَعٍ باقٍ شَنَاعُهْ
بعُكاظَ يُعْشِي الناظريـ ... ـنَ إذا هُمُ لَمَحُوا، شُعاعُهْ[3]

---

(١) تاج العروس: ٥/ ٢٥٤ (طبعة مصر)، ومعجم البلدان: ٤/ ١٤٢، ومعجم ما استعجم: ٦٦٠، والأغاني: ٢٢/ ٦٤.

(٢) القُبابُ: مفردُها القُبَّةُ وهي البناء أو البيت من الأَدَم. (تاج العروس: ٣/ ٥١١ ـ قبب).

(٣) ابن هشام الأنصاري ـ شرح شذور الذهب: ٤٢٤/ الشاهد رقم: ٢٢٧ (وشُعاعُه فاعِلُ يُعْشِي).

ومَجْمَعٌ يُغْشي شُعاعُه الناظرينَ لا شك في أنه كبير، وأن الأرضَ التي اتَّسَعتْ له كبيرةٌ رَحْبَة.

ولئن كانت قبائلُ العرب لا تجتمعُ إلا على مياهٍ، فإن آثار ما كان متوافراً بأرض عكاظ، من مياه الينابيع والوديان، ما تزال ماثلةً حدَّثنا عنها المحقِّقُون[١].

وأمّا مُنَاخُها، ففيه بعضٌ من مناخ الطائف، على بعضٍ من مناخ سهل ركبة. والطائفُ مشهورةٌ بِثِمارها، وبَرْدِ هوائها، وعُذوبةِ مياهها، وقُرْبُها من سهل عكاظٍ، كان يُوفِّر للناس في المواسم، ما تُنْبتُه أرضُها من التّين والزيتون والأعناب والرمَّان والموز والسفرجل وغير ذلك من الفواكه والثمار[٢]. ويُعَدُّ سهلُ عكاظ نَجْداً لِسَرَوَات جبال الطائف. هذا، ويَدُلُّ قولُ أمير المؤمنين عُمر بن الخطاب: «لَبَيْتٌ برُكْبَةَ أَحَبُّ إليَّ من عشرة أبياتٍ بالشام»، على أنها كانت مَوْضِعاً طيِّبَ الهواء، قليلَ الوَباء، جيداً لِطُول البقاء[٣]. ويَدُلُّ أيضاً أن موضعَ رُكْبَة كان من مُتَربَّعاتِ العرب في نجد، قولُ الشاعرِ عنترة:

شَــطَّ المـــزَارُ إذا تَــربَّـــع أَهْلُنــا حَضَناً، وأَهْلُكِ ساكنٌ بالغَيْلَمِ[٤]

وقد مَرَّ بنا أن جبل حَضَنٍ، في سهلُ رُكْبة، إلى الشرق من عكاظ، وهو أَوَّلُ بلاد نجد للقادم من اليمن، وهذا دليلٌ على طبيعة الأرض التي كان

---

(١) موقع عكاظ: ١٩، ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) المفصل: ٤/ ١٤٢، وعبد الوهاب عزّام ـ مهد العرب: ٦٣ ـ ٦٤، وفيليب حتي ورفيقاه ـ تاريخ العرب: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٣) تاج العروس: ٢/ ٥٣١ (ركب).

(٤) ابن الأنباري ـ شرح القصائد السبع الطِوال الجاهليات: ٣٠٢، والغيْلَمُ: مَوْضِعٌ، أعتقد أنه في ديار عَبْس لأن الشاعر عَبْسيٌّ، ومنزله قريبٌ من منزل أهل حبيبته.

المطلب الثالث ـ أصحاب الأرض والسوق:

يُستَخْلص من أقوال القدماء، أن أرضَ عكاظ، وما اتصل بها، أو جاورها من النواحي والأرضين، إنما هي بعضُ البلاد التي كانت تعيش فوقَها قبائلُ قيس بن عَيْلان، ولا سيما منها بطون هوازن[١]، وأرضُ هوازن في نَجْدٍ مما يلي اليمن، وأرضُ غَطَفان في نجدٍ مما يلي الشام[٢]، فكلُّ البلاد من تَبالة إلى نَخْلةٍ هي ديارُ هوازن، فيها من كل بُطونها[٣]، وسوقُ عكاظ تقعُ في وَسَطِها، وأصحابُها بنو بكر بن هوازن، ويبدو أن أرضها كانت لأبناء معاوية بن بكر، وكان لبني ثَقيفِ بن مُنبه بن بكر أموالٌ ونخيلٌ فيها[٤]. وقد آلَتْ أواخِرَ عصرِ الجاهلية، وأولَ الإسلام، إلى بني نَصْر بن معاوية بن بكر، ثم صارت في القرن الهجري الثالث وأول الرابع من منازل بني هلال بن عامر بن صعصعة. والمعروف أن منازل بني نَصْرٍ كانت وقتئذٍ الأَوْدِيةَ المنحدرةَ من جبال الطائف إلى الشرق والشمال من نَجْد، والمواضِعَ القريبةَ منها، وقد تبلغُ حدودَ النخلتين، عند البَوْباةِ المعروفة اليومَ بالبُهَيتة، قريةِ بني سعد بن بكر، وكثيرٌ منها ما يزال معروفاً باسمه القديم، مثل: رُكبة، وبَسْل، ولِيَّة، وجلدان، وبُسّ، وقُرَّان، والعقيق[٥].

والظاهرُ أن بني هلال حَلُّوا فيها أيام قُوَّتهم وانتشارهم، ولمّا هاجروا إلى مصر، ثم إلى المغرب، عاد إليها سكانُها القدماءُ من أبناء عمومتهم، ولا يزالوان بها، ومنهم: الجُشَمَةُ، وهم بنو جُشَم بن معاوية بن بكر، ويُعْرفُون

---

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٨٨، وموقع عكاظ: ٤٦، ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) معجم البلدان: ٣/ ٣٠٢.

(٣) موقع عكاظ: ٢٤ (عن الهمداني في صفة جزيرة العرب).

(٤) أخبار مكة: ١/ ١٩٠، وموقع عكاظ: ٢٥، ٤٨، ٥١ (عن الهمداني والبكري).

(٥) موقع عكاظ: ٥٤ ـ ٥٥.

بالجُثَمَة، وعَدْوانُ القبيلةُ القديمةُ المشهورةُ، وهم بنو عَدْوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، ومنهم حكيمُ العرب وقاضيهم عامِرُ بن الظرب، والشاعرُ ذو الأُصْبع، حُرْثانُ بن الحارث، ومساكنُهم قريةُ العقربِ بوادي الأُخيضر، وقريةُ العُبَيْلاءِ، وقريةُ الخُضَيْراء على وادي شَرِب قربَ مطار الحَوِيَّة. ومنهم أيضاً: ثقيف، وكانت مساكنُهم شمالَ أَوْديةِ لِيَّة والعَرْج وشَرِب، ثم ارتفعوا إلى أعْلى تلك الأَوْدِية بالطائف، ولا يزالون هنالك[1].

* * *

أصحاب سوق عكاظ من بني هوازن(*)

١		قيس بن عيلان		القرن الأول
٢	عمرو	سعد	خصفة	القرن الأول
٣	عدوان، فهم	غطفان، أعصر	عكرمة، محارب	١٠٠ القرن الثاني
٤	دوس، يشكر، زيد(١)	ريث، غني	منصور	القرن الثاني
٥	عياذ	بغيض	هوازن، سليم	القرن الثاني
٦	عمرو	عبس، ذبيان	بكر	٢٠٠ القرن الثالث
٧	الظرب	قطيعة، فزارة، سعد	منبه، سعد(٢)، معاوية	القرن الثالث
٨	عامر (٢٤٢٥ ـ ٢٧٥)، ثمقبة	الحارث، عوف	قسي، صعصعة، جشم، نصر	القرن الثالث
٩	هبيرة	مازن، مرة	جشم، عوف، عامر	٣٠٠ القرن الرابع
١٠	ربيعة	ربيعة، غيظ	ربيعة، هلال	القرن الرابع
١١	سيار	رواحة، يربوع	كلاب	القرن الرابع
١٢	ثعلبة	جذيمة، جابر، جذيمة	جعفر، عمرو	٤٠٠ القرن الخامس
١٣	محرث	زنباع، زهير(٣) (٢٥٠٠ ـ ٤٧٥)، ضباب، ظالم	عتبة، مالك، خالد، نفيل	القرن الخامس
١٤	الحارث، مروان	معاوية، الحارث	عروة، الطفيل، عامر، خويلد	القرن الخامس
١٥	حرثان (ذو الأصبع)	زياد (النابغة) (٢٦٠٤ ـ ٥٢٥)	عامر(٤) (٢٦٣٩ ـ ٥٥٢)، عمرو	٥٠٠ القرن السادس
١٦			زرعة	القرن السادس

---

(١) موقع عكاظ: ٦٧ ـ ٦٨.

تموز، وكانت العربُ تقول وقتئذٍ: إذا طَلعتِ الثَّرةُ قَنَأتِ البُسْرَةُ، أي داخَلَ حُمْرتَها سَوادٌ[١]، دليلاً على ابتداءِ نُضْجِها، فالبُسْرُ هو التمرُ إذا لَوَّنَ ولم ينضج، وبرهاناً على أن الزمنَ زمنُ خُروجٍ إلى البوادي والأَرْيافِ والأسواق.

* * *

المطلب الخامس ـ نُزَلاءُ عكاظ ومَنازِلُهم فيه:

يُؤخَذُ من الأخبار الكثيرةِ، المأثُورةِ عن وقائع سوق عكاظ، أنها كانت سوقاً قوميّةً للعرب جميعاً، يَنزلُها معظمُ قبائلهم، متى كان لهم فيها مَآرِبُ تجارِيّةٌ، أو اجتماعيَّةٌ، أو أدبيَّة. فكان موسمُها خيرَ فُرصةٍ لاجتماعهم، ومُتاجرتهم، وقضاءِ حاجاتهم المختلفة، استعداداً لقيامهم بشَعَائر الحجِّ، التي كان موسمُها يَلي مواسمَ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، بل ويختلطُ أمرُهُ بأمرها.

على أننا يجب أن نتوقَّف قليلاً عند قول الأزرقي: «... وإنما كان يحضرُ هذه المواسمَ، بعكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجاز، التجارُ، مَن كان يريدُ التجارةَ. ومَن لم يكن له تجارةٌ ولا بيعٌ، فإنه يخرج من أهله متى أراد. ومَن كان من أهل مكةَ، ممن لا يريد التجارة، خرج من مكة يومَ التَّرْوِيَة»[٢]... وهذا لا يعني أن تلك المواسمَ كانت حِكْراً على التجارة والتجّارِ، ممنوعةً ممَّن أراد فيها شيئاً آخَرَ، غيرَ البيع والشراء، إنما يعني أن مَن كان تاجراً، وأراد التجارة، فعليه الذهابُ أولاً إلى أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، التي تسبق مواسمُها موسمَ الحج إلى الكعبة، لأن الجمع بين التجارة والحج

---

(١) لسان العرب: ٥/١٩٢ (نثر).

(٢) أخبار مكة: ١/١٨٨.

كانت تَزْدحمُ بالناس، وتَضيقُ، على سَعَتِها ورَحْبِها، بمن كان ينزلُها من قوافل التجار، ووُفودِ القبائلِ والمُلوك والأُمَمِ المجاورة، فكان التجارُ في موسمٍ كهذا يُحقِّقُون أرباحاً كثيرةً، لا يَتَأَتَّىٰ لهم مِثلُها إلا في القليل النادر من المناسبات والبلاد. ولمَّا «دخلتْ سنةُ خمسٍ وثلاثين من عام الفيل[١]، وذلك قبل المَبْعَثِ بخمسِ سنين، حضر السوق من قبائل نزار[٢] واليمن ما لم يَرَوْا أنه حضر مثلُه في سائر السنين، فباع الناسُ ما كان معهم من إبلٍ وبَقَرٍ ونَقَدٍ[٣]، وابتاعُوا أمتعةَ مصر والشام والعراق...»[٤]. ويبدو أنه لم يكن في الجاهلية مَجمَعٌ للعربِ أحْفَلُ من عكاظ، فكانوا يضربون بكثرة أهْلِها وزُوّارِها المثَلَ، ومن ذلكم قولُهم: «... ضربتُه ضَرْبةً لو كانت بأهلِ عكاظٍ قَتَلَتْهم»[٥].

ويُفهم من بعض موارد الأخبار أنه كان ينزلُ سوق عكاظ في مواسِمِهِ من قبائل العرب: قريشٌ، وهوازِنُ، وغَطَفانُ، وخُزَاعةُ، وأسْلمُ بنُ أَفْصَى، والأحابيشُ وهم أحياءٌ من كنانة وخُزَيمة وخُزاعة، وطوائفُ من أفناء العرب[٦]، إلى جماعاتٍ من سائر العرب، تَقصدُها من اليمن وعُمَان وحضرموت والشِحْر والبحرين وبادية الشام والعراق، عرفنا منها: غسَّان، وكندة، وكلب بن وبرة، والحارث بن كعب، والحَضَارِمة، وعُذْرة... فضلاً عن: بني عامر بن صعصعة، ومُحارب بن خَصَفَة، وفزارة، ومُرَّة، وحنيفة،

---

(١) نحو سنة (٦٠٥ م).

(٢) نزار بن مَعَدّ: جدُّ قبائل عرب الشمال من مُضَر وربيعة وإياد.

(٣) النَقَدُ: الغَنَمُ.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨.

(٥) أبو علي القالي ـ الأمالي: ٢/٢٥٦.

(٦) المحبَّر: ٢٦٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٥.

شِراءً، دَخَل بعضُهم في بعضٍ، وإذا أرادوا الاجتماع في الأَنْدِية هَبَطوا بطنَ السوق، فالْتَقَى القاصي بالداني، واختلط القريبُ بالغريب، وجرى التمازُجُ بين القبائل في أَبْهى صُوَرِهِ. . . وهذا ما سجَّلهُ الأزرقيُّ بقوله: فإذا كان الحجُّ، خرج الناسُ إلى مواسمهم، فيُصْبِحون بعكاظ يوم هلالِ ذي القعدة، فيُقيمون به عشرين ليلةً، تقومُ فيها أسواقُهم، «والناسُ على مَدَاعِيهم وراياتِهم، مُنْحازين في المنازل، تَضْبِطُ كلَّ قبيلةٍ أشرافُها وقادَتُها، ويَدخلُ بعضُهم في بعضٍ للبيع والشراء، ويجتمعون في بطن السوق. . .»[١]، ويُفهم من هذا النصِّ أيضاً أن ضَبْطَ شؤون القبيلة إنما كان بأيدي أشرافها ورؤسائها. . . وقد لخَّص الأمرَكلَّه قولُ أبي ذُؤَيْب الهُذَليّ[٢]:

إذا بُنِـــي القِبَـــابُ علـــى عكـــاظٍ   وقـام البيـعُ، واجتمـع الأُلـوفُ[٣]

أي إذا بُنِيَتِ البيوتُ بعكاظ، ورُفعتْ قِبَابُها، وابتدأ البيعُ والشراء، وجَعَلتِ الأُلُوفُ من الناس تجتمعُ في بطن السوق. . . والقِبَابُ بُيوتٌ خاصَّةٌ من الأَدَمِ النفيس، المصبوغ باللون الأحمر، لها سُقُوفٌ مُسْتديرةٌ مُقَعَّرة. ولم تكن تُبنَى إلا للسَّادَةِ، والأشرافِ، والقُضَاةِ، والأَثْرياءِ. وكانت ممّا يَفخرُ به هؤلاء على الناس جميعاً. وإذا كانت القُبَّةُ لقَاضٍ بعكاظ، رُفعت عليها رايَةٌ خاصَّةٌ به. . . وكانت تُضْربُ للملوك، الذين يحضرون الموسمَ بعُكاظ، مَضَارِبُ فَخْمَةٌ، تليقُ بمنزلتهم، وتُرفعُ عليها راياتُهم، ويُفْرَدُ فيها فِسْطاطٌ

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) أبو ذُؤَيْب الهُذَليُّ: خُوَيْلدُ بنُ خالد بن مُحرِّث، من بني هذيل بن مدركة، شاعر فحل مُخَضْرَم، أدرك الجاهلية والإسلام، واشترك في الغزو والفتوح، ويُعَدُّ أشعرَ شعراء هُذَيل. أشهَرُ قصائده عَيْنِيَّتُه التي رثى بها أبناءَه الخمسة.

(٣) لسان العرب: ٧/ ٤٤٨ (عكظ).

كبيرٌ للضيوف، يجلسون فيه، ويأكلون، ويَسْمُرون[١]. وكان كلُّ رئيسِ قبيلةٍ عند العرب ملكاً، أي كالملك في قومه. وكانت قُبَّةُ سيِّدِ القبيلةِ، عادةً، كبيرةً، لأنها تكون مُنْتدىً لِشُيوخ القبيلة وأبنائها، يجتمعون فيها للتَّشَاوُرِ والسَّمَر، ويأوي إليها ضُيوفُهم، وجيرانُهم، وذوو الحاجاتِ منهم، أو من غيرهم. وفيها قسمٌ خاصٌّ بالنساء، وآخَرُ خاصٌّ بالخَدَم... وأما سائرُ الناس، فكانت تُقامُ لهم الأَخْبِيَةُ، والخِبَاءُ بيتٌ صغير، أو خَيْمةٌ قد تكون من صوفٍ أو شَعَرٍ أو وَبَرٍ[٢]، وكانت تُقْطَع بحاجزٍ إلى قِسمين، أحدهما للرجال والضيوف، والآخَرُ للنساء والسَّكَنِ، ولا يدخُله الغرباء[٣].

* * *

المطلب السادس ـ أَئمَّةُ عكاظ وقُضَاتُه:

إن المحقِّق في خصائص الأسواق الموسميَّة، يجدُ أنه كان بها قُضَاةٌ، أو مُحكَّمُون، يَقْضُون بين الناس، ويَفُضُّون خُصوماتهم. فكانوا، كلما طُلب إليهم، يجلسون للنظر في المظالم، وفيما قد يَشْجُرُ من المنازعات، في أمور البيع والشراء، والتفاخُر بالأحْسَابِ، وعِزَّةِ النَّفَر... وربما قضى بين الناس الملوكُ، أو الرؤساءُ الذين تقعُ الأسواقُ في بلادهم.

كما يجدُ أيضاً أن نظامَ المتاجرة، في الأسواق الموسمية، كان يقتضي وجودَ إمام للسوق، إن لم تكن في أرضِ مملكة، كي يَفتتِحَ السوقَ عند

---

(١) المفصَّل: ٥/ ٦، ولسان العرب: ١/ ٥٥١ (ضرب) **والمِضْرَبُ**: فِسْطاطُ الملك، و ١/ ٦٥٩ (قبب)، و ٧/ ٣٧٢ (فسط).

(٢) لسان العرب: ٢/ ١٤ (بيت)، و ١٣/ ٢٠ (أقن)، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٢٦، وأبو العباس أحمد بن يحيى ـ مجالس ثعلب: ٧٩، ١١٢.

(٣) المفصَّل: ٥/ ٧.

حُلول مَوسمها، ويَأذنَ بابتداءِ المتاجرة بين الناس، وحينئذٍ تقومُ السوقُ، وتصِحُّ المبايعات. . .

* * *

①- أئمَّةُ العرب وقضاتهم بعكاظ:

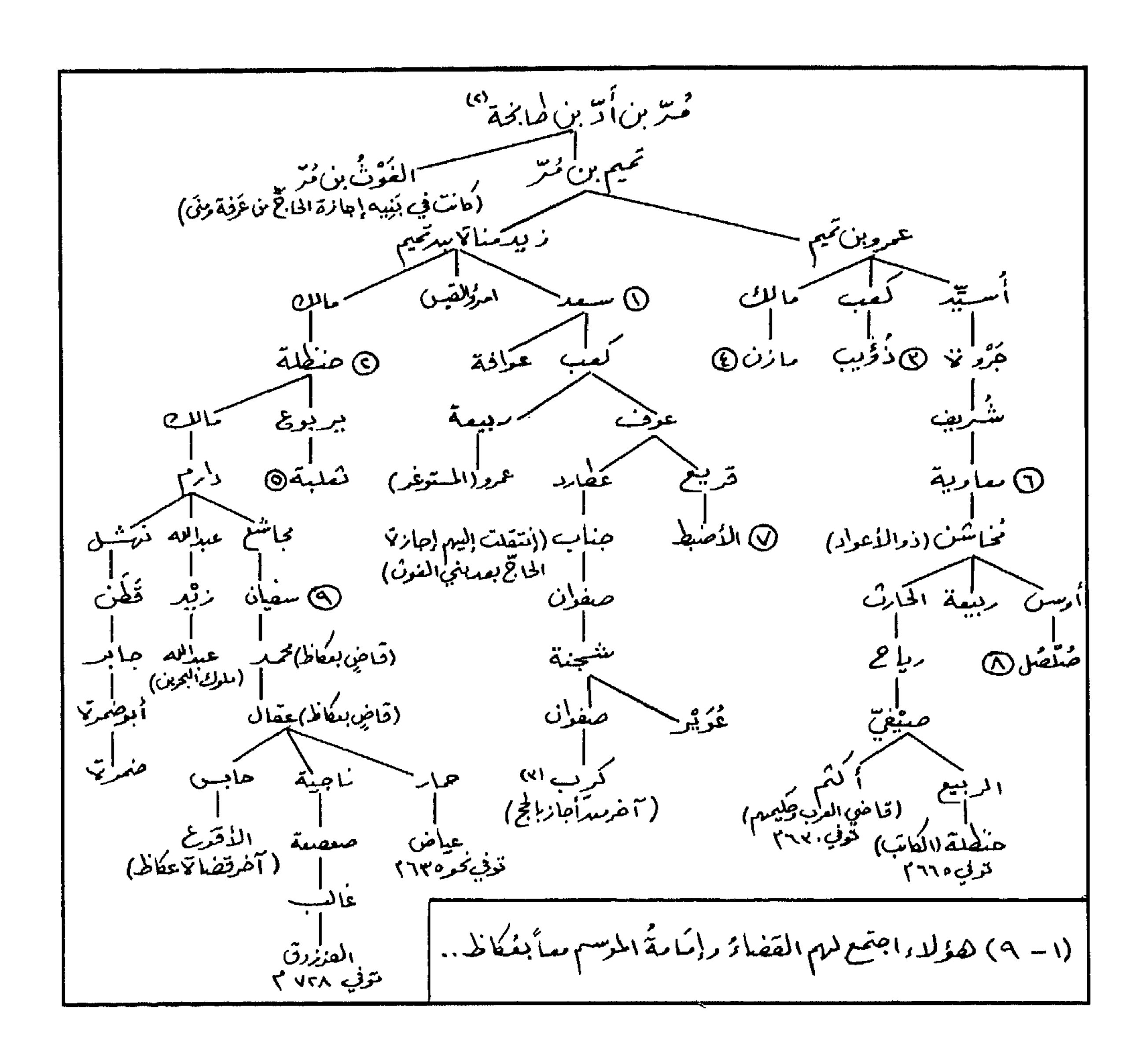
أَئمَّةُ العرب وقُضَاتُهم في مَواسِمهم بعُكاظ، كانوا من بني تميم، وكان ذلك يكون في أفْخَاذِهم كلها، أي في أَحْيَائهم أو فُروعِ قبيلتهم، فيتولّى رجُلانِ منهم هذين الأمْرَين: قضاءَ عكاظ على حِدَة، والموسمَ على حِدَة[1]. وكان مَن اجتمع له منهم قضاءُ عكاظ وإمامةُ الموسم معاً: سعدُ بنُ زيد مناة بن تميم، ثم حَنْظلةُ بن مالك بن زيد مناة، ثم ذُؤَيْبُ بن كعب، ثم مَازِنُ بن مالك، ثم ثعلبةُ بنُ يربوع، ثم معاويةُ بن شُرَيْف، ثم الأضْبَطُ بنُ قُرَيْع، ثم صُلْصُلُ بن أَوْس، ثم سفيانُ بن مجاشع، وكان آخِرَ تميميٍّ اجتمع له القضاءُ وإمامةُ الموسم بعكاظ معاً، فلما مات سفيانُ افترق الأَمْرانِ، ولم يجتمع الموسمُ والقضاءُ لأحَدٍ منهم بعد ذلك. فكان محمدُ بنُ سُفيانَ بنِ مُجاشِع يقضي بعكاظ، ولمَّا مات صار ذلك إرثاً لهم. وكان يُجِيزُ بالموسم العلاقُ بنُ شِهابِ بنِ لأْيٍ، من بني عوافة بن سعد بن زيد مناة. وكان آخِرَ من قَضَى منهم بعكاظ، ووصل إلى الإسلام، الأَقْرعُ بنُ حابِس[2].

---

(١) أُنظر في جدول الأنساب التالي.

(٢) المحبَّر: ١٨١ - ١٨٣، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧ - ١٦٨، وابن حزم - جمهرة أنساب العرب: ٢٢٢. وقد غلط أحمد أمين إذ حسب أن محمد بن سفيان كان قاضياً بعكاظ في الإسلام، وإنما هو في الجاهلية، والأقرعُ بن حابس الذي وصل إلى الإسلام كان ابنَ حفيده! (الرسالة: ١٣/ ٢٥ لسنة ١٩٣٣).

أئمةُ العرب وقُضاتُهم في مواسمهم بسوق عكاظ[1]



---

(١) المراجع - جمهرة أنساب العرب: ٢٠٧ - ٢٣٢، المعارف: ٧٨ - ٨٠. السيرة لابن هشام: ١/ ١٢٠ - ١٢١، الأغاني: ١١/ ١٣٢، المحبَّر: ١٨٢ - ١٨٣، مختلف القبائل: ٤٢، ٥٩، تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٨.

(٢) **مرٌّ بن أدّ**: هو مُرُّ بن أَدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر بن نزار، ونقدِّرُ أن مُرَّ بنَ أدّ، **وتميمَ بنَ مُرٍّ، وزيدَ مناة بن تميم،** ثلاثةُ أجيال كانت في القرن الثاني للميلاد، والأدلَّةُ على ذلك كثيرة، منها: **أكثمُ بنُ صَيْفيّ**، فقد قُدِّرتْ وفاتُه سنة (٦٣٠ م) عن عمر طويل، (الأعلام: ٢/ ٦). وقدَّر الزركليُّ مقتلَ الشاعرِ عبدِ يَغُوث الحارثي في وقعةِ يوم الكُلاب الثاني نحو سنة (٥٨٤ م) بعدما أُسِرَ فيها (الأعلام: ٤/ ١٨٧)، وفي تلك الوقعة خاطب أكثمُ قومَه بقوله: إني قد نيَّفْتُ على التسعين، (العقد الفريد: ٥/ ٢٢٤)، فيكون مولدُه بذلك نحو (٤٩٠ م)، ويكون تميمُ بن مُرّ، الجَدُّ العاشِرُ لأكثم، موجوداً نحو منتصف القرن الثاني. ومن الأدِلَّة أيضاً: **حنظلةُ الكاتبُ بنُ الربيع**، المتوفَىٰ سنة (٦٦٥ م)، **وعِيَاضُ بن حمار المجاشعيّ**، المتوفَى نحو (٦٣٥ م)... ومن الأَدِلَّة على صواب تقديرنا كذلك: حكايةُ غارةِ **الملكِ عمرو بن هندٍ** على بني نَهْشَل بن دارم، وفيها أنه قَتَلَ بقتلهم أَخَاهُ عدداً منهم، حتى مرَّت به امرأةٌ من بني نهشل، فسألها من أنتِ؟ فقالت: أنا الحمراءُ بنتُ ضَمْرة بنِ جابر... والمعروفُ أن مُلْكَ عمرو بن هند كان بين (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م)، والمرأةُ كانت يومئذٍ عجوزاً، فيكون تقديرُنا لعصر أخيها ضمرة بن ضمرة نحو (٥٠٠ م) صحيحاً، فإن كانت وُلدت نحو سنة (٤٧٠ م)، فهي عجوزٌ أيامَ مُلْكِ عمرو... (أيام العرب: ١٠٥).

(٣) في سلسلة نسبِ **كَرِبِ بن صَفْوانَ**، اضطرابٌ شديدٌ وقع في كلِّ المراجع التي رجعنا إليها، ذلك أن بني الغَوْث بن مُرّ، أصحابَ الإجازة بالحاجِّ من عرفة ومن منًى، مجهولون، ومجهولٌ الزمنُ الذي انتقلت فيه الإجازةُ منهم إلى بني صفوانَ بنِ جَنَاب. وقد اشتُهِر من هؤلاء كرِبُ بنُ صفوانَ بنِ شِجْنَة الذي كان يُجيز بأهل الموسم في الجاهلية، وعَمُّهُ عُوَيْرُ بنُ شِجْنَة، الذي أجار أهلَ امرىء القيس الشاعر، فقال فيه:

عُوَيْرٌ ومَن مثلُ العُوَيْرِ ورَهْطِهِ ... أَبَرَّ بأيمانٍ وأوْفَىٰ بجيرانِ

(جمهرة أنساب العرب: ٢١٩)، ولا شك في أن عُوَيْراً كان معاصراً امرأَ القيس الذي عاش بين (٤٩٧ ـ ٥٦٠ م)، وأن كَرِبَ بن صفوان كان قريبَ العهد من ظهور الإسلام...

وهكذا عرفنا أسماء تسعةِ رجال من بني تميم، اجتمعت لهم إمامةُ الموسم مع القضاء بعكاظ، ومن شأن هذا أن يعودَ بوجود عكاظ، إلى ما قبل سعد بن زيد مناة، أي إلى أواسط القرن الثاني الميلادي. وعرفنا أيضاً أسماءَ ثلاثةٍ آخَرين جاؤوا بعدهم، أَحَدُهم: العلاقُ بنُ شهاب من بني عوافة بن سعد، وقد خَلَفَ سفيانَ بنَ مجاشع على إمامة الموسم، والآخَرُ: محمدُ بنُ سفيان خَلَفَ أباه على القضاء، ثم أَوْرَثَهُ بَنِيهِ[1]، من بعده، فخَلَفَهُ عِقالُ بنُ محمد، ثم حابِسُ بنُ عقال، ثم الأقرعُ بنُ حابس وكان آخِرَ من تولَّى القضاءَ بعكاظ، وقيل إنه كان مجوسيّاً[2]، أَسْلَمَ وشَهِدَ الفُتوح[3]. وقد عرفنا بالتحقيق أيضاً أن ضَمْرَة بن ضَمْرة من بني نَهْشَل بن دارم، كان أَحَدَ قُضَاةِ بني تميم اللامعين، وُصِفَ بغزارة العلم، وذكاء العقل، وكرم السجِيَّة، وسَعَةِ الخبرة بأحوال العرب، وأنسابهم، وعاداتهم. وكان فارساً، شاعراً، شريفاً[4]... وأن ربيعةَ بنَ مُخاشِن، من بني أُسيِّد بن عمرو، كان كذلك من قُضاة تميم، وإليه كان مَرْجِعُهم في أيامه، وكان عالم قومه، واقفاً على أنساب العرب، وأحسابهم، وكان من أَفْصَح الخطباء، كريماً، شجاعاً. وكان يجلسُ في المواسم على سريرٍ من خَشَبٍ، في قُبّةٍ، فسُمِّي ذا الأعواد[5]، خَلَفَ في ذلك أباه مُخاشِنَ بنَ معاوية، وكان قاضياً أيضاً بعكاظ، ورثَ القضاءَ عن أبيه معاوية بن شُرَيف[6]، وهو ممَّن اجتمع لهم

(١) الأعلام: ٦/ ١٤٦.
(٢) ابن قُتيبة ـ المعارف: ٦٢١.
(٣) الأعلام: ٢/ ٥.
(٤) المفضَّل: ٥/ ٦٤٢.
(٥) المحبَّر: ١٣٤، والمفصَّل: ٥/ ٦٤٢، والأغاني: ٣/ ٨٦.
(٦) الأعلام: ٧/ ١٩١، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٨.

يَقْدَمُون سوقَ عكاظٍ في مواسمها، ليَعْرِضُوا جديدَهم من الشِّعْر، على قاضي الشعراء، ويتنافَسُون في القول بين يَدَيْه، ليَحكُمَ بينهم، أَيُّهم أحْسَنُ قِيلاً، وأرَقُّ عبارةً، وأبْيَنُ وَصْفاً، وأكثرُ بلاغةً. وما استطعنا معرفتَهُ، من الموارد التاريخيَّة والأدبيَّة، أن الحكومة في الشعر كانت لقاضي الشعراء: النابِغَةِ الذُّبْيَانيّ، في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي. وكان أحْسَنَ العرب ديباجَةً، لا يتكلَّفُ الكلامَ، ولا يحشُو شعرَهُ بما لا يلزم، ولعلَّهم اسْتَقضُوه لهذه الخِصَال.

وهكذا كان في سوق عكاظ قضاةٌ مُخْتصُّون، بعضُهم بشؤون السوق، وما عساهُ أن ينشأ فيها من المنازعات التجارية، وربما الجنائية. وبعضُهم بشؤون الشعر، والحُكم بين الشعراء.

* * *

(٢) ـ كيف صارت رئاسةُ عكاظ والقضاءُ فيه إلى بني تميم:

وفي بحثه القضاءَ بعكاظ، تساءَل جوادُ عليّ عن العِلَّة، التي جعلتِ القضاءَ والموسمَ بعكاظ حقّاً من حقوق بني تميم، ثم ردَّ ذلك إلى ما كان لتميم من نفوذٍ بمكةَ، وعند قُريشٍ، ومَن كانوا بجوارها... إذ لا يُعقَلُ التسليمُ بهذه الرئاسة الكبرى إلى تميم، وهي رتبةٌ لها شأنٌ خطيرٌ عند قريشٍ خاصَّةً، وعند جيرانها مثلِ ثَقيفٍ وهَوازِنَ، فلا بُدَّ أن تكون وراء ذلك مصاهرةٌ بين تميم وقريش، أو لعلّ تميماً كانت تنزلُ بمكةَ قبل ارتحالِها إلى مواضعَ أخرى، أو كانت تشدُّها إلى قُريش علائقُ وثيقةٌ[1]... تساءَل عن ذلك، وكأن الأمرَ فيه أمْرُ قريشٍ، أو كأنَّ لها سلطاناً عليه! مع أن السوق،

---

(١) المفصَّل: ٥/٦٥٢ ـ ٦٥٤.

كما رأينا تقومُ، في أرض هَوازِنَ بعَالِيَةِ نَجْدٍ، ويوم انْسَحَبتْ قريشٌ وكنانةُ من عكاظ، عشيَّةَ حربِ الفِجَار، ثم علم بذلك عامرُ بنُ مالك، من بني جعفر بن كلاب، رئيسُ هَوازِنَ، قال: «غَدَرَتْ قريشٌ، وخَدَعني حربُ بن أُمية، واللَّهِ لا تنزِلُ كنانةُ عُكاظَ أبداً. . . ». ثم ركبوا في طلبهم، حتى أدركوهم بنخلة[1] . . .

ومعنى القول أن سيِّدَ هوازن كان يملكُ حقَّ حِرمَانِ قريشٍ وسائرِ كنانة من شُهودِ المواسم بعكاظ متى شاء، وهذا دليلٌ واضحٌ، على أن بني كنانة، وفيهم قريشٌ، ما كانوا يملكون من أمر سوق عكاظٍ شيئاً، لا في إمامة الموسم، ولا في القضاء بين نُزَلائه، ولا حتى في أرضه! وإنما كانت لهم فيه مصالحُ تجاريَّةٌ كبرى، لا يَسَعُهم الاسْتِغناءُ عنها. حتى موسمُ الإفاضة بالحاجِّ، غَداةَ يوم النحْر، من المزدلفة إلى مِنىً، كانت إمامتُهُ في بني زيد بن عَدْوان، من قيس بن عيلان، وليس في قريشٍ، مع أنه في أرض مكة، لا في نَجْد! وكذلك إجازةُ الحاجِّ من عَرَفة إلى المُزْدلفة، ثم من مِنىً يومَ النَّفْر إلى مكة، بعد رَمْي الجِمَار، كانت في بني الغَوْثِ بن مُرٍّ[2]، أخي تميم بن مُرٍّ، ولمّا انقرضوا، انتقلت إلى بني تميم، وكانت منهم في آل صفوانَ، من بني سعد بن زيْد مناة، وكان أَحَقَّ أن تنتقل إلى قريشٍ، إذ هي في أرضهم، لو أن لقُريشٍ في هذا الأمر شيئاً!

والحقيقةُ أن هذه الوظائفَ كانت قِسْمةً، قَسَمها، سيِّدُ بني خُزاعة، في قبائل مُضَر، بعد أن غَلَب جُرْهُماً على ولايةِ مكة، وحجابةِ الكعبة، أو أقَرَّهم عليها وكانت إليهم قبله. وكان نفوذُه وقتئذٍ يشمل تهامةَ والحجازَ ونَجْداً، وهو ما أشار إليه حسانُ بنُ ثابت بقوله في خزاعة:

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ٥٩٢، وأيام العرب في الجاهلية: ٣٣٠.

(٢) جرجي زيدان ـ العرب قبل الإسلام: ٣٢٩.

فكـان لهـا المِـرْبـاعُ فـي كـلِّ غـارةٍ تُشَـنُّ بنَجْـدٍ، والفِجَـاجِ العَـوابِـرِ[١]

أي كان يُجْبَى إلى زعيمها رُبْعُ الغنيمة، في كل غارةٍ تُشَنُّ، أكانت بنَجْدٍ أم في طُرُق الجبال. وهذا ما يؤكّدُهُ قولُ الأزرقيّ عن عمرو بن لُحَيّ: «وكان أمرُهُ بمكَّةَ، مُطاعاً في العرب لا يُعْصَى»[٢]. . . ولذلك فإن قصيَّ بنَ كلاب، لمّا غَلبَ خُزاعة على ولايةِ مكة، وحِجَابةِ الكعبة، أَقَرَّ لقبائل مُضَر ما كانت عليه في عهد خُزاعة، إذ كان يَعُدُّهُ دِيناً في نفسه، لا ينبغي له تَغْييرُهُ[٣]. . . ولا شيءَ يمنع أن يكون قد جرى على إمامة الموسم، والقضاءِ بعكاظ، مثلُ ما جرى على غيرها من تلك الوظائف، فظلَّت في بني تميم، وهم إذ ذاك قاعدةٌ من أكبر قواعد العرب، تمتدُّ منازلُهم من تهامة إلى ظواهر نَجْد والحجاز، إلى خليج العرب، من أعْلاهُ إلى أصقاع الأحساء (البحرين) وما وراءَها[٤]. وكانت فيهم المَنَعَةُ، والعَدَدُ، والفَصاحَةُ، والشِعْر، والبأسُ[٥]. وكان لهم مُلْكُ البحرين، ورِدَافةُ ملوكِ الحِيرَة[٦]. . . وكانوا: أخْوالَ بني عَدوان، فأمُّ عَدْوانَ بنِ عمرو، جَدِيلةُ بنتُ مُرٍّ، أختُ تميم[٧]، وأخْوالَ بني غَطَفانَ، فأمُّ غطفانَ بنِ سعد، تُكْمَةُ بنتُ مُرٍّ[٨]، وأخْوالَ قُرَيشٍ، فأمُّ قريش بن كنانة، بَرَّةُ بنتُ مُرٍّ[٩]. . . وغَطَفانُ وعَدْوانُ وكنانةُ كانت من

---

(١) أخبار مكة: ١/ ٩٥.

(٢) المرجع نفسه: ١/ ١٠٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٩، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٤) الأعلام: ٢/ ٨٨، و ٣/ ٨٥، وعمر رضا كحالة ـ معجم قبائل العرب: ١٢٦.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٩.

(٦) المعارف: ٦٥١، والمحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.

(٧) جمهرة أنساب العرب: ٢٤٣.

(٨) المرجع نفسه: ٢٠٦.

(٩) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١١٩.

كُبْريَات قبائل مُضَرِ بن نزار. ولكنّ هذا كلّه لا يمنعُ من التأكيد على أن اختصاصَ بني تميم بإمَامةِ الموسم والقضاءِ بعُكاظ، إنما كان، كما ذكرتُ آنفاً، قسمةً مقسومةً لهم، منذ شَرَعَ عمرو بنُ لُحيّ، في عهد خزاعة، بتنظيم مكةَ، وشؤونِ العرب في الحجاز ونَجْد، وتوزيعِ الأعمال على قبائل مُضَر...

* * *

③ ـ الخلطُ بين مواسم الحجّ ووُلاتِها وموسمِ عكاظ:

وما دمنا نُحقّق في شأن إمامةِ الموسم، والقضاءِ بعكاظ، فهنالك أمرْانِ، لم يكن بُدٌّ من عَرْضهما للبحث والتحقيق، لإزَالَة اللَّبْس عنهما.

الأول: إشارةٌ يجبُ التوقُّف عندها، ذهبتْ إلى أن أَئمَّةَ العرب، وقُضاتَهم في مَواسِمهم بسوق عكاظ، بعد عامِرِ بنِ الظَرِبِ العَدْوانيّ، بنو تميم[1]... وهو غَلَطٌ يقتضي التصويبَ، لأنه يجعلُ من إمامةِ الموسم والقضاءِ بعكاظِ، أصْلاً، في بني عَدْوان، انتقلت منهم إلى بني تميم، بعد وفاة عامر بن الظرب، والمشهورُ أن الرجلَ كان من المعمَّرين[2]، ولو أخذنا بأدنى العَمَرِ، وهو مئةٌ وعشرون سنة، وقدَّرْنا وجودَهُ أواخِرَ القرن الثالث للميلاد[3] إذ هو التاسعُ على عمود النسب من عَيلان بن مُضَر، لكان معنى ذلك أنه تُوفي نحو سنة (٤٠٠ م)، وأن سعدَ بنَ زيد مناة أَتَىٰ بعد ذلك بجِيلٍ على الأقل، بينما سعدٌ في الحقيقة السادسُ على عمود النسب من إلياس بن

---

(١) المحبَّر: ١٨١، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧، والعقد الفريد: ٣/ ٣٥١.

(٢) الأعلام: ٣/ ٢٥٢.

(٣) قدَّر ابنُ بليهد وجوده قبل مبعث النبي عليه السلام بنحو ثلاث مئة سنة. «موقع عكاظ: ٣٦»، أي نحو سنة (٣١٠ م)، وهو قريب من تقديرنا.

مُضَر، وسابقٌ على عامر بن الظرب بثلاثة أجيال على الأكثر[1]. . . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإطْبَاقُ المؤرِّخين على أن سعد بن زيد مناة أَوَّلُ من اجتمع له الأَمْرانِ من بني تميم، يعني أن هنالك مَن كان قبله يتولّىٰ ذلك، رجلٌ لإمامة الموسم، وآخرُ للقضاء، أي زيدُ مناة بنُ تميم وأخوه عمروُ بن تميم، لأن ورَاثةَ الأَمْرَيْن كانت في ذُرِّيتهما، كما يعني أن هذا الشأنَ من عكاظ كان في بني تميم منذ أواسط القرن الثاني للميلاد، وأن أَوَّليَّةَ عامر بن الظرب فيه غيرُ صحيحة! بل وغيرُ صحيح أيضاً القولُ بأنه تولّى شأنَ القضاءِ وإمامةِ الموسم بعكاظ اختصاصاً، فهذا وَهْمٌ، مَنْشَؤه شِعرٌ لذي الأصبع العَدْوانيّ[2]، قال فيه يفخر ببني عَدْوان:

ومنهم من يُجيزُ الناسَ ... بالسُّنَّةِ والفَرْضِ
ومنهم حَكَمٌ يَقْضي ... فلا يُنْقَضُ ما يَقْضي[3]

فقولُه: ومنهم مَن يُجيزُ الناسَ، إشارةٌ إلى الإفاضَةِ بالحاجِّ من المُزْدَلفة إلى مِنىً، وكانت في بني زَيْد بن عَدْوان، وآخِرُهم أبو سيَّارة، عُمَيْلةُ بنُ الأعْزل، الذي قام عليه الإسلام[4]. وأما قولُه: ومنهم حَكَمٌ يقضي، فإنه يعني عامِرَ بنَ الظَرِبِ، وكان حَكَماً للعرب، لا تَعْدِلُ بفَهْمِهِ فَهْماً، ولا بحُكْمه حُكماً[5]. . . لكنّ هذا لا يعني أنه كان قاضياً مُتَخصِّصاً بعُكاظ، كبني

---

(١) انظر جدول قيس بن عيلان (ص ٥٥)، وجدول أنساب بني تميم بن مر (ص ٦٧).

(٢) ذو الأصبع العَدْوانيُّ: حُرْثان بن الحارث، شاعر جاهليٌّ، حكيم، شجاع، وفارسٌ من قدماء الفرسان الشعراء، عاش طويلاً حتى عُدَّ في المعمَّرين. له أخبار وحروب ووقائع.

(٣) الأغاني: ٣/ ٨٦.

(٤) السيرة لابن هشام: ١/ ١٢٢.

(٥) مجمع الأمثال: ١/ ٥٣، وابن قتيبة ـ عيون الأخبار: ١/ ٧٣.

تميم، أو أن أمرَ القضاءِ في عكاظ كان من حقِّ بني عَدْوان، وإنما شأنُه في القضاء شأنُ سائرِ حُكَّام العرب، كانوا يحكمون بين الناس، أيْنما حَلُّوا، وأنَّى سِئُلوا الحُكْمَ بين المتنازِعين، وحكومتُهم رُتْبَةُ شَرفٍ، بَلغُوها بفضل ما لَهم من العلْمِ والخبرةِ والسُّؤْدد والكرم، وليس من اللازم أن يَرِثَها عنهم أولادُهم، إن لم يكونوا مُسْتعِدِّين لها. أما حكومةُ عكاظ فهي رتبةُ شَرَفٍ، كُلِّفَ بها بنو تميم، يَتَوارثونها في أعقابهم، ويختارون لها منهم ذوي الكفايةِ والعقلِ والعلمِ والحزمِ والخِبْرةِ. . . فالأُولى تَطَوُّعٌ، والأُخْرى تكليفٌ. وهذا يُوجِبُ التفريقَ بين القضاءِ، أو الحكومةِ في عكاظ، وقضاءِ عكاظ، فالأوَّلُ يستطيعُه كلُّ قاضٍ أو مُحَكَّمٍ من قُضاةِ العرب ومُحكَّميهم، والثاني يتناولُ شؤونَ السوق «الإداريَّةَ والفنيَّةَ»، ومشاكلَ النزاعِ في التجارة والمبايعات، وقواعدَ الأمن، وما إلى ذلك، وكان في بني تميمٍ حَصْراً.

الثاني: هنالك إشارةٌ أخرى، كالأُولَى يجب توضيحُها، وتصويبُ غَلَطِها، خَلَطتْ بين موسمِ عكاظ وموسمِ الحجِّ بِعَرَفَة والنَّفْرِ من مِنَى. وذلك لمَّا ذكر ابنُ حبيب والمرزوقيُّ، في آخِر الكلام على مَن وَليَ الموسمَ والقضاءَ بعكاظ، أن «آخِرَ مَن أفاضَ بهم: كرِبُ بنُ صفوان. . . وهو الذي قام عليه الإسلام»[١]. وهو: كَرِبُ بنُ صَفْوانَ بنِ شِجنة، من آل صَفْوان، من بني عُطارِد بن عوف التميميّ[٢]. انتقلتْ إليهم، بانْقِراضِ بني الغَوْثِ بن مُرّ، إجازةُ الحاجِّ من عَرَفة إلى المزدلفة، ثم من مِنىً إلى مكة، وهم مَن قال فيهم أوْسُ بنُ مَغْراءَ[٣]:

---

(١) المحبَّر: ١٨٣، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٢١٩.

(٣) أَوْسُ بنُ مَغْراء: شاعرٌ تميميٌّ من بني أنف الناقة. أدرك الجاهلية والإسلام. توفي نحو (٦٩٥ م).

ولا يَريمُون في التعريفِ مَوْقِفَهم حتى يُقالَ: أَجِيزُوا آلَ صَفْوانا[1]

أراد أن الحاجَّ كانوا لا يُفارِقون مواضِعَهم في الموقفِ بعَرَفَة، حتى يكون آلُ صفوانَ أئمَّتَهم في اجتياز الطريق إلى المُزْدَلفة. وهذا الأمرُ لا يتعلق بإمامة الموسم أو القضاء بعُكاظ، بل هو خارجٌ عنه، وكَرِبُ بنُ صفوانَ لم يكن من أئمَّة المواسم بعُكاظ، وإنما كان يلي الإجازةَ بالناس في الحجّ، وكان آخِرَ مَن وَلِيَها من بني تميم[2].

* * *

٤ ـ عكاظ مجمعٌ للتقاضي عند العرب:

ومن الطبيعي أن تكون سوقُ عكاظ، وهي أكبرُ مجمعٍ عامٍّ لقبائل العرب في الجاهلية، موسماً كبيراً مُلائماً لذوي الحاجات، وأصحاب المظالم، يَتواعَدُونَ بها للتقاضي، أثناءَ مُدَّةِ إقامتهم في السوق، إلى قضاةِ عكاظ، في مُنَازعاتٍ تَتعلَّقُ غالباً بالمتاجرة، كالبُيوعِ، والدُّيُونِ، والرُّهُون، وما عساها أن تكون جَرَّتْ على بعضهم من الغُبْن، أو المظالم، ونحوِ ذلك. وهذا لا يعني أن قضاةَ عكاظ لا ينظرون فيما قد يُعْرضُ عليهم من قضايا الجِنَاياتِ، والدِّيَاتِ، ومُنَافَراتِ الأحساب والأنساب، بل يُمكنُ أن ينظروا فيها، مثلما يمكنُ أن يَنظُرَ فيها قضاةُ العربِ، ممَّن يتَّفقُ حضُورُهم المواسمَ، وهو ما يبدو واضحاً، في أخبار وقائع المُنَافَرات، المأثُورَةِ عن عكاظ.

ولا شك عندي في أن قضاءَ الجاهليَّة، عموماً، كان غيرَ مُلْزِمٍ

(١) لسان العرب: ٩/ ٢٤٢ (عرف)، والمحبَّر: ١٨٣، والعقد الفريد: ٣/ ٣٤٤ ـ ٣٥٠.
(٢) السيرة لابن هشام: ١/ ١٢١.

اختلفوا في أمور البيع والشراء، أو تخاصَمُوا في شأن من شؤون حياتهم. . . وقد يتولّى القضاءَ بين المتنازعين زعماءُ الأسواق أنفسُهم، أو ملوكُها الذين يحكُمونها، ويتقاضَوْن عُشُورَها[١]، لقاء المحافظة على أرواح الناس وأرزاقهم، فإذا أصاب أحَدَهم ظلمٌ، لم يكن بُدٌّ لأولئك الملوك والزعماء أو القضاة من رَفْعِ الظلم عن المظلوم، وأَخْذِ الظُّلامَةِ من الظالم[٢]، فقد كانوا يَعُدُّون الظلم عيباً يلحق بمن وقع عليه إن سكت عنه.

وقد أشار اليعقوبي في تاريخه إلى الموضوع فقال: «وكان للعرب حُكَّامٌ ترجع إليهم في أمورها، وتتحاكم في مُنافَراتها، ومواريثها، ومياهها، ودمائها، لأنه لم يكن لها دينٌ ترجع إلى شرائعه، فكانت تُحكِّمُ أهلَ الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسنّ والمجد والتجربة»[٣]. . . ويُعَدُّ «الأفْعَى الجُرْهميُّ» أقدمَ مَن عرفناهم من حُكّام العرب في الجاهلية، وكان منزلُه بنجرانَ في اليمن، تقصده العربُ في قضاياها فيحكم بينها، ولا يُرَدُّ حكمه، وكان مُعاصِراً نزارَ بنَ مَعَدِّ بنِ عدنان[٤]، الجدَّ العربيَّ القديم، وقد أدْرَكهُ أبناءُ نزار: ربيعةُ ومُضَرُ وإيادُ وأنمارُ، وهو الذي حكم بينهم في ميراثهم من أبيهم نزار، وعلى ذلك يمكننا تأكيد وجوده في القرن الأول قبل الميلاد.

وكان الأصلُ في التقاضي قولُهم: «في بيته يُؤْتَى الحَكَمُ»[٥]. . ونفهم من ذلك أن بيت القاضي أو الحكَم كان مركزَ التقاضي بين الناس، ولكن

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨، والمحبَّر: ١٨٢، والمفصل: ٧/ ٣٨٤، وأسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٠٥، ونهاية الأرب: ٤٦٤.
(٢) الظُلامَةُ والمظْلَمةُ: ما أُخِذَ من الإنسان ظُلماً، وما احْتَملُه من الظلم.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٨.
(٤) الأعلام: ٢/ ٥، والمحبَّر: ١٣٢.
(٥) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٨.

مشقَّة الانتقال أحياناً إلى بيوت القضاة جعلتِ المواسمَ العامَّة، كمواسم الحجِّ والأسواق الكبرى، مواضعَ صالحةً للتقاضي يقصدها أصحابُ الحاجات والظُلامات، فتُقْضَى حاجاتُهم وتُردُّ عليهم ظُلاماتُهم. فكانوا في الموسم يضربون للقاضي قُبَّةً خاصَّةً، يجلسُ فيها للحُكْم بين الناس. وكان قضاةُ العرب يُخْتارُون ممَّن توافرت فيهم الحكمةُ والسيادةُ والنزاهةُ والحِلْمُ والصدقُ، مع العلم بالعاداتِ والتقاليد، والأحْسَابِ، والأنساب، وأيامِ العرب، وأحْوالِهم، وغير هذا من الشروط... فالقاضي عندهم هو الحكَمُ، والحكَمُ هو الحاكمُ، والحاكمُ هو الذي يمنعُ الظالمَ من الظلم، والحكومةُ هي رَدُّ الظالم عن الظلم، والحُكْمُ هو العلمُ والفِقهُ والقضاءُ بالعدل، والمُحَكَّمُ هو الشيخُ المُجَرِّبُ المنسوبُ إلى الحِكمة، أي إلى العدلِ وإتقانِ الأمور[1]. وكانت للقضاء عند العرب في الجاهلية أصولٌ عريقةٌ، وقواعِدُ واضحةٌ ثابتة، أقرَّ الإسلامُ عدداً كثيراً منها لاتفاقها مع العدل والمنطق السليم، كقولهم: البيِّنةُ على من ادَّعَىٰ واليمينُ على من أنكر، أو كقول زهير بن أبي سُلمى[2] في طرُق إثبات الحق:

فإن الحقَّ مَقْطعُهُ ثلاثٌ ... يمينٌ أو نِفارٌ أو جَلاءُ

وكان أميرُ المؤمنين عمر بنُ الخطاب إذا أُنشِدَ هذا الشعرَ يتعجَّبُ من فقه زُهير بالحقوق، وبَراعَتِهِ في تقسيمها، وبَلاغتِهِ في إيجازها، ويُردِّدُ: لا

---

(١) لسان العرب: ١٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣ (حكم).

(٢) زهير بن أبي سلمى: من بني مزينة من مُضَر، حكيم الشعراء في الجاهلية، وكان له في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعبٌ وبُجَيْرٌ شاعرين. ولا نظن أن أسرةً هذا بعضُ حالها تنجمُ في بيئة مُتخلِّفة جاهلة. كانت قصائد زهير تسمى الحَوْليّات لأنه كان يعكف على تهذيبها وتنقيحها قبل إذاعتها في الناس. وُلد في بلاد مُزَيْنة بنواحي يثرب، وأقام بالحاجِرِ من ديار نَجْد، وتوفي سنة (٦٠٩ م).

يخرجُ الحقُّ من إحدى ثلاثٍ، يمينٍ أو محاكمةٍ أو حُجَّةٍ بيِّنةٍ[١] . . . ولا شك في أن زهيراً إنما استفاد هذا العلم من مجتمع العرب، ممّا هو معمول به في أعرافهم وسُنَنِهم، ولكنه أحْسنَ تفصيلَ الحقوق، وإقامةَ أقسامها[٢]، بعبارة بليغةٍ واضحةٍ مُوجزة. ومثلُ هذا العمل يَدلُّ بوضوح على اتصال صاحبه بمنطق الفلاسفة، وعِلْمه بأصول التشريع، كما يدلُّ على أن المجتمع الذي كان يعيش فيه مجتمعٌ يعرفُ الأحكامَ القانونية، وتنظيمَ الحقوق، ويملكُ جملةً من القواعد، كانت صالحةً لقيام نظام قضائي، يرجعُ الناسُ فيه إلى قضاتهم، للفصل فيما يَشْجُرُ بينهم من المشاكل. وكان قبولُهم بأحكام القضاة دليلاً على وجود ذلك النظام، أو تلك القواعد القانونية العامة. وكما هو الحالُ اليوم، فإن بعض الأحكام التي كان القضاةُ يحكمون بها أحياناً، تصبح قواعدَ قانونيةً مُلْزِمةً فيما بعد، يَتَّبِعُها سائرُ القضاة، كقول قسٍّ بنِ ساعدة الإيَاديّ، وكان من حُكَّام العرب وقضاتهم وخطبائهم[٣]: لأَقْضِيَنَّ بين العرب بقضيَّةٍ لم يقضِ بها أحدٌ قبلي، ولا يَردُّها أحدٌ بعدي: «أيُّما رجلٍ رمَى رجُلاً بمَلأَمَةٍ دونها كرمٌ فلا لُؤمَ عليه، وأيُّما رجلٍ ادَّعَى كرماً دونه لؤمٌ فلا كرمَ له»! فذهب قضاؤه حُكْماً يُتَّبع في مُنَافَرات الحسَب والشرف، وكقوله أيضاً: «البَيِّنةُ على مَن ادَّعَى، واليمينُ على من أنكر»، ذكر الميداني أنه أول من قالها، ومعناها أن تقديم البيِّنة يجب على المدِّعي لا على المُنكِر[٤].

ويُفهم من بعض الأخبار أنه كانت للقضاء عند العرب مَراسِمُ خاصَّة،

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٦٧، وابن قتيبة ـ الشعر والشعراء: ١٤٠، ١٤٩، والعقد الفريد: ٥/ ٢٨١.
(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٠٣.
(٣) المرجع نفسه: ١/ ٢٨٣.
(٤) العقد الفريد ٢/ ١٩١، و ٣/ ٤١١، ومجمع الأمثال: ١/ ١٥٢.

كقَرْعِ العصا بين يَدَيْ القاضي إذا حَضَر، إيذاناً بانعقاد مجلس القضاء، أو إذا أراد الإنصرافَ، آيةً على انْفِضاض المجلس. وكانت العصَا عند العرب تُضْرَبُ مَثَلاً للاجتماع، وانْشِقاقُها مثَلاً للافتراق[1]، وحَملُها من علامات السيادة والحُكم والرئاسة، فكان الحكَّامُ يحملونها، أو يحملُها بين أيديهم أعوانُهم عند قيامهم للحُكم بين الناس[2]. وما يزال قرعُ المطرقة، كقرع العصا، تقليداً مُتَّبعاً عند القضاة إلى اليوم، يُسْكِتُون به المخالفين على النظام، ويُلْزِمونهم الطاعةَ واحترامَ هيبةِ القاضي واجتماعِ الناس. ومن أمثال العرب قولُهم: «إن العَصَا قُرِعَتْ لذي الحِلْم»[3]. وذو الحِلْم هو: عامِرُ بنُ الظَّرِب العَدْوانيُّ[4]، وهو حاكمُ العرب في زمنه، لا يَعْدِلُون بحكمه حكماً، ولا بفهمه فهماً، وقالوا: إنه أولُ من قُرِعَت له العصا... ومع أن هذا القول يتفق بداهةً وما ذهبنا إليه من أمْر العصا ورَسْمِها في القضاء، كما يتفق وما أضافوه إلى عامر بن الظرب من الحكمة والفهم والسيادة والرئاسة، غير أن بعض الرواة وأهل الأخبار في عصر التدوين، زعموا في تفسيره أن عامر بن الظرب لمّا أَسَنَّ أنكر من عقله شيئاً، فقال لِبَنِيه: إني قد كبُرتْ سِنّي، وعَرَض لي سَهْوٌ، فإذا رأيتموني خرجتُ من كلامي وأخذتُ في غيره فاقْرعوا ليَ المِجَنَّ بالعصا، وزعم آخرون أنه أَمَر بنتَه أن تقرعَ له بالعصا، إن هو زَلَّ في الحُكم أو جار عن القصد، تُفطِّنُه بقَرْعها للصواب فيفطن له... وأضاف

---

(١) لسان العرب: ١٥/٦٦ (عصا).

(٢) المفصَّل: ٥/٤٩٩.

(٣) لسان العرب: ١٥/٦٦.

(٤) عامرُ بن الظَّرِبِ العَدْواني: من بني عَدْوان، من قيس بن عيلان. خطيبُ قبائل مُضَر وفارسُها وإمامُها وحَكَمُها. من حُكام العرب في الجاهلية، يحتكمون إليه في النوازل، وكان عندهم مَرْضيَّ الحكم. وكنا قدَّرنا زمنه نحو (٢٧٥ ـ ٤٢٥ م). له شعرٌ جيِّدٌ وكلام مُسَدَّدٌ. وهو ممن حرَّموا الخمر في الجاهلية.

بعضُهم أنه أُتيَ بخُنْثَى ليحكم فيه، وهو لا يدري ما حكمُ الخنثى، فقامت إليه جاريتُه «خُصَيْلَة»، وقالت له: ما بالُكَ! أتْبِعْهُ مَبَالَهُ!.. ولما جاء الإسلام أقرَّ ذلك وجرى حكمه به[1]. فانظرْ إلى أصحاب هذه الأخبار كيف جعلوا من زعيم، موصوفٍ بالعقل والحكمة والفروسية، رجُلاً خُولِطَ في عقله، وفَسَدَ رأيُه، وعَرَض له السَّهوُ والنسيان، ورغم ذلك كان مستمراً في الحكم بين الناس، حتى احتاج إلى من يقرعُ له العصا، فينزع عن زَيْغِهِ، وحتى صارت جاريتُه أقْضَى منه، فيطلب منها النصح والمشورة!... وكأن الرجل كان إمَّعَةً جاهلاً من غِمار الناس، وكأن العربَ كانوا من الجهل بحيث لا يفرقون بين العاقل ومَنْ خُولط في عقله.

ولكننا إذا عرفنا أن الشعوبية في عصر التدوين كانت تُعَيِّرُ العربَ باسْتعمالهم العَصا في أمور كثيرة، عَلِمنا أن تلك الخرافات التي ساقها أهلُ الأخبار تفسيراً لذلك القول، إنما هي من قبيل الاختراع والتزوير والدسّ. فقول العرب: إن العصا قُرِعت لذي الحِلْم، وأنها لم تُقْرَع قبل ذلك لغيره، إنما هو من قبيل الفخر، يفخر به بنو عَدْوان على الناس، لأنهم كانوا يَعُدُّون عامِرَ بنَ الظرب أولَ قُضاة العرب وأئمتِهم بسوق عكاظ، ثم انتقل ذلك إلى بني تميم كما ذكر ابنُ حبيب[2]. ولعلَّ الرجلَ كان أوَّلَ من سنَّ عادةَ قَرْعِ العَصَا، إيذاناً بانعقاد مجلس القضاء، أو بحضور القاضي أو غير ذلك، فلم يجد الرؤساءُ في استعمالها بعدَهُ غَضَاضةً، فردُّوا على الشعوبية بأن العصا لا عيبَ فيها، وأنها قُرِعت لذي الحِلْم، دليلاً على جلالةِ قَدْرِهِ وعُلوِّ مركزه.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٥٣، والعقد الفريد: ١/ ٦٢، و٣/ ٩٤، وعيون الأخبار: ١/ ٧٣، والمعارف: ٨٠، ٥٥٣، والبيان والتبيين: ٣/ ٢٧، ولسان العرب: ١٥/ ٦٦ (عصا)، وجمهرة أنساب العرب: ٢٤٣، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) المحبَّر: ١٨١.

ولئن كنتُ لا أعتقد أن عامر بنَ الظرب هو أوّلُ القضاة بعكاظ، لأن القضاء بعكاظ كان في بني تميم بن مُرٍّ حَصْراً، فإن ذلك لا يمنع من القول بأنه كان قاضياً قومياً، يقضي بين العرب على اختلاف قبائلهم، وربما قضى أحياناً بعكاظ وغير عكاظ[1]، ولم يكن قاضياً مَحلِّيّاً يقضي بين أبناء قبيلته وحَسْب، وهو في ذلك كالأفعى بن الحُصَيْن الجرهمي، يقصده العربُ في منزله بنجران للاحتكام إليه، ومثلُه أَكْثَمُ بن صَيْفي التميميُّ، وقسُّ بنُ ساعدة الإيَاديّ، وحَنْظَلة بن نَهْد القُضَاعيُّ حاكمُ العرب، وكان منزلُهُ باليمن قربَ نجران[2]. وكانوا جميعاً من الحكام الرؤساء والخطباء البلغاء[3]، عند العرب جميعاً.

وقد ذكر ابنُ حبيب نحواً من ستة وثلاثين حكَماً من حُكام الجاهلية، ينتسبون إلى قبائل العرب من جُرْهم وقريش وكنانة وخزاعة وأسد وتميم وقيس وربيعة وإياد ودَوْس وقضاعة[4]، وذكر بعضَ هؤلاء أيضاً المرزوقيُّ ولم يأتِ بجديد[5]، ومثلُه فعلَ الميدانيُّ فذكر أحَدَ عشر قاضياً، ولكنه أضاف إليهم أربع حكيمات من بنات العرب هُنَّ: صُحْرُ بنت لقمان، وهند بنت الخسّ، وجمعة بنت حابس، وإبنة عامر بن الظرب[6]. وقد ذكر الجاحظ أن إبنة عامر «كانت من حكيمات بنات العرب حتى جاوزتْ في ذلك مقدار صُحْرِ بنت لقمان وهند بنت الخسّ وجُمُعَة بنت حابس»[7]. . . وهذه

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٤٦.

(٣) البيان والتبيين: ١/ ٢٨٣، والأغاني: ١٦/ ٢٥٥.

(٤) المحبَّر: ١٣٢ ـ ١٣٧.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٦) مجمع الأمثال: ١/ ٥٤.

(٧) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧.

آية على ترقّي العرب في عصر الجاهلية إذ كان فيهم نساء حكيمات مُحكَّمات، اشتُهِرنَ بصواب الحكم، وصِحّة الرأي، وحُسْنِ الفصل في الخصومات، وكان الناسُ يحتكمون إليهن أحياناً كما يحتكمون إلى الرجال، ويقبلون أحكامهنَّ قبولَهم أحكامَ الحُكَّام من الرجال[1].

على أن إفْرادَ ابن حبيب أسماءَ حُكَّام العرب في الجاهلية في فصل مُستقلٍّ، ثم ذِكْرَهُ أسماءَ أئمّةِ العرب وقُضاتِهم بعكاظ في فصلٍ آخر[2]، أمرٌ يدفعنا إلى وجوب التفريق بين الطائفتين، فقضاةُ عكاظ كانوا في الوقت عينه قضاةً في قومهم، ومنهم من اكتسب شهرةً قوميةً فصار قاضياً للعرب جميعاً مثل أكثم بن صيفيّ، والأَقْرع بن حابس، وضَمْرة بن أبي ضمرة، وربيعة بن مخاشن، فكان العرب يرتحلون إليهم لينظروا في أحوالهم ومنافراتهم. أما حكامُ العرب الآخرون، فأكثرهم كانوا قضاةً في قبائلهم، وإذا حُكِّم أحدُهم في موسمٍ عامّ كسوق عكاظ مثلاً، فهو إنما يُحكَّمُ بين أبناء قبيلته، وينظرُ في قضاياهم دون غيرهم فإذا كان النزاعُ بين فريقين، ينتمي كلٌّ منهما إلى قبيلة، فالنظر في هذا النزاع من حُقوق حاكم السوق أو قاضيها، وربما كان أيضاً من حقِّ القضاة القَوْميّين المعروفين عند العرب جميعاً. وفي اعتقادي أن النزاع في الأسواق الموسمية، إذا كان تجارياً، فهو من حق قضاة السوق أو ملوكها حتماً، وإلا فما كانوا عيّنُوا للسوق قاضياً أو حاكماً ينظر في النزاعات التي يمكن أن تنشأ بين الناس، ولكانت كلُّ قبيلةٍ تَشْهدُ موسمَ السوق تكتفي بقاضِيها أو حاكمها.

* * *

(١) المفصّل: ٥/ ٤٩٨ و ٥/ ٦٣٩.
(٢) المحبَّر: ١٨١ ـ ١٨٣.

الفصل الثاني

عكاظ المعرض العام لتجارات العرب

المطلب الأول: عروض التجارة

المطلب الثاني: نظام المتاجرة

١ ـ التحكيم التجاري

٢ ـ الإعفاء من الضريبة

٣ ـ العلامات التجارية

المطلب الثالث: طرائق البيوع والتعامل

المطلب الرابع: كتبة الصكوك بعكاظ

الفصل الثاني

معرض تجارات العرب

يهمُّنا، في هذا الفصلِ من الكتاب، أن نُحقِّق في أمورٍ رئيسَةٍ ثلاثة:

الأوّلُ: ما كان يُعْرَض في سوق عكاظ، من صُنُوفِ السِّلَعِ والأمتعةِ والعُروضِ المختلفة، جعلتِ الناسَ تحرصُ على قَصْدِها، كلما حلَّ موسمُها، لِيَرَوْا فيها الجديدَ الذي لم يَرَوْهُ من قبلُ، وليشتروا منها ما أَحَبُّوا من حاجات، ربما نزلتِ المنافسةُ بأسعارها، في معرضٍ عامٍّ كسوق عكاظ، أكثر مما كانوا يتوقَّعون.

الأمرُ الثاني: ما يمكن أن نُحيط به من أُصول المتاجرة، التي كانت مُتَّبَعةً إذ ذاك في التعامل بين الناس.

الأمر الثالث: طرائق البيوع والتعامُل.

المطلب الأول ـ عُروضُ التجارة:

لا شكَّ في أن عُروضَ عكاظٍ بلغتْ من الكثرة مبلغاً كبيراً لا يمكن حَدُّه، ومن التنوُّع ما رغَّبَ فيها الناسَ، حتى المُلوكَ والرؤساءَ، فكانوا يُوفِدُونَ إلى عُكاظ، مَن يشتري لهم منها ما يحتاجون إليه، مما لا يكون في غيرها. جاء في الأخبار أن ملكَ الحِيرة، النعمانَ بنَ المنذر، كان من عادته أن يبعثَ إلى سوق عكاظ، في مواسمها، لَطائمَ الطِيبِ والبُرِّ، فتُباع فيها، ويُشْتَرى له منها بثَمنها: الأَدَمُ، والحريرُ، والوِكاءُ، والحِذَاءُ، والبُرودُ من

العَصْبِ والمُوَشَّىٰ والمُسَيَّرِ العَدَنيّ[1] . . . وكان مشهوراً بها نوعٌ مُمَيَّزٌ من الأَدَمِ الجميل، يُبَاعُ فيها، فنُسِبَ إليها، وسُمِّيَ الأَدِيمَ العُكاظيَّ. وكانت تُنْسَبُ إليها إبِلٌ تُسمَّىٰ: العُكاظيّات، والنُّوقُ المنتوجةُ بين هذه العُكاظيات والنجائب تُسمَّىٰ المُخَضْرَمَةُ. . .[2] . وكان مشهوراً بها كذلك صنوفٌ من الثياب الغالية الثمن، تُجلبُ إليها من بلاد العرب والشام والعراق ومصر. وكان يتوافَرُ بها من الأشياءِ، ما ليس في سائر أسواق العرب مِثلُه، «فكان الملكُ من مُلوك اليمن، يبعثُ بالسيف الجيّد، والحلَّة الحسَنة، والمركوب الفاره[3]، فيقف بها رسولُهُ في عكاظ، وينادي عليها: ليأخُذْها أعَزُّ العرب. . . يُريد بذلك معرفةَ الشريفِ والسيِّدِ منهم، فيأمُرهُ بالوِفَادَةِ على الملك، فيُحْسِن صِلَتَهُ وجائزتَه»[4].

وكان يُجْلَبُ إلى عكاظ كلُّ ما اشْتُهِرتْ بلادُ العرب، وغيرُها من البُلْدان القريبة والبعيدة، بإنتاجه أو صُنْعِه[5]. فكان فيها على سبيل التمثيل:

- غَوالي الطِيب، والمِسْكُ، والعَنْبرُ، والكافورُ، والبَخُّورُ، والْلُبَانُ، وأنواعُ العُطور، والزَّعْفَرانُ، والأَفَاوِيهَ، والوَرْسُ، والكُنْدُرُ، والخِطْرُ، والمُرُّ، والخِضَابُ، والصمغ، والعِلْكُ، والحِنَّاء. . .

---

(١) الأغاني: ٢٢/ ٦٤. الأَدَمُ: الجلودُ المدبوغة. الوِكاء: ج أَوْكِيَة، وهوَ كلُّ وعاءٍ يُشَدُّ رأسُه بما يشبه رباطَ الصُّرَّة. البُرودُ: ثيابٌ يمنيَّة مُخططَّةٌ غاليةُ الثمن. العَصْبُ: ضربٌ من بُرودِ اليمن، سُمِّي عَصْباً لأن غَزْلَهُ يُعْصَبُ، ويُدْرَجُ، ثم يُصْبَغ، ثم يُحَاكُ. المُوَشَّى: وَشَّى الثوبَ أي حَسَّنَهُ بالألوان، ونَمْنَمهُ، ونقشَهُ. المُسَيَّرُ: ثيابٌ مُخَطَّطةٌ، وَشْيُها يشبه السُّيُورَ.

(٢) لسان العرب: ٧/ ٤٤٨ (عكظ)، و١٢/ ١٨٥ (خضرم)، ومعجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٣) المركوبُ: ما يُركَبُ من الحيوان، والفارِهُ: النشيطُ الحادُّ، القويُّ. ولا يقال للفرس فارِهٌ، إنما يقال للبِرْذَوْنِ والبغل والحمار. ولا يقال للفرس إلا جواد.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

(٥) د. أحمد أمين ـ عكاظ والمربد: ٢٥.

- أساوِرُ، وخَلاخيلُ، وقلائدُ، وسَلاسِلُ، وتيجانٌ، وأكواب، وأباريقُ، بعضُها من ذَهبٍ أو فِضَّةٍ، واللؤلؤُ، والدرُّ، والعَقِيقُ، والبَقَرانُ، والخَرَزُ، والجَزْعُ . . .
- البُرودُ المُوَشَّاةُ، والمُسَيَّرةُ، والمُرَحَّلةُ، والمُخَطَّطةُ، وثيابُ الكَتَّانِ أو القطنِ أو الحريرِ، والحُلَلُ، والجُبَبُ، والأرْدِيَةُ، والأَقْمِصَةُ، والعَباءات . . .
- أنواعُ التُمُورِ، والخُمُورِ، والزبيبُ، ودقيقُ القمح الأبيض، والزيوتُ، والدُّهون، والسَّمَكُ المجفَّفُ، والعَسَلُ، والتوابِلُ، والحِنْطَةُ، والسَّمْنُ، والملحُ . . .
- الصوفُ، والشَّعَرُ، والوَبَرُ، وأنواعُ الجلودِ المدبوغةِ، والمناطِقُ المُذَهَّبَةُ، والرِّحَالُ، والبُسُطُ المصنوعةُ من الصُّوفِ، أو شَعَرِ الماعِز، وريشُ النعام . . .
- أنواعُ السيوف، والرماحُ، والنِّبَالُ، والدُّرُوعُ، والخَناجِرُ، والنِّصَالُ . . .
- الإبِلُ، والبَقَرُ، والأغنام، والقرود . .
- أَوَانٍ من زُجَاج، وأُخرى من خَشَبٍ أو أديمٍ . . .
- صناديقُ، وهوادِجُ، ومَطارَقِ، وأثاثٌ للبيوتِ مختلفٌ أصنافُه . . .
- وكان في عكاظ أيضاً رقيقٌ يُعْرَضُ للبيع، وكانت المتاجرةُ به يومئذٍ تُجيزُها الأمَمُ كافةً، وتَعُدُّ حقَّ السيِّدِ على عَبْده أو أَمَتِهِ حقّاً مشروعاً مَصُوناً . . . وقد ذُكر أن السيدة خديجة أمَّ المؤمنين مَلَكَتْ زيْدَ بنَ حارِثَةٍ، اشتراهُ لها حكيمُ بن حزام[1]، في سوق عكاظ، بأربع مئة درهم. ثم سألها رسولُ الله، بعدما تَزوَّجَ بها، أن تَهَبَهُ زيداً، فَفَعلتْ، فأَعْتَقَهُ، وزَوَّجهُ من

(١) حَكيم بنُ حزام: من بني أسد بن عبد العُزَّى. وُلد في الكعبة، وكان صديقاً للرسول قبل البعثة وبعدها. أسلم يوم الفتح. توفي سنة (٥٤ هـ = ٦٧٤ م)، وعاش نحو (١٢٠) سنة.

آخَرَ، كالنَّظَرِ في المنافرات والتفاخُر، ولا سيما أن أرضَ عكاظ لا يحكمُها مَلِكٌ، أو رئيسُ قبيلةٍ، ليقومَ مَقامَ السُّلْطةِ القضائيَّة، أو التنفيذيَّة في مثل هذه الأحوال. وقد ساعد هذا التدبيرُ على رَواجِ التجارة في عكاظ، وعلى دَعْم الثقة بها، وازدهارها.

٢ ـ الإعفاءُ من الضرائب:

كانت البضائع المجلوبةُ إلى سوق عكاظٍ مُعْفاةً من العُشُورِ، أو المُكُوس[١]، فكأنها كانت «منطقةً حُرَّةً»[٢] في الجاهلية. إذ لم يكن بها مَكَّاسٌ يتقاضَى المكوسَ من التجار، ولا عَشَّارٌ يُحصِّل العُشُورَ على المُبَايَعاتِ[٣]، ذلك لأن السوقَ لم تكن في سُلطان أحَدٍ من الأُمَراء أو الملوك، ولأن موسمها يقومُ في شهرٍ حرامٍ، لا يحتاجُ معه التجَّار إلى من يَخْفُرهم، أو يحميهم فيها. وكان التجارُ يُبَاشِرون البيعَ والشراءَ بالسوق فَوْرَ افتتاحها، وإعلانِ قيامِ مَوْسِمِها، وليس عليهم أن ينتظروا، كما لو كانت السوقُ تقعُ في أرض مملكةٍ، حيث لا يبيعُ أحدٌ شيئاً من بضاعته، حتى يبيعَ الملكُ، أو حاكمُ السوق، كلَّ ما يُريدُ بَيْعَهُ من العُروض.

أمّا ما ذكره أحمد أمين عن القبائل التي كانت تُقدِّم إتاوةً لرؤسائها، في نظير إقامتها بعكاظ[٤]، فهو غير صحيح، لنصِّ كلٍّ من ابن حبيب[٥]،

---

(١) المُكُوس: مُفردها مَكْسٌ، وهي ما كان يُؤخَذُ ضريبةً من التجار، وهي كالعُشُور، والمكَّاسُ هو جابي المكوس، والعَشَّارُ جابي العُشُور.

(٢) المفصَّل: ٧/ ٣٧٩.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

(٤) عكاظ والمربد: ٢٤.

(٥) المحبَّر: ٢٦٧.

والمرزوقي[1]، أنه لم يكن بعكاظ عُشُورٌ ولا خفارة. واسْتِشهادُهُ بالإتاوة التي كانت تُقدِّمُها هوازنُ إلى زهير بن جذيمة العبسيّ بعكاظ، ليس في مَحلِّه، لأن هوازنَ هي صاحِبَةُ السوق، فكيف تُؤدِّي أجْراً عن إقامتها بها، إلى من لا يملك شيئاً من أرضها؟ والواقع أن هوازن كانت تؤدِّي إتاوةً إلى سيدها وزعيمها، لأنها كانت تدينُ له بالطاعة، وكان موسمُ عكاظ خيرَ مناسبةٍ لتحصيل تلك الأتاوة، التي يجب أداؤها في نظير الولاء، لا في نظير الإقامة بعكاظ.

٣ ـ العلاماتُ التجاريَّة:

لم تكن كلُّ بضاعةٍ تَرِدُ إلى عكاظ تُباع، إذا لم يُعرفْ أصلُها، ومَنْشَؤها، و «علامتُها التجاريَّةُ» إن كان لها سِمَةٌ خاصَّةٌ بها. تَأكَّدَ لنا هذا الأمرُ، لأن البضائعَ، التي كانت مجهولةَ الأصل، لم تكن تجدُ مِن الناس مَن يشتريها، أو يُقْبِلُ عليها. ومثالُ ذلك ما وقع في مَوسمٍ من مواسم عكاظ، فقد قَدِمَ السوق لصٌّ من لُصوص العرب، مُتَنكِّراً في زِيّ تاجر، وقَرَّبَ إبِلاً للبيع، فسُئِل: ما علامةُ إبِلِكَ؟. فتَعَثَّر لسانُه، فلمّا ألَحُّوا عليه، صاح: كلُّ نِجَارٍ إبِلٍ نِجَارُها[2]... والنِجَارُ: الأَصْلُ، أراد أن فيها من كل القبائل، فعلموا أنه سارقٌ، كان يُغِيرُ على أنعام القبائل، فيطردُ إبِلَهُم، ثم يأتي السوق بها. وكانت لكلّ قبيلة من قبائل العرب سِمَةٌ خاصَّةٌ، تُوسَمُ بها أنْعَامُهم، لِيُعْرَفَ أَصْلُها، فكان من عادتهم أن يسألوا: ما نارُ هذه الناقةِ؟ أي ما سِمَتُها؟ سُمِّيَتِ السِّمَةُ ناراً، لأنها بالنارِ تُوسَم، وكانوا يقولون عن الإبِل: نِجَارُها نارُها، أي سِمَتُها تدلُّ على أصلها[3]... ويمكن أن نفهم من هذه الواقعة،

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ١١٠.

(٣) لسان العرب: ٥/ ٢٤٣، وتاج العروس: ١٤/ ٣٠٥ (نور).

أن البضاعةَ إذا كانت مجهولةَ الأصلِ لا يشتريها أحدٌ، وأنه كان من عاداتهم تمييزُ بضائعهم بسِمَاتٍ مَعْروفةٍ بينهم، من الممكن أن نَعُدَّها العلاماتِ التجاريَّةَ المُعْتمدَةَ اليوم لتمييز البضائع، فكانوا، على سبيل المثال، يختمون أكياسَ البُرِّ، وزِقَاقَ الخمر، وغيرَها من البضائع، بخاتَم خاصٍّ، عليه كتابةٌ منقوشةٌ مُميِّزةٌ، يُسَمُّونه الرَّوْسَم[١].

* * *

المطلب الثالث ـ طرائق البُيوع والتعامل:

ذكر أهلُ الأخبار أن التَّبْعَ في عكاظٍ كان بَيْعَ «السِّرَار»! وقد فسَّرهُ ابنُ حبيب بقوله: إذا وَجَبَ البيعُ، وعند التاجِر أَلْفٌ، ممَّن يريدُ الشراءَ، ولا يُريدُهُ، أشْركه في الربح[٢]. . . بينما قال المرزوقيُّ: إنه إذا كان عند التاجر أَلْفُ رَجُلٍ ممن يريدُ الشراءَ ولا يُريدُه فلَهُ الشركةُ في الربح[٣]. . . ولا أعتقدُ أحداً يرضى بهذا التفسير، ولا بذاك، فكلاهما كلامٌ غريبٌ، ليس له معنى معقول!

ذلك أن سوقاً كسُوق عكاظ، يَتَوجَّـهُ إليها التجَّارُ من كل مكان، ويُعِـدُّون لها ما استطاعوا من صنوف البِيَاعات، ويَعِدُ الناسُ أَنْفُسَهم بشُهودِها، ويُواعِدُ بعضُهم بعضاً على التلاقي في مواسمها، ويَؤُمُّها عربُ الشمالِ والجنوب، وأهلُ الشام والعراق، ويَتَوافَىٰ بها أشرافُ العرب وملوكُهم، لا يمكن أن تكون البُيُوعُ فيها، بطريقةٍ واحدةٍ مُبْهَمَةٍ، لا هي من

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٥٥١.

(٢) المحبَّر: ٢٦٧.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

أشكال القمار، ولا من ضُروب العَبَثِ واللهو أو اختبارِ الحظوظ.

وقد فَتَّشتُ في المعاجم عن هذه الكلمة، فلم أجد أحَداً ذكر هذا النوعَ من البُيوعِ، إلا بطرسَ البستانيَّ قال فيه: «وبيعُ السِّرار أن تقول أُخْرِجُ يدي وتُخْرِجُ يدَكَ، فإن أخْرجتُ خاتمي منها قَبلك، فهو بَيْعٌ بكذا، وإن أخْرَجْتَ خاتَمك قبلي فهو بَيْعٌ بكذا، فإن أخرجا معاً استأنَفَا الإخراجَ»[1]... ! فهل يُصدِّقُ أحدٌ أن في الدنيا سوقاً، لها من الشهرة والخُلود ما لسوق عكاظ، يكون البيعُ فيها بهذه الطريقة العجيبة الغريبة؟ لا يمكن قطعاً التسليم بذلك، ولا شك في أن بُيُوعَ عكاظ كانت في مُعْظمها تقومُ على المُسَاومَةِ، أو المُقَاوَلَةِ بين البائع والمشتري، وأن بعض البُيوعِ كانت تَطْغَى عليها الشَّكْليَّةُ، وأن الأمر لم يكن يخلو، كما هي العادةُ في كلِّ زمانٍ، وكلِّ مكان، من بعض العادات السيِّئة، كأنْ يَتَواطأَ البائعُ مع رجُلٍ عنده، على أن يمدحَ له بضاعتَه، ويُحْسِنَ وصفَها، على مَشْهدٍ ومَسْمَعٍ من زَبُونٍ، فَيَنْخدِعُ الزَّبُونُ بما رأى وما سمع، ويُقْبِلُ على شراء البضاعة مُتَسَرِّعاً، من غير تبصُّر، وبثمنٍ يفوق ثَمَنها الحقيقيَّ...

على أن الأصل اللغويَّ في معنى السِّرارِ هو المُسَارَّةُ، أي التَّنَاجي بالمودَّةَ، والبَوْحُ بالسرِّ. وصاحبُ السِّرارِ، أو أخُو السِّرار، هو الذي يُسِرُّ بالمودَّةِ، أو بسِرِّه إلى صاحبه، ومن معانيه أيضاً: خطوطُ باطنِ الكفِّ، والوجهِ، والجبهةِ[2]... وفي قوله تعالى: ﴿**وأَسَرُّوهُ بضاعةً**﴾[3]، جعله الزبيديُّ من السِّرار، وقال: أي خَمَّنُوا في أنفُسِهم أن يحصلوا من بيعه

(١) محيط المحيط: ٤٠٦ (سرر).
(٢) لسان العرب: ٤/٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٢ (سرر).
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٩.

السُّلَميّ[١]، من قيس بن عيلان، ومعه إبناهُ معاوية وصَخْرٌ، أَخَوا الخنساء الشاعرة، وحَضَرَ السوق مَعْمرُ بن الحارث العُذْريُّ، فلما رأى عَمْراً، واقَفَهُ، وقام حِذاءهُ، وأمَرَ ولدَهُ أن يخدموهُ، إجلالاً له، ففعلوا، فلما تقوَّضَتِ السوقُ، دعا عمرو بن الحارث إبنَيْه صخراً ومعاوية فقال لهما: إن مَعْمراً قد طوَّقني مالم يُطوِّقني أحَدٌ من العرب، وقد أَحْببتُ أن أُكافيه. فقالا: إفعلْ ما بدا لك! فدعا بكاتبٍ وصحيفةٍ، وكتب ما خُلاصتُه: هذا ما مَنَح عمرو بن الحارث بن الشريد السُّلَميُّ، معمرَ بنَ الحارث العُذريَّ، منَحَهُ ما لَهُ بالوحيدة من نواحي يثرب، برسُومه، وأطلاله، ومَغَانيه، ومَسَايِله، وشَجرِه، ونباته، وكلُّ ما صاءَ وصَمَتَ فيه[٢]، وبكتِ السماءُ عليه، وضحكتِ الأرضُ عنه، فهو لمعْمرٍ دون عمرو، لا يشوبه كدَرُ الامْتنان، ولا أمارات الامتهان... ثم ذُكر في الصحيفة أنها كُتبت لخمسٍ وثلاثين عاماً خَلَتْ من عام الفيل، وبُعِثَ بها مُوَثَّقةً، مع طُرَفٍ من طرائف اليمن إلى معمر بن الحارث... وقد ذكر الأصمعيُّ أن الأرض كانت ما تزال باقيةً، يَفيضُ على وَلد مَعْمرٍ دَخْلُها، وذلك في أيام هارون الرشيد[٣].

ويبدو من هذه الواقعة: أن العرب عرفوا صكوكَ التمليك، المُحرَّرة وفاقاً للأصول القانونية العامَّة، وأنهم كانوا أيضاً على علمٍ بقُيود الحسابات التجارية، وأن كَتَبَةَ الصُّكُوكِ كانوا بسوق عكاظ، مُتأهِّبين مع صُحِفِهم للكتابة بين الناس.

---

(١) انتشر في كتُب الأدب أنه عمرو بن الشريد، وهو غلطٌ صوابُه ما أثبتناه.

(٢) ما صَاءَ وصَمَت: المالُ الناطقُ والصَّامِتُ. الأَولُ كالإبل والغَنَم، والثاني كالذهب والفضة.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨ ـ ١٦٩.

فانْتَهِبُوها، ولا أُحِلُّ لأَحَدٍ أكثرَ من شاةٍ. . . فتَقطَّعُوها في ساعة، وتفرَّقتْ في بلاد العرب. فسار من ذلك مَثَلٌ فيما لا يُدْرَكُ، فكانوا يقولون: لا آتِيكَ مِعْزَى الفِزْر، أي حتى تجتمعَ مِعْزَى سعد، وهي لا تجتمعُ أبداً[1]. وكان العربُ يجعلون ما لَهم نَهْباً، يُنْهِبُونَه الناسَ، طلباً للسيادة والشرف.

* * *

(٢) ـ مِنْبرُ الوَعْظ والتبشير:

١ ـ جاء في الحديث، أن الرسولَ عليه السلامُ «لبِثَ عَشْرَ سنين يتبعُ الحاجَّ بالمواسم»[2]، وذكر اليعقوبيُّ: أنه «قام، عليه السلامُ، بسوق عكاظ، عليه جُبَّةٌ حمراءُ، فقال: يا أيها الناسُ، قولوا لا إلَه إلا اللَّهُ، تُفْلِحوا وتَنْجحوا»[3]. وفي أخبار السيرة النبوية أنه كان من دَأْبِهِ، بعد مَبْعَثِهِ، أن يُوافيَ القبائـلَ كلَّ عامٍ بالمواسـم في عكاظ ومجنَّة وذي المجـاز، ويَقصدَ كلَّ قبيلةٍ في منزلها من السوق، فيعرض نفسَه عليهم، ويُخْبرهم أنه نبيٌّ مُرْسَلٌ من عند الله، ويسألهم أن يُصدِّقوه، وأن يُؤْمنوا بالله، وبما أَنْزله عليه من أحكام الدِين، ويدعوهم إلى أن يُؤْوُوهُ حتى يُبلِّغَ رسالات ربِّه، ولهم الجنَّةُ. . . وكان لا يجد أحداً ينصُره أو يُجِيبُه. وكان من القبائل الَّذين أتاهم في منازلهم بالسوق: بنـو عامر بن صعصعة، ومُحَاربُ بن خَصَفَـة، وفزارة بن ذبيان، وغسان، ومُرَّة، وبنو حنيفة، وسُلَيم بن منصور، وعَبْس، وبنو البَكَّاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب من مذحج، وعذرة،

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/٢١٣، ولسان العرب: ٥/٥٤ (فزر)، وتاج العروس: ١٣/٣٢١، والاشتقاق لابن دريد: ١/٢٤٥.

(٢) لسان العرب: ١٢/٦٣٧ (وسم).

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٤.

والحَضَارمة[1]. . . وكان أهلُ يثرب يَلْقَوْنه في الموسم بعكاظ[2]. وذكرت المواردُ التاريخية، أن عمرو بنَ عَبَسَة بن منقذ السُّلَميَّ، وكان صديقاً للرسول في الجاهلية[3]، قال: أَتَيْتُ رسولَ الله، وهو نازلٌ بعكاظ، فقلتُ: يا رسولَ الله، مَن تَبِعَكَ على هذا الأمر؟ قال: تَبِعَني عليه رَجُلانِ حُرٌّ وعَبْدٌ: أبو بكر وبِلَالٌ. . فأسْلَمتُ عند ذلك، ورأيتُني رُبْعَ الإسلام[4].

٢ ـ وكان الرُّهْبان والأَحْبَارُ والحُكَماءُ يَرِدُون سوق عكاظ، يَعِظُون الناسَ، ويَذْكُرون البعثَ والحسابَ، والجنَّة والنارَ. وكان فيهم خُطباءُ وشعراءُ، ذكرت أخبارُ الجاهلية الأخيرة منهم: قُسَّ بنَ ساعِدَة الإيَاديَّ[5]، وأُميَّةَ بن أبي الصَّلْت، ووَرَقَةَ بنَ نوفل، وأَكْثَمَ بنَ صيفيّ. . . وكانت خُطَبُ هؤلاء، وأشعارُهم، غالباً، مطبوعةً بطابع دينيّ، تُزَهِّدُ في الدنيا وشؤونها، وتدعو إلى التأمُّل والنظر في عَظَمةِ الكون، للاستدلال بها على عَظَمةِ الخالق[6].

● وقد ذكر الأصفهانيُّ أن قُسَّ بن ساعدة «كان خطيبَ العرب، وشاعِرها، وحَلِيمَها، وحَكِيمَها، وحَكمَها في عصره. يقال إنه أوَّلُ مَن علا على شَرَفٍ، وخَطبَ عليه، وأوَّلُ من قال في كلامه: أمَّا بعدُ، وأوَّلُ من اتَّكأَ عند خطبته على سيف، أو عَصاً، أدركه رسولُ الله، عليه السلامُ، قبل

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ٤٢٢، وابن سعد ـ الطبقات الكبرى: ١/ ٢١٦ ـ ٢١٧، ومعجم البلدان: ٤/ ١٣٤، وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٥١.

(٢) أخبار مكة: ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٢٦٤.

(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٣١٥، والكامل: ٢/ ٥٩، والطبقات الكبرى: ٤/ ٢١٥، و ٧/ ٤٠٣.

(٥) في لسان العرب أنه أُسْقفُ نجران، وكذلك اشتُهِرَ بين أدباء العرب، وهو غيرُ صحيح.

(٦) د. أحمد أمين ـ فجر الإسلام: ٢٧ ـ ٢٨.

النبوَّة، ورآهُ بعكاظ، فكان يَأْثِرُ عنه كلاماً سمعه منه، وسئل عنه فقال: يُحْشَرُ أُمَّةً وحدهُ»[1].

ويُرْوَىٰ أن وفدَ بكر بن وائل[2]، قَدِمُوا على النبيّ ﷺ، فلما فَرَغَ من حَوائجِهم، «قال: هل فيكم أحدٌ يعرفُ قُسَّ بنَ ساعِدَة؟ قالوا: كلُّنا يعرفُه. قال: فما فعل؟ قالوا: هلك. فقال: كأني به على جَمَلٍ أحمرَ، بعكاظ، قائماً يقول: أيها الناسُ اجْتمِعوا، وإذا اجتمعتُم فاسْتمعوا، وإذا سمعتُم فَعُوا، وإذا وَعَيْتُم فقولوا، وإذا قلتُم فاصْدُقُوا، مَن عاش مات، ومَن ماتَ فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت. . .»[3].

وقُسٌّ هو القائل في هذه الخطبة: وفي هذه آياتٌ مُحْكَمات، مطرٌ ونبات، وآبَاءٌ وأُمَّهات، وذاهبٌ وآت، ونجومٌ تَمُور، وبُحُورٌ لا تَغُور، وسقفٌ مرفوع، ومِهَادٌ موضوع، وليلٌ داج، وسماءٌ ذاتُ أبْراج، مالي أرى الناسَ يموتون ولا يرجعون؟ أَرَضُوا فأقاموا، أم حُبِسُوا فناموا؟. . . يا معشرَ إيَاد! أين ثمود وعاد، وأين الآباءُ والأجداد؟ أين المعروفُ الذي لم يُشْكر، والظلمُ الذي لم يُنكَر؟ أَقْسَم قُسٌّ قَسَماً بالله، أن لِلَّهِ دِيناً، هو أَرْضَىٰ له من دِينكم هذا. . .

فــي الــذاهبيــن الأَوَّليــن	مــن القُــرون لنــا بَصَــائِــرْ
لمّــا رأيــتُ مَــوارِداً للمــوتِ	ليــس لهــا مَصَــادِرْ
ورأيــتُ قــومــي نَحْــوَهــا	تمضـي الأكـابِـرُ والأصـاغِـرْ
لا يــرجــعُ المــاضــي ولا	يبقـى مـن البـاقيـنَ غـابِـرْ

(١) الأغاني: ١٥/ ١٩٢.

(٢) بكر بن وائل: من قبائل ربيعة بن نزار الكبرى، وهم أبناء عمومة إياد بن نزار.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ١٥٢، وإعجاز القرآن للباقلاني: ١٥١.

أيْقَنـــتُ أنـــي لا مَحَـــالـــةَ حيـث صـار القـومُ صـائِـرْ[1]

● وهنالك أكْثَمُ بنُ صَيْفِيّ التميميُّ، وكان من قضاة عكاظ، و «من الخطباء البُلَغاءِ، والحُكّامِ الرؤساء»[2]، وقد أدرك الإسلامَ، وحرَّضَ قومَه على اتِّبَاعِهِ، ومن أقواله: أَقِلُّوا الخِلافَ على أُمَرائكم، واعْلموا أن كثرةَ الصِّيَاحِ من الفَشَل. . . تَثَبَّتُوا، فإن أَحْزَمَ الفريقين الركينُ، ورُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً[3]، وادَّرِعُوا الليلَ، فإنه أخْفَىٰ للوَيْل[4]. ومن أقواله أيضاً: الكرمُ حسنُ الفِطْنَة، واللؤمُ سوءُ الفطنة. تباعدوا في الديار تقاربوا في المودَّة. تَبَاذَلُوا تَحَابُّوا[5]. . . ذَلِّلُوا أخلاقَكم للمَطَالب، وقُودُوها إلى المحَامِد، وعَلِّموها المكارم، ولا تُقِيموا على خُلُقٍ تَذُمُّونَه من غيركم، وصِلُوا مَن رَغِبَ إليكم[6]، وتَحَلَّوْا بالجُود يُكْسِبْكُم المحبَّة، ولا تَقْتَعِدُوا[7] البخلَ فتَتَعجَّلُوا الفقر[8]. . .

● هذا قليلٌ عَرَفناهُ، من كثيرٍ جَهِلناه، مِمَّا كان يجري في سوق عكاظ، من وَعْظٍ، وتبشيرٍ، ودعوةٍ إلى الحِكْمة الحَسَنَةِ، وضَرْبٍ للأَمْثِالِ الطيِّبَةِ.

* * *

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨، و ٢/ ٢١٢، والمسعودي ـ مروج الذهب: ١/ ٨٣، والأغاني: ١٥/ ١٩٣، وصبح الأعشى: ١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، وإعجاز القرآن للباقلاني: ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٨٣.

(٣) رُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً: مَثَلٌ يُضْربُ للرجل يشتد حرصُه على حاجة، ويخرق فيها حتى تذهبَ كلُّها. والرَّيْثُ الإبْطاءُ وهو عكسُ العَجَلةِ.

(٤) العقد الفريد: ١/ ٩٧، وعيون الأخبار: ١/ ١٠٨.

(٥) البيان والتبيين: ٢/ ٥٤، و ٣/ ١٦٠.

(٦) رغب إليه: إبْتَهل وطلب.

(٧) اقْتَعَد: الشيءَ أي اتخذه مَطِيَّةً.

(٨) العقد الفريد: ١/ ٢٢٦.

٣ ـ مُلْتَقَى المُحبيِّن:

١ ـ وكان المحِبُّون ينتظرون موسمَ عكاظ، من عامٍ إلى عام، لعلَّ أحَدَهم يلتقي من يُحِبُّ، أو يَحْظَى بنظرةٍ إليه... وفي أخبار عبد الله بن العَجْلان النَّهْدِيّ[1]، وهو من شعراء الجاهلية المُتَيَّمين، أنه كان مُتزوِّجاً امرأةً جميلةً من قومه، إسمُها هِنْدٌ، وكانت من أَحَبِّ الناس إليه، وأَحْظَاهم عنده، فمكثت معه سبعَ سنين، أو ثمانياً، لم تَلِدْ. وكان أبوهُ سيداً في قَوْمِه، وأكثَرَهم مالاً، فقال له: يا بُنَيَّ! إنه لا وَلَدَ لي غيرك، وأنتَ لاوَلَدَ لك، وهذه المرأةُ عاقِرٌ، فطلِّقْها، وتزوَّجْ غيرَها... فأَبَىٰ عبدُ الله ذلك، وأبْقَى على زوجته. فآلىٰ أبوهُ ألاَّ يُكلِّمه أبداً أو يُطلِّقها، فأقام على أمره معها، لا يُطلِّقُها لما بينهما من الحبِّ والعشق.

ثم عَمَدَ إليه أبوه يوماً، وقد رآهُ شربَ خمراً فَسَكِرَ، فعاوَدَهُ في أمرها، وجَمَع عليه مَشْيخةَ الحيّ وفتيانَهم، فتناولوه بألسنتهم، وعَيَّروهُ بشَغَفِهِ بها، وضَعْفِ حَزْمِهِ، فلم يزالوا به حتى طلَّقها. ولمّا علمت هندٌ بذلك احْتَجَبتْ عنه، ثم رَجَعَتْ إلى أبيها، فخطبها رجُلٌ من بني نُمَيْر، فزوَّجَهُ منها، ولم يزل عبدُ الله عاشقاً لها دَنِفاً، أسِفاً على فراقها، سقيماً، يقولُ الشعر فيها ويبكيها.

ولمّا اشتدَّ ما به من السُّقْم، عَزَمَ على المُضِيِّ إلى بلاد بني نُمَير، يريدُ لقاءَ هند. وكانت بين بني نَهْدٍ قومِهِ، وبني نُمير قوم زوجها، تِرَاتٌ ومُغَاوَراتٌ، فمنعه أبوه، وخوَّفَه الثارات، وقال له: تراها في الشهر الحرام بعُكاظِ أو بمكة! فلما كان الموسم، قَدِمتْ مع قومها للحجّ، فرآها عبدُ الله

---

(١) عبد الله بن العجلان بن عبد الأحبّ: من بني نَهْدٍ من قضاعة، اشتُهر منهم: حنظلة بن نَهْد بن زيد، وهو قاضٍ جاهلي، وكانت له منزلةٌ بعكاظ في المواسم، وبتهامة والحجاز، وكانت منازلُهم اليمنَ والشامَ.

في عكاظ، فنظر إليها ونظرتْ إليه، ثم تَبِعَها إلى مكة ورأى زوجَها يطوف بالكعبة، فرجع إلى منزله، ووقع مريضاً، فضَنِيَ من العشق، وما زال يَلْهجُ باسمها، حتى مات نحو سنة (٥٧٤ م). ومن شعره فيها بعدما رآها ورأته في الموسم قولُه:

ألا أبْلِغا هنداً سلامي وإن نَأَتْ فقلبي بها مُذْ شَطَّتِ الدارُ مُدْنَفُ

ولم أرَ هنداً بعد موقفِ ساعةٍ بأنْعَمَ في أهل الديار تُطوِّفُ

أشارتْ إلينا في حياءٍ، ورَاعَها سراةَ الضحى، مني على الحيِّ موقفُ

وقالت: تَباعَدْ يابْن عمِّي، فإنني مُنِيتُ بذي صَوْلٍ يَغَارُ ويَعْنُفُ[1]

* * *

٢ ـ وفي حديث المحبيِّن بعكاظ، ذكر أهلُ الأخبار أن جارِيَةَ بنَ سَليطٍ التميميّ، وهو من بني يربوع بن حنظلة، وكان من أحْسَنِ الناس وجهاً، وأَمَدِّهم قامَةً، قَدِمَ سوق عكاظ في أحد مواسمه، فأبْصَرتْهُ فتاةٌ من بني خَثْعَم، فراقَها شبابُه، وأعْجَبها منظرُه، فتعلَّقت به، وجعلتْ تتلطَّفُ له، وتَمْحَضُه الوُدَّ، حتى قَرَّبَتْه منها، فأحبَّها الرجلُ، وأَنِسَ بها، وانعقدتْ بينهما أَواصِرُ المحبَّةِ والغرام، فمكَّنَتْهُ البنتُ من نفسها، فوقع عليها!

ولمَّا أَزِفَ موعدُ انتهاء الموسم، تعاهدا وتواعدا على أن يسعى كلٌّ منهما إلى لقاء الآخَر، وقال لها: إن عَلِقْتِ مني، فموعدُنا عكاظٌ في الموسم القادم! ثم عَلِقَتِ الفتاةُ منه، وحَمَلتْ، فعلمتْ أُمُّها بما كان منها في عكاظ، ولامَتْها على فِعْلها، ولمَّا وضَعَتْ حملها، أقبلتْ مع أُمِّها في الموسم، تلتمسُ والدَ طفلِها في عكاظ. . . فلم تلبث حتى رأَته مُقْبِلاً، فأشارت إليه،

---

(١) الأغاني: ٢٢/٢٥١ ـ ٢٥٤، وأبو محمد السرَّاج ـ مصارع العشاق: ٢/٢٧، والأعلام: ٤/١٠٣.

وأنبأتْهُ بخبر حملها وولادتها، فتزوَّجَها، وأَلْحَقَ الولَدَ بنَسبه. ونظرت أُمُّها إلى جارية، فرأتْ حُسْنَهُ وجماله، فَعَذَرتْ ابنتَها على تعلُّقها به[1]. وكان من سُنَن الزواج عند عرب الجاهلية، أن المرأة تُخْطَبُ فتُزوَّج، فإن كان لها خليلٌ تُحبُّه، ثم ولدت منه، فإنه يتزوَّجُها، ويُلحق الولدَ بنَسَبِهِ[2].

(٤) ـ مِنْبَرُ التفاخُر والمنافرات:

وكانت بعكاظ في الجاهلية مَنَابِرُ يقومُ عليها الخطيبُ بخطبته، يذكُرُ فعاله، ويعُدُّ مآثِرَهُ، وأيامَ قومه من عامٍ إلى عام[3]... وكانت قبائلُ العرب تجتمعُ بعكاظ كلَّ سنة، ومع كل قبيلةٍ شاعِرُها، فيَتَفاخَرُون فيها، ويتناشَدُون الشعر[4]. وكان تفاخُرهم بالأحْسَابِ وعِزَّةِ النَّفَر يُسمَّى مُنافَرةً، يحكم فيها بينهم أحَدُ قضاة العربِ بعكاظ، فيُنفِّرُ أحدَهم على الآخَر، أي يقضي له بالغَلَبة، وَعُلُوِّ النَّسَبِ، وشَرفِ الحسب، وربما نافَرَ بينهم سادةُ القوم وأشرافُهم.

١ ـ إزْلأَمَّ المُعَيْدِيُّ ونَفَر:

هذا مَثَلٌ يُضربُ في فَوْزِ أحَدِ الخَصميْن على الآخَر، وأصْلُه أن مَيَّادَ بنَ حُنّ بن ربيعة، من بني عُذْرة، من قضاعة، نافَرَ رجُلاً من اليمن إلى حَكَمٍ بعكاظ، فأقبل مَيَّادٌ على فَرَسِهِ، وعليه سلاحُه، فقال: أنا مَيَّادُ بنُ حُنّ، أنا ابنُ حَبَّاسِ الظُّعُن... وأقبل اليمانيُّ، عليه حُلَّةٌ يمانيَّةٌ، فقال مَيَّاد: أحكُمْ بيننا أيها الحكَمُ! فقال الحكَمُ: إزْلأَمَّ المُعَيْديُّ ونَفَر، فأرسلها مَثَلاً، وقضى

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ١٣١، والمفصَّل: ٨/ ٣٦٧.

(٢) المحبَّر: ٣٤٠.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

لميَّادٍ على صاحبه[1]. . . ذلك أن حُنَّ بنَ ربيعة هو أخو رِزَاح بن ربيعة بن حرام لأُمِّهِ وأبيه، ورِزَاحُ هذا هو أخو قُصيّ بنِ كلابٍ لأُمِّه[2]، وهو الذي نَصرهُ في مكة على بني خزاعة. ويقال للرجُل إذا انتصب وارتفع قد ازْلأَمَّ[3]. وحَبَّاسُ الظُّعُن، أي الذي يمنعُ حَرِيمَهُ، ويحمي نساءَهُ. والمُعَيْدِيُّ: نُسِبَ إلى مَعَدِّ بن عدنان.

فهذه مُنَافَرةٌ جرت بعُكاظ، حكم فيها قاضٍ بعكاظ، وأرسل مَثَلاً صَدَر عن عكاظ، ويُمكن أن نستخلصَ منها أن سوق عكاظ كانت تقوم في عصر قصيّ بن كلاب، في القرن الخامس للميلاد.

٢ ـ مُنَافَرةٌ في خطبة حسناء:

اجتمع بموسم عكاظ يزيدُ بن عبد المدان[4]، من بني الحارث بن كعب، من مَذْحِج، وعامِرُ بنُ الطُّفَيْل[5]، من بني هوازن، وحَضَر الموسمَ يومئذٍ أُميَّةُ بنُ حُرْثَانَ بنِ الأسْكَر[6]، من بني عبد مناة بن كنانة، ومعه إبْنَةٌ له من أجْملِ أهل زمانها. فخطَبَها إليه يزيد وعامِرٌ، فقالت أُمُّها: مَن هذانِ

---

(١) مَجْمَعُ الأمثال: ١/ ٤٥٠.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٣) لسان العرب: ١٢/ ٢٧٢.

(٤) **يزيد بن عبد المُدان**: سيِّد، شاعِرٌ، من أشراف اليمنِ وشُجعانِها في الجاهلية، وكان مَلِكاً في قومه بنجران.

(٥) **عامر بن الطفيل**: أبو عليّ، من بني عامر بن صعصعة، فارسُ قومه، وأحَدُ فُتَّاك العرب، وشعرائهم، وساداتهم في الجاهلية، وُلد ونشأ بنجد، له أخبار في الكرم والمروءة كثيرةٌ.

(٦) **أمية بن حُرْثان بن الأسكر**: من بني مُدْلج، من عبد مناة بن كنانة. شاعر فارس من سادات قومه. أدرك الجاهلية والإسلام، مات في خلافة عمر بن الخطاب نحو (٢٠ هـ = ٦٤١ م).

طلب منه أن لا يُسوِّي بين بني مَذْحج قومِه، وبني هوازن قوم عامر، وسأله: هلَ يَصِحُّ أن يُقْرَنَ النَبْعُ، وهو شجرٌ تُتّخذُ منه القسِيُّ والسهام، بالعوسج الذي ينبت على السِياج؟

فزوَّجَ أُميَّةُ حينئذٍ يزيدَ بنَ عبد المدان ابنتَه، وقد نَفَّرَهُ على عامر بن الطُفْيل[1]، أي قضَىٰ له بأنه أَعَزُّ نفراً من عامر.

* * *

٣ ـ حُكمُ الأَقرعِ بن حابس في مُنَافَرةٍ:

وهو قاضٍ من بني تميم، واسْمُهُ فِراس، وإنما لُقِّب بالأقْرعِ لقرع برأسه، وكان سَنُوطَ اللحية، أعرجَ الرِّجْلِ اليُسْرىٰ[2]. . . يقول الجاحظ: «ومن العُرْجَانِ الأشراف الأقْرعُ بنُ حابس، وكان أحَدَ حُكَّام العرب بعكاظ، وقد تحاكمت إليه العربُ في التُّفُورات[3]. . . وزعم أبو عبيدة أن أوَّلَ حَكَمٍ في الجاهلية جارَ في الحُكْم، الأقرعُ بنُ حابس، وقال: لأنه نَفَّر جريرَ بنَ عبدِ الله البَجَليَّ، على خالد بن أرطاة الكلبي، حين وجده أقربَ إلى مُضَر. فلعلَّه إذا كان أقربَ إلى مُضَر، وإلى نزار، أن يكون أحقَّ بالنُّفُورَةِ لفَضْلِهِ في مُضَر، أو في نزار، ولعلَّه رأى مع ذلك جريراً في نفسه أكثر من هذا الرجُل الذي نافَرَهُ، وإنما ينبغي أن يحتجَّ بهذا رجُلٌ من قضاعة، فأمَّا أبو عبيدة، فما يدعوه إلى هذا؟ وليس به فقرٌ إلى هذه الحجَّة كفَقْرِ القُضَاعيِّ إليها. . .»[4].

---

(١) الأغاني: ١٢/٨ ـ ٩، و ٢١/٢٢.

(٢) القَرَعُ: سقوط الشعر. السَّنُوط: الخفيفُ العارضَيْن، أو لا لحية له.

(٣) الجاحظ ـ البُرصان والعُرجَان والعُمْيان: ١١٩. مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٧ م.

(٤) المرجع نفسه: ١٢٠ ـ ١٢١.

وفَكِّ أسْرِهِ. فإن كان يجهلُ موضعَه، سأل عنه قبائلَ العرب في عكاظ، أو كان عنده أَسِيرٌ يريدُ إطلاقَه، وأَخْذَ فِدْيته، واعَدَ قومَه لمُفَاداتِهِ بعُكاظ. . .

وكانوا يقولون فيمن يُغَالَى في فِدْيته: أَغْلَى عُكاظيٍّ فدَاءً! ومن ذلك أن بِسْطامَ بنَ قيس، فارسَ بني شيبان، فَدى نفسَه من عُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ، فارسِ بني يربوع، بفِدْيَةٍ في سوق عكاظ، قدَّرها المُقِلُّ بمئتي بَعيرٍ، والمُكْثِرُ بأربع مئة بعير[1]، فقالوا يومئذٍ: لم يكن عربيٌّ عُكاظيٌّ أغْلَى فداءً منه[2]. والقولُ نفسُه قيل في حاجِبِ بن زُرَارَة. ولمَّا أَسَرَ الربيعُ بنُ عُتَيْبة بن الحارث اليربوعيَّ، ذُؤَابَ بنَ رُبَيِّعَة، من بني أسد بن خُزَيمة، تَواعَدا موسمَ عكاظ في الشهر الحرام للمُفَادَاةِ، واتفقا أن يأتيَ أبو ذُؤابٍ بالإبِلِ، والربيعُ بذُؤَاب. . . فلما كان الموسم، أقْبَل أبو ذؤاب بالإبِل إلى سوق عكاظ، وشُغِل الربيعُ عنه فلم يأتِ بالأسير، فارْتابَ أبو ذُؤابٍ، وظنَّ أن القوم قتلوا إبنَه، فقال:

إنْ يَقتلوك فقد هَتَكْتَ بُيوتَهم   بعُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ بنِ شهابِ

أي سبق لك أن فضحتَ بيوتَهم، بقتلِكَ عُتَيْبَةَ بنَ الحارث، وهو أبو ربيع. . . وكان فارسَ بني يربوع في الجاهلية، ومن أبطال العرب المغَاوِير، وكانوا يُسَمُّونَه: سُمَّ الفرسان، وصَيَّادَ الفوارس، ويضرِبون به المَثَلَ في الفروسيَّة[3]. ويُقال إن ذُؤَاباً قتله في معركة كبيرة، وسط الليل، فَزَجَّهُ بالنَّيْزَكِ[4]، وقد هاب مُخَالطتَه، فلم يُعْرَفْ وقتئذٍ أنه قاتلُه. فلمّا بلغَ بني عُتَيْبَة ما قاله أبو ذؤاب، علموا أن أسيرهم هو قاتلُ أبيهم، فقتلوه به[5].

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ١٩.
(٢) العقد الفريد: ٥/ ١٩٨.
(٣) الأعلام: ٤/ ٢٠١.
(٤) البيان والتبيين: ٣/ ١٦، ١٨ ـ ١٩، زَجَّهُ: رماهُ وطعنه. و النَّيْزَكُ: رمحٌ قصير.
(٥) العقد الفريد: ٥/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

وهنالك طرائفُ كثيرةٌ في أخبار المُفَاداة بعكاظ، وصُوَرٌ مُشْرِقةٌ من كرم أخلاق العرب في الجاهلية، وقد اخترنا شيئاً من ذلك نعرضُه فيما يلي . . .

١ ـ فداءُ أسيرٍ بتَيْسٍ أسودَ في عكاظ:

كانت قبيلةُ الأَوْسِ حليفةً لقبيلة مُزَيْنة في الجاهلية[١]، فمرَّ رجلٌ يقالُ له: جُؤَيٌّ من مُزَيْنة، على الأَوْسِ والخزرجِ وهم يَقْتَتِلون، فدَخَل في حُلَفائه من الأَوس، يُقاتل إلى جانبهم، فأُصِيبَ، فوقع أرضاً، فمرَّ به ثابتُ بنُ المنذر، أبوحسان بن ثابت، من الخزرج، فقال له: يا أخا مُزَيْنة، ما طَرَحَكَ هذا المطرح؟ فواللّهِ إنك لمن قومٍ لا يحمونك! فقال جُؤَيّ، وهو يجودُ بنفسه: أُعْطي الله عهداً، لَيُقْتَلَنَّ بي منكم خمسون، ليس فيهم أعْوَرُ ولا أعْرَجُ . . . فبَلَغ قولُه بلادَ مُزَيْنة، فثاروا يريدون الخَزْرَجَ، طالبين بدم جُؤَيّ، ورئيسُهم مُقَرِّنُ بنُ عائذ، (أبو النعمانِ بن مُقَرِّن فاتحِ نهاوند)، فالْتَقَوهم بموضع بُعَاث في يثرب، فاقتتلوا، فقُتِل من الخزرج عِدَّةُ رجال، وأُسِرَ ثابتُ بنُ المنذر، فأقسم مُقَرِّنُ بنُ عائذٍ لا يأخذ فِداءَهُ إلا تَيْساً أَجَمَّ أسودَ في عكاظ . . . فغضب الخزرجُ لذلك، وقالوا: لا نفعلُ أبداً! وعَرَضوا فداءً كبيراً مكانَه، فلم يقبل مُقرِّن وقال: لا آخُذُ مكانَه إلا تَيْساً . . . فلما رأوا أنه لا بُدَّ من ذلك، جاؤوا بتَيْسٍ أسودَ، فأخذه منهم مُقْرِّنُ بسوق عكاظ، وذَبَحه هنالك، وأطعم الناسَ لحمَهُ[٢].

وفي ذلك قال كعبُ بنُ زهير المُزَنيُّ يَذكرُ يومَ بُعَاث، ويصف أَسْرَهُ

---

(١) مُزَيْنة: أمٌّ جاهلية من بني كلب بن وَبَرة، نسبت إليها ذُرِّيَّةُ ولديها عثمان وأوس ابنيْ عمرو بن أدّ بن طابخة، من مُضَر. ومنهم زهير بن أبي سلمى. **الأَوْس**: جدُّ قبيلة الأوس إحدى قبيلتيْ الأنصار، والأُخرى: **الخزرجُ**، وهما من الأَزْد، من عرب اليمن.

(٢) أبو سعيد السكري ـ شرح ديوان كعب بن زهير: ٢٠٩ ـ ٢١٠.

ينظرُ إليكِ رجلٌ، حتى أَرُدَّكِ إلى أبيك! وضَمَّها إلى أهله، ووقع بينه وبين بني عَبْسٍ شَرٌّ بسببها. ولمَّا دخلَ الشهرُ الحرامُ، أَحْسَنَ كسْوَتَها، وأَخْدَمَها[1]، وأكرمها، ثم حَمَلها إلى سوق عكاظ، فلما انتهى إلى منازل بني شيبان، سألها: هل تعرفين منازِلَ قومك، وقُبَّةَ أبيكِ؟ فقالت: نعم، هذه منازلُ قومي، وتلك قُبَّةُ أبي! فقال: فانطلقي إلى أَبيكِ يَرْحَمُكِ اللَّهُ!... فانطلقت، فخبَّرت أباها بصَنيعِ مروان، فكان لمروان بذلك يَدٌ عند عَوْفٍ لم يَنْسَها له[2].

وكان مروانُ قد وَتَرَ عمرو بنَ هند ملكَ الحيرة (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م)، فجعل هذا يطلبه، وآلى على نفسه ألاَّ يُؤَمِّنَهُ حتى يأتي إليه، ويضعَ يدَهُ في يَدِهِ. ثم إن مروان وقع في أَسْرِ رجُلٍ، من بني بكر بن وائل، لم يكن له من المَنَعَةِ ما يستطيع به حمايتَه من عمروٍ إن عرفَ بمكانِهِ، وأرسل في طلبه. ثم سمع أمَّ الرجُل تقول لابْنها: كأنك أَسَرْتَ مروانَ القَرَظِ! فقال لها مروان: وما تأملين منه؟ قالت: مئة بعير. قال: هي لك إن أَدَّيْتُمُونِي إلى عوف الشيباني. قالت: ومن لي بالوفاء؟ فأخذ عُوداً من الأرض وقدَّمه إليها رهناً بالوفاء. فحمله إبنُها حتى أتى به قُبَّةَ عوفٍ، فلاذَ بها، وصار لزاماً على عوفٍ حمايتُه. ولمّا بلغ عَمْراً مكانُه، بعث يطلبه، فأبَىٰ عوفٌ أن يُسَلِّمَه إليه، إلاَّ أن يُؤَمِّنَه... فأمَّنَهُ، فسار به عوفٌ إلى الملك، وجعل يَدَهُ بين يَدَيْهما، وأصلح بينهما، فكان هذا وفاءً من عوف لمروان.[3]

* * *

---

(١) أَخْدَمَها: جعل لها خَدَماً يخدمونها.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ٤٣٦.

(٣) المحبَّر: ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

يزيد ما طلب، وقال له: إنك لقصيرُ الهِمَّة، ولقد كنتُ أظنُّ أن يأتي ثمنُه على جُلِّ أموالنا[1]. . .

فانظرْ إلى هذه الأَرْيَحيَّة الرائعة! سيِّدٌ شَهْمٌ، يَفُكُّ أسيراً استغاث به أخوه، وهو لا يعرفه، ولا هو من قومه أو من ذوي قُرْبَاه، ولا يعلم من أمره شيئاً، ويدفع في فَكِّهِ مئةَ ناقةٍ مع رُعَاتِها، وكان مُستعدّاً، لو طُلِبَ إليه، أن يدفع جُلَّ ماله في الفداء. . . فأيُّ خُلُقٍ كريم هذا الذي كان عليه أَجْدَادُنا!

* * *

٦ ـ أخبَارُ المُعَمَّرين:

وفي سوق عكاظ، يتناقل أهلُها أخبارَ مَن عُمِّر طويلاً من العرب. ولعلَّ أكثرَ هذه الأخبارِ طرافةً، ما ذكرتْهُ مواردُ الأخبار عمَّا بلغَهُ المُسْتَوغِرُ التميميُّ من طول العمر. وهو عمرو بنُ ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، بينه وبين مُضَر بن نزار تسعة آباء فقط[2]. نُقِل عن أبي عمرو بن العلاء[3]، أن المستوغرَ عاش ثلاثَ مئةٍ وعشرين سنةً، ومات في صدر الإسلام، وأنه كان فارساً شاعراً، وهو القائلُ:

ولقد سئمتُ من الحياة وطُولِها   وَعَمِرْتُ من عَدَد السنين مِئينا

---

(١) الأغاني: ١٢/ ١٤ ـ ١٦.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٢٢١.

(٣) أبو عمرو بن العَلَاء: (٧٠ ـ ١٥٤ هـ/ ٦٩٠ ـ ٧٧١ م). هو زَبَّانُ بنُ عَمَّار التميميّ البصري. من أئمّة اللغة والأدب، وأحَدُ القُرَّاءِ السبعة. . . وُلد بمكّة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة. كان من أعْلَمِ الناس بالأدب والعربية والقرآن والشِّعْر، وكانت عامّةُ أخباره عن أعراب أدركوا عصر الجاهلية.

مئــةً حَــدَّثْهــا بعــدَهــا مئتــانِ لــي   وازْدَدْتُ مــن بَعْـد الشهـور سِنينا[1]

ومن أخباره أنه مرَّ يوماً بسوق عكاظ، يقودُ حفيدَهُ، وقد صار هَرِماً خَرِفاً، فكان يَزْجُرهُ، فقام إليه رجلٌ من السوق، وقال له: أَحْسِنْ إليه يا هذا، فطالما أَحْسَنَ إليك! فقال المستوغِرُ: أوَتدري من هو؟ قال: نعم، هو أبوك أو جَدُّك. قال: هو واللَّهِ ابْنُ إبْني! قال الرجلُ: لم أَرَ في الكذب كاليوم، ولا مُسْتَوْغِرَ بنَ ربيعة! قال: فأنا المُسْتوغِرُ[2]. . . ومن الواضح أن هذا الخبر يرتفع بزمن عكاظ إلى القرن الخامس للميلاد.

* * *

(٧) ـ مُقَارَعَةٌ عن حسناء:

وما نراهُ اليومَ، في المجامِع العامَّة، من مُنَافسةٍ بين الفتيانِ على الحِسَانِ من الفَتَيات، كان مثلُه في سوق عكاظ. . . ومن ذلك، ذكر أهلُ الأخبار، أن معاوية بن عمرو، من بني الشَّريد السُّلَميّ، وهو أخو الخنساء الشاعرة، وافَىٰ سوق عكاظ في أحَد مواسمه، وبَيْنا هو في بعض نواحي السوق، لقيَ أسماءَ المُرِّيَّة، وكانت فاتنةً جميلةً، فدعاها إلى نفسِه، زاعماً أنها كانت بَغِيّاً، قبل أن تكون من بني مُرَّة بن عوف بن ذبيان. فامتنعتْ وتأبَّتْ عليه، وقالت: أما علمتَ أني عند سيِّد العربِ هاشمِ بن حَرْمَلة المُرِّيّ؟ فأغْضَبتْه، فقال: أما واللَّهِ لأُقارِعَنَّهُ عنكِ[3]، قالت: ذاك شأنك. . . ثم أتَتْ هاشماً، فأخبرتْه بما كان من معاوية، فقال: لعمري لا يَريمُ أَبْياتَنا

---

(١) ابن قُتيبة ـ المعارف: ٧٨.
(٢) ابن قُتيبة ـ الشعر والشعراء: ٣٨٤ ـ ٣٨٥، والسيرة لابن هشام: ١/ ٨٨.
(٣) المُقارعَة: المُضَارَبَةُ بالرماح أو بالسيوف أو بغيرها.

حتى ننظرَ ما يكون من جُهده! ثم لقِيَهُ، فقال له: واللَّهِ لَوَدِدْتُ أني قد سمعتُ بظَعائِنَ يَنْدُبْنَكَ[1]. فقال هاشم: واللَّهِ لوَدِدْتُ أني قد نَزَعتُ لك هذه الجُمَّة[2].

ولمَّا تراجع الناسُ عن عكاظ، وانقضتِ الأشهُرُ الحرُم، خرج معاوية بن عمرو غازياً، يريدُ بني مُرَّة، في فرسان من بني سُلَيم من قيس، فنَهاهُ أخوهُ صَخْرٌ، لكنه أصَرَّ على الغَزْو، فكانت بين الفريقين معارِكُ في أسامٍ مُتفرِّقةٍ، منها يومُ حَوْزَةَ الأول، ويومُ حوزة الثاني، وأيامٌ أُخَر ذكرتْها موارِدُ أهل الأخبار، وكان فيها مقتلُ معاوية، قتله دُرَيْدُ بنُ حرملة، ثم مقتل دُرَيْد، قتله صخرٌ ثأراً بأخيه معاوية، وبعدئذٍ مقتلُ هاشم، وكان قد خرج مُنتجعاً في بعض مواسم الربيع، فكَمَنَ له قيسُ بن الأسوار الجُشَميُّ، ثم قتله[3].

* * *

⑧ ـ المُعَاظَمَةُ في الأَحْزان:

المُعَاظَمةُ في الحُزْنِ والمُصَابِ زَعْمُ المُعَاظِم أنه أكبرُ حُزناً، وأشَدُّ مُصيبةً، لأن مَن فَقَدهُ أعظمُ حُرْمةً، وأكثر مجداً وشرفاً، فهو نوع من التفاخُرِ بما كان للمَيْتِ من أَمْجادٍ.

---

(١) **الظعائن**: نساءُ الرجُلِ عامةً.

(٢) **الجُمَّةَ**: مجتمعُ شعر الرأس.

(٣) الأغاني: ١٥/ ٦٩ ـ ٧٠، والعقد الفريد: ٥/ ١٦٣ ـ ١٦٤، ود. بنت الشاطىء ـ الخنساء: ٣١ ـ ٣٥، طبعة دار المعارف بمصر.

ومن ذلك، لمّا كانت وقعةُ بَدْرٍ الكبرى، قُتِل فيها عُتْبةُ بنُ ربيعة[١]، وأخوهُ شَيْبَةُ[٢]، وابنُه الوليد بن عتبة. فأقبلتْ هند بنت عتبة[٣]، إلى موسم عكاظ تَرْثيهم... ثم بلغَها مُعَاظمةُ الخنساءِ العربَ في مُصيبتها، بأبيها عمرو بنِ الحارثِ بن الشريد، وأخَوَيْها معاوية وصخرٍ، وأنها جعلت تشهدُ الموسمَ كلما انعقد، وتبكيهم، وتُسَوِّمُ هَوْدَجَها برايةٍ يُعرفُ بها، وتقول: أنا أعظمُ العرب مُصيبةً! وقيل لهندٍ: إن العرب قد عرفتْ لها بعضَ ذلك، واعترفتْ به. فقالت: أنا أعظمُ من الخنساءِ مُصيبةً! ثم أَمَرتْ بهَوْدَجِها فسُوِّمَ برايةٍ، وقَصَدتْ عكاظاً فشهدَتِ الموسمَ، وقالت: اقْرنوا جَمَلي بجَمَلِ الخنساء. ففعلوا، فلما دَنَتْ منها، قالت الخنساءُ: مَن أنتِ يا أُخَيَّة؟ قالت: أنا هند بنتُ عُتبة، أعظمُ العرب مصيبةً، وقد بلغني أنك تُعاظِمين العربَ بمُصِيبتك، فبِمَ تُعاظِمينهم؟ فقالت الخنساءُ: بأبي عمرو بن الحارث، وأَخَويَّ صخرٍ ومعاوية، وبِمَ تُعاظِمينَهم أنتِ؟ فقالت: بأبي عتبة بن ربيعة، وعمِّي شيبة، وأخي الوليد. قالتِ الخنساءُ: أَوَ سواءٌ همُ عندك؟ وأنْشَأتْ

---

(١) عُتبة بن ربيعة: من بني عبد شمس بن عبد مناف. كبير قريش في زمنه، وأحَدُ ساداتها في الجاهلية. كان موصوفاً بالرأي والحِلم والفضل، خطيباً، نافِذَ القول. شهد بَدْراً مع المشركين، فقُتِل فيها.

(٢) شيبة بن ربيعة: من زعماء قريش في الجاهلية. كان يَصدُّ الناس أن يتَّبِعوا النبيّ عليه السلام في المواسم، قُتِل في وقعة بدر.

(٣) هند بنت عتبة: أمُّ معاوية بن أبي سفيان. كانت فصيحةً، جريئةً، صاحبةَ رأي وحَزْمٍ، ونَفْسٍ أَبِيَّةٍ، وأَنَفَةٍ. تقول الشعر الجيّدَ، وأكثَرُهُ في رثاءِ أبيها وعمها وأخيها، قبل إسلامها. ولمّا أسلمت مع بعض النِسْوة، أخذ النبيُّ البيعةَ عليهنَّ، بألاّ يَسْرِقْن أو يزنين، فقالت: وهل تزني الحُرَّةُ أو تسرقُ يا رسول الله؟ قال: ولا يَقتُلْنَ أولادَهنَّ، فقالت: وهل تركتَ لنا ولداً إلا قتلتَه يوم بدر؟. ثم شهدت معركة اليرموك بعد ذلك، وحرَّضَتْ على قتال الروم. توفيت سنة (١٤ هـ = ٦٣٥ م).

مُصِيبةً، فهي أَعْظمُهم حزناً، ومن حَقِّها مُعَاظَمتهم في هذا، لأنها عاشت بعد صخرٍ نحواً من ثلاثين سنةً، وهي تبكيبه وترثيه.

* * *

(٩) ـ عكاظ مُوحِيَةُ العجائب:

ويبدو أن بلوغَ عكاظٍ، وشُهودَ مَواسِمها، وشهرتها في تميُّزِها، كانت تبعثُ أحياناً على اختراع خَوارِقَ يُزْعَمُ أنها وقعت فيها، فيُصدِّق بها بعضُهم، ويتناقلها. . .

١ ـ من ذلك ما ذكره القزوينيُّ حيث قال: «حكى رجلٌ من ثقيفٍ، أنه رأى بسوق عكاظ، رجُلاً قصيرَ القامة، على بعيرٍ في حجم شاةٍ، وهو يقول: أيها الناسُ! هل فيكم من يسوق لنا تِسْعاً وتسعين ناقةً، ينطلق بها إلى أرض وَبَار[١]، فيُؤَدّيها إلى جِمَالِ صُبَار[٢]؟ . . . فاجتمع الناسُ عليه، يتعجبون منه ومن كلامه وبعيره، فلما رأى ذلك عَمَدَ إلى بعيره، وارتفع به في الهواء، ونحن ننظر إليه، حتى غاب عن أَعْيُننا. . .»[٣].

٢ ـ ومنه أيضاً ما ذكره ياقوتُ، بروايةٍ عن أعشى همدان قال فيها: «خرج مالكُ بنُ حَريم الهمْدانيُّ في الجاهلية، ومعه نَفَرٌ من قومه، يريدون عكاظ، فاصطادوا ظَبْياً في طريقهم، وكان قد أصابهم عطشٌ كثير، فانتهوا إلى مكان يقال له: أُجَيْرة، فجعلوا يفصدون دَمَ الظبي، ويشربونه من

---

(١) **وَبَار**: أرضٌ واسعة في جنوب بلاد العرب، بين شِحْرَ مَهَرة وتخوم صنعاء.

(٢) **جِمَال**: مفردها حَمْل وهو ثمر الشجرة. **والصُّبَار**: حَمْل شجرةٍ شديدة الحموضة، قيل هو التمر الهنديُّ الحامض.

(٣) **القزويني** ـ آثار البلاد وأخبار العباد: ٥٦.

العطش، حتى أُنْفِدَ دَمُهُ، فذبحوه، ثم تفرَّقوا في طلب الحَطَب. ونام مالِكٌ في الخِبَاء، فأثار أصحابُه شُجَاعا[1]، فانْسَابَ حتى دخل خِباءَ مالكٍ. فأقبلوا فقالوا: يا مالكُ، عندك الشجاعُ فاقتلْهُ!. فاسْتَيقظَ مالك، فقال: أَقْسَمْتُ عليكم إلاَّ كفَفْتُم عنه! فكَفُّوا، فانْسابَ الشجاعُ وذهب، فأنشأ مالك يقول:

وأوْصانـي الحـريـمُ بعِـزِّ جـاري ... ومَنْعَتِــهِ إذا امْتَنَــع المنـــاعُ
فـديً لكــمُ أبــي، عنــه تَنَحَّــوا ... لأمــرٍ مــا اسْتَجــارَ بــيَ الشجــاعُ
ولا تَتَحمَّلُـــوا دَمَ مُسْتَجيـــرٍ ... تَضَمَّنَـــهُ أُجَيْـــرَةُ فـــالتِّـــلاعُ
فـــإنَّ لمـــا تَـــرَوْن خَفِـــيَّ أمْـــرٍ ... لـــه، مـــن دون أمْـــرِكـــمُ، قنـــاعُ

ثم ارتحلوا، وقد أجْهَدَهمُ العطشُ، فإذا هاتفٌ[2]، يهتفُ بهم قائلاً:

يــا أيهــا القــومُ لا مــاءٌ أمــامَكُــمُ ... حتى تَسُومُوا المطايا يومَها التَّعَبَا
ثم اعْدِلُوا شامَةً، فالماءُ عن كثَبٍ ... عَيْـنٌ رواءٌ، ومـاءٌ يُـذهِـبُ اللغَبَـا
حتــى إذا مــا أصَبْتُــم منــه رِيَّكُــمُ ... فاسْقُوا المطايا، ومنه فامْلَؤوا القِرَبَا

قال: فعَدَلُوا «شامةً» فإذا هم بعينٍ خرَّارةٍ، فشربوا، وسَقَوْا إبِلَهم، وحملوا منه في قِرَبِهم، ثم أتَوْا عكاظاً، فقضَوْا أَرَبَهم، ورجعوا، فانتهوا إلى موضع العَيْن، فلم يروا شيئاً[3]، فَتوهَّموا أن الذي فعل ذلك لهم هو الشُّجَاع، شكراً على عدم قتله.

* * *

---

(١) الشُّجَاعُ: ضَربٌ من الحيَّات، وقيل: بل هو الحَيَّةُ الذَّكَرُ.
(٢) الهاتفُ: هو الذي تسمعه من غير أن تراه.
(٣) معجم البلدان: ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦ (أُجَيْرَة).

(١٠) ـ سَرْحَةُ التَّهاجي بعُكاظ:

السَّرْحُ شجرٌ كِبَارٌ، عِظَامٌ، لا تُرْعَى، وإنما يُستظَلُّ بها. وكانت في عكاظ سَرْحَةٌ، يجتمع الناسُ إليها، ويضربون قبابَ الأَدَم، وإلى ذلك أشار الشاعرُ الجاهليُّ، راشدُ بنُ شهاب اليَشْكُرِيُّ، من بني بكر بن وائل بقوله:

بِـذَمٍّ يُغَشّـي المـرءَ خِـزْيـاً ورَهْطَـهُ   لدى السَّرْحَةِ العَشَّاءِ، في ظِلِّها الأَدَمْ[١]

وهذه السَّرْحةُ العَشَّاءُ، أي الخفيفةُ، كانت للشاعر الأَغْلب بن جُشَم العجليِّ[٢]، من بكر بن وائل، فكان يصعد عليها في المواسم، ثم يرتجزُ، ويُهاجي الشعراء، ويقول:

قـد عَـرَفتْنـي سَـرْحَتـي فـأَطَّـتِ   وقـد شَمِطْـتُ بعـدَهـا واشْمَطَّـتِ[٣]

فاعْترضَهُ يوماً هُرَيْمُ بنُ جَوَّاس التميميُّ[٤]، فقال له:

قُبِّحـتَ مـن سـالفـةٍ ومـن قَفَـا   عبـدٌ إذا مـا رَسَـبَ القـومُ طَفَـا
فمـا صفـا عَـدُوُّكـمُ، ولا صفـا   كما شِرارُ البقل أطرافُ السَّفَا[٥]

---

(١) المفضَّل الضبِّي ـ المُفَضليَّات: ٣٠٩.

(٢) الأغلب بن جُشَم: راجز مشهور، قيل: إنه أوَّلُ من رجز الأراجيزَ الطوال، عُمِّر في الجاهلية طويلاً، وأدرك الإسلام، فأسلم وحَسُنَ إسلامُه، وشهد معارك الفُتوح.

(٣) أَطَّت: من الأطيط وهو صوتُ الجوف من الخَواء، وحنينُ الجِذْع. شَمِطَ واشْمَطَّ: خالطَ بياضَ رأسه سواد، فهو أشمط. وشَمَطتِ الشجرةُ: انتثر ورقها.

(٤) هُرَيم بن جَوَّاس: راجز من بني مُقاعس، من سعد بن زيد مناة بن تميم، كان يُهاجي الأغلبَ العجليَّ بعكاظ.

(٥) السَّفَا: ما تَذْروهُ الرياح.

فقال له الأغْلبُ: ويْلَكَ مَن أنتَ؟ قال:

أنــا غــلامٌ مــن بنــي مُقــاعِــسِ　　　الضَّــارِبيــنَ فَلَــكَ الفَــوارِسِ[١]

* * *

ويبدو أنه كانت هنالك سَرْحَةٌ أُخرى بعُكاظ، كان يأوي إليها زُهْرةُ بن سِرْحَان، وكان يَصْطنعُ عندها، في كلامه، صوتاً كصوت الأَطيط يَصْدُرُ عن الجَوْفِ الخَوِيِّ، فسُمِّيَ الراهبَ. وقد ذكر ابنُ منظور أنه كان يأتي سوق عكاظ، فيقومُ إلى هذه السَّرْحَة، فيَرْجِزُ عندها ببني سُلَيْم قائماً، فلا يزال ذلك دَأْبَهُ، حتى يصدرَ الناسُ عن عكاظ. وكان يقول:

قــد عَــرَفَتْنــي سَــرْحَتــي فــأَطَّــتِ　　　وقــد وَنَيْــتُ بعــدَهــا فــاشْمَطَّــتِ[٢]

* * *

(١١)ـ زَبيبُ عكاظ مكافأة:

بعد الذي أصاب المسلمين في يوم أُحُدٍ، خرج رسولُ الله، عليه السلام، في اليوم التالي، حتى انتهى بالمسلمين إلى حمراء الأسد، على سبعة أو ثمانية أميال من المدينة، يريدُ أن يظنَّ به المشركون قوَّةً، فلا يَكُرُّون عليهم.

ويومئذ مرَّ بأبي سفيان، وهو في طريقه إلى مكة، رَكْبٌ من بني عبد القيس يريدون المدينة، فقال لهم: هل أنتم مُبلِّغُون عني محمداً رسالةً،

---

(١) الإصابة: ٣/ ٥٨٤/ت ٩٠٤٩، والأغاني: ٢١/ ٣١ ـ ٣٢، والشعر والشعراء: ٦١٣.
(٢) لسان العرب: ٧/ ٢٥٧ (أطط).

وأُحَمِّلُ لكم إبِلَكم هذه غداً زَبِيباً بعكاظ؟ قالوا: نعم! قال: فإذا جِئْتُموه، فأخْبروهُ أنَّا قد أَجْمَعْنا المسيرَ إليه وإلى أصحابه، لِنَسْتأصِلَ بقيَّتَهم... فمرَّ الركْبُ برسول الله وهو في حمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: حَسْبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيل! ثم انصرف بعد ثلاثة أيام إلى المدينة، لم يَلْقَ كَيْداً[1].

(١٢) ـ العَرَّافون:

وقد كانت مواسمُ الأسواق، كسوق عكاظ، مَوْضعاً يأوي إليه العرَّافون، فكان الناسُ يأتونهم بصِبْيَانهم، ويَعْرِضُونهم عليهم، ليُخْبِروهم بما قد يكون عليه مستقبلُ كلٍّ منهم، يفعلون ذلك بالتفرُّسِ في الوجوه، ومقارنة ما يرونه من الملامح بما لهم من خبرةٍ وتجاربَ، وكان أحَدُهم يَعْمدُ إلى الخُطوط، يخطُّها على الأرض، ثم ينظرُ إليها، ليستخرجَ منها ما يَتَنبَّؤُ به للصبيّ وغيره.. ويُقال للعَرَّاف أيضاً: الحازي والطارقُ والكاهِنُ والحدَّاس والمنجّم[2]...

ومن ذلك ما ذكره ابنُ سعد، من أن حليمةَ السَّعْديَّةَ، مُرْضِعَةَ رسول الله،

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥، والكامل في التاريخ: ٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) العَرَّاف: المنجِّمُ، وعملُه العِرافَةُ وهي التنجيمُ والإخبارُ عن الماضي والمستقبل، والحازي: الذي يَحْزُرُ الأشياءَ ويُقدِّرُها بظنه، والذي ينظرُ في الأعضاءِ وخِيلانِ الوجهِ والبَدَنِ يتكهَّنُ. ويقال إن الحازي هو من كان يأتي إلى أرضٍ رِخْوةٍ، فيأتيه فيها صاحب الحاجة، فيعطيه حلواناً، فيقول له الحازي: أقعد حتى أخطَّ لك! وبين يديْ الحازي غلامٌ يتبعه، معه مِيلٌ له، فيأخذه الحازي منه، ويخطُّ به خطوطاً كثيرةً بالعَجَلة لئلا يَلحقَها العددُ، ثم يرجعُ فيمحو منها على مَهَلٍ خَطَّيْن خَطَّيْن، وغلامه يقول للتفاؤل: ابْنَيْ عِيَان، أسْرِعا البيان! فإن بقي من الخطوط خطَّانِ فهما علامةُ النجاح، وإن بقي منها خطٌّ واحدٌ فهو علامةُ الخيبة في قضاء الحاجة.

في الناس جميعاً، وليُحَذِّروهم منه، ومن التعامُل معه[1]. ولهم في ذلك مَثَلٌ يقول: إن لكل غَدْرةٍ لواءً، أي علامةً تُشْهَرُ بها في الناس[2]، وهذه العلامةُ تكون كالرَّاية، تُرفع ليعرفَها الناس جميعاً. وإلى هذا أشار قُطْبَةُ بنُ أَوْس المازني[3]، يسأل حبيبتَهُ سُمَيَّةَ إن كانت سمعتْ لهم بغَدْرةٍ:

أَسُمَيَّ وَيْحَكِ، هل سمعتِ بغَدْرةٍ رُفِعَ اللواءُ لنا بها في مَجْمَعِ[4]

وربما أَوْقَدوا للغَادرِ ناراً، وصاحُوا: هذه غَدْرةُ فلان، فاحْذَرُوهُ، والْعَنُوهُ، أو ربما أقاموا له تمثالاً من طينٍ، يَنْصبونه في السوق، رمزاً لنَقْضِهِ العهدَ وغَدْرِهِ به... وقد ذكر المرزوقي أن العرب كانوا إذا غَدَرَ الرجلُ، أو جَنَى جنايةً عظيمةً، انطلق أحَدُهم، حتى يرفع له رايةَ غدْرٍ بعكاظ، فيقوم رجلٌ من المغدور بهم، يخطب بذلك الغدر، فيقول: ألا إنَّ فلانَ بنَ فلان قد غَدرَ، فاعْرفوا وجهه، والْعَنُوهُ، ولا تُصاهِرُوهُ، ولا تُجالِسُوه، ولا تسمعوا منه قولاً، ولا تُعاملوه... فيُمسِي بذلك مَذْمُوماً، مَدْحُوراً، يُثْقِلُ ضميرَهُ شعورُهُ بالخِزْي والعار، بعدما صَدَر بحقِّهِ حُكمُ عكاظ، القاضي بعَزْله عن المجتمع، فإن رَجَعَ عمَّا جَنَى فأعْتَبَ، أي أَرْضَى، وإلا جُعِلَ له مِثْلُ مِثَالِهِ في رُمْحٍ، فنُصِبَ بعُكاظ، ثم لُعِنَ ورُجِمَ. ويُقال إن بني كندة رفعوا رايةَ غَدْرٍ بعُكاظ، لعامِرِ بنِ جُوَيْن الطائيّ، في غَدْرِه بامرىء القيس بن حجر الكندي قُبيل سفره إلى قيصر الروم. فقد نزل به امرؤ القيس مُجاوراً له، فأراد عامرٌ

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٤٠٣.

(٢) لسان العرب: ١٥/ ٢٦٦ (لوى).

(٣) قُطْبة بن أوس: شاعر جاهليٌّ مُقِلٌّ، من بني مازن، من فزارة. كان حسانُ بن ثابت من المعجبين بشعره.

(٤) المفضَّليات: ٤٥.

أن يَغْلبَهُ على أهلِهِ ومالِهِ، فعَلمَ بذلك، فانتقل عنه إلى رجُلٍ من بني ثُعَلٍ، وهم بطنٌ كبير من طيِّىء، فوقعت بين عامرٍ والثُّعَليِّ حربٌ، فرحل امرؤ القيس عنهم إلى السَّمَوْأَل. . .

وقيل في الوقت نفسه، إن بني فزارة بن ذبْيانَ رفعوالعامِرِ بن جُوَيْن رايةَ وفاء بعكاظ، في حُسْن صَنيعهِ بمنظور بن سيَّار الفزاريّ، لمَّا أقْحَمتْهُ السنةُ، فانتقل بماله وإبِلِهِ وأهْلِهِ إلى جَبَلَيْ طَيِّىء، فأجارَهُ عامرٌ، ووَفَىٰ له، فصار الناسُ بعد ذلك بين حامدٍ عامِراً وذَامٍّ له[1]. . .

* * *

وجاء في حديث «ضُبَاعَة بنتِ عامر القُشَيْرِيَّة»[2]، أنها كانت زوجة لصاحب اليمامة هَوْذَة بن عليّ الحنفيّ، ثم مات عنها، فأصابت منه مالاً كثيراً، ورجعت إلى أهلها بني قُشَيْر. . . فخطبها إلى أبيها عبدُ الله بنُ جُدْعَانَ التَّيْميُّ، فزَوَّجَهُ منها. فأتاه ابنُ عمٍّ لها، يُقال له: حَزَنُ بنُ عبد الله، من بني قُشَيْر، فقال: يا عمّ! زَوِّجْني ضُبَاعة. قال: قد زوَّجْتُها عبدَ الله بن جُدْعان. فحلَفَ ابنُ عمها أن لا يَدَعَ ابنَ جُدْعان يصلُ إليها أبداً، ولَيَقتُلَنَّها دونه.

فكتب أبوها إلى ابن جُدْعانَ يذكر ذلك. . . فكتب إليه ابنُ جُدْعانَ: واللَّهِ لئن فعلتَ هذا، لأَرْفعنَّ لك رايةَ غدرٍ بعُكاظ! . . . فقال أبوها لابن عمِّها: قد جاء من الأمر ما ترى، فلا بُدَّ من الوفاء لهذا الرجُل. ثم جَهَّزَهَا، وحَمَلها إليه.

فركب حَزَنٌ في إثْرِهَا، وأخذ معه رُمْحاً، وتَبِعها حتى انتهى إليها،

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠، والأعلام: ٣/ ٢٥٠، والكامل في التاريخ: ١/ ٥١٨.

(٢) ضُبَاعَةُ بنتُ عامر: من بني قُشَيْر، من هوازن، كانت من أجمل نساء العرب. شاعرة، أسلمت بمكة، وكانت زوجة هشام بن المغيرة وولدتْ له إبنَه سَلَمة. تُوفيت نحو (١٠ هـ).

فوضع سِنانَ الرمح بين كتفيها، وقال لها: يا ضُبَاعة! هل قومٌ يَقْتَنُونَ المالَ تجارةً، أَحَبُّ إليكِ، أم قومٌ حُلُولٌ؟ . . . وكان ابنُ جُدعانَ تاجراً كسائر أهل مكة، أي أهل الحَرَم، خلافاً للحُلُولِ، أي أهل الحِلِّ الذين سكنوا خارج الحرَم، فكانوا بُداةً، يعيشون غالباً من رَعْي الأنعام. فقالت ضُبَاعة: لا، بل قومٌ حُلول. قال: أمَا واللّهِ، لو قلتِ غير هذا، لأَنْفَذتُ الرُّمحَ من بين ثَدْيَيْكِ! ثم انصرف عنها، وزَفَّها أبوها إلى ابن جُدعان، وفاءً بالعهد الذي قطعه له، وتمَّ الزواجُ كما اتَّفقا[١].

وهكذا كان نَصْبُ رايةٍ للوفاء بعكاظ، إعلاناً يُكسِبُ الرجُلَ الوافي حَمْداً وثناءً في أحياء العرب كافةً. وكان نصْبُ رايةٍ للغدر دعوةً للقَدْحِ في الغادر وذَمِّهِ، ورادعاً خُلُقيّاً، له رهبةٌ في نفوس العرب تُلزِمُهم بالوفاء. . .

* * *

(١٥) ـ بناتٌ للزواج:

كان من عادة الشاعر الأعشى[٢]، أن يُوافي سوق عكاظ في كل عام، فيتجاذَبهُ الناسُ في الطريق، تكريماً له، وطمعاً بِمِدْحَةٍ من شعره، يُنَوِّهُ بهم فيها، فيَتَلقَّاها الرواةُ بعكاظ، وينشرونها في العَربِ، فتنتشِرُ لهم بذلك شهرةٌ واسعة. ومن ذلك أنه مرَّ يوماً ببني كلاب[٣]، في طريقه إلى عكاظ ليشهدَ

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٤٦٠ (حاشية: ٣). وهنالك بقيةٌ لحديث ضُبَاعَة، نذكره عند كلامنا على موسم الحجّ في الجاهلية.

(٢) **الأعشى الكبير**: (٥٣٠ ـ ٦٢٩ م). أبو بصير ميمون بن قيس، من بكر بن وائل. من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلَّقات. كان كثير الوفود على الملوك، غزيرَ الشعر، يسلك فيه كلَّ مَسْلَكٍ، وكان يُغَنَّى بشعره. فسُمِّي صَنَّاجَة العرب. أدرك الإسلام ولم يُسلم، مولده ووفاته في منفوحة من قرى اليمامة بنجد.

(٣) بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، من هوازن.

صعصعة، وقائدُهم في معركة النِّسَار[1]، إتاوَةٌ على بعض أحياء الأَزْد[2]، فكان يحضُرُ عكاظاً، فيأتيه هذا الحيُّ بها. فجاءَه سمير بن سَلَمة القُشَيريّ في أحد المواسم، وعبدُ الله جالسٌ فوق أَمْتعةٍ جُمعت له من الإتاوة، فأنْزَلَهُ عنها، وجلس مكانَه! فقام إليه رجالٌ في السوق، وسَحَبُوهُ من رِجْلَيْه، وأبْعَدوه عن ذلك الموضع، وأعادوا عبدَ الله إلى مكانه[3]. ولعلّ أولئك الرجال كانوا ممن يحفظن الأمنَ في السوق، ويَذُودون عن الحُرُمات، ويُؤَدِّبُون السُّفَهاء.

* * *

(١٧) ـ صَواحِبُ الرايات:

هُنَّ الإمَاءُ اللائي كُنَّ يحتَرِفْنَ البِغَاءَ، فكانت لهنَّ في السوق حوانيتُ أو حَانَاتٌ خاصَّةٌ، تُنصَبُ عليها راياتٌ يُعْرَفن بها، وزِيٌّ خاصٌّ بهنَّ، كَيْلا يختلطْنَ بالحرائر من نساء العرب[4]، فالبِغَاءُ للإمَاء دون الحرائر، وفِعْلُه خاصٌّ بهنَّ، وكان من الإمَاءِ قِيَانٌ يُغَنِّينَ في تلك الحوانيت، وإنما قيل للمُغَنِّيةِ قَيْنةٌ لأن الغناء من عمل الإمَاء، وكان من تلك الحوانيت ما تُباع فيه الخمورُ، أو تجري مُعَاقَرتُها فيه، وكانت تُرفع عليها أيضاً رايةٌ تُعرفُ بها. ولا شك في أن أبناء البوادي كانوا يَتَوافون بعُكاظ، وغيرها من المجامع

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ٥٦٠ ـ ٥٦١، ٦١٩، والمفصَّل: ٥/ ٣٧٨.

(٢) **الإتاوة**: معناها هنا خَراجٌ كان يُؤَدَّى للزعماء والرؤساء، بقدر معلوم، استحقُّوه بأحد الأعمال، أو الأعراف، ومن الضروريّ ألا يُفهمَ منها أنها ضريبةٌ كانت تُجبَى بعُكاظ، عن بضائعَ أو تجارةٍ، فعُكاظ منطقةٌ حُرَّةٌ ليس فيها ضرائبُ على التجارة.

(٣) الأغاني: ٥/ ٢٠ ـ ٢١.

(٤) المحبَّر: ٣٤٠، والبيان والتبيين: ٣/ ٦٦ ـ ٦٧، والحياة الجنسية عند العرب: ١٤.

العامّة، ليقصدوا حاناتها، ويجدوا في نشوة الشراب نعيماً، وفي أنغام القِيَان طرَباً، ومتعةً تسلب ألبابَهم، حتى ليُخيَّل إليهم أنه قد أُتيح لهم في عكاظ، من الرخاء والنعيم واللهو، ما لا وجود لمثله في سائر المواسم(١).

* * *

(١٨) ـ التحرُّشُ بالكِرَام:

وعلى نحو ما يفعلُ اليومَ بعضُ أهل الصحافة، يَسبُّون كريماً، وينتقدونه بما يُثيرهُ، من غير ذنبٍ جَناهُ، إلا أنهم يريدون أن يُسْكِتَهم بماله، كان الشعراء في الجاهلية أحياناً يفعلون مثل ذلك. ذكروا أن دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة(٢)، هجا عبدَ الله بنَ جُدْعان التيْميَّ، ولم يكن يعرفُهُ، بقصيدةٍ مطلعُها:

هل بالحوادثِ والأيام من عَجَبِ أم بابْنِ جُدْعانَ عبدِ اللّهِ من كَلَبِ

فلبث ابنُ جُدْعان ينتظرُ حتى دخل الموسم، فلقِيَهُ بعكاظ، فحيَّاهُ، فردَّ التحيةَ بمثلها، فسأله: هل تعرفُني يا دُرَيْد؟ قال: لا! قال: فلمَ هَجَوْتَني إذن؟ قال: ومَن أنت؟ قال: أنا عبدُ الله بنُ جُدْعان! قال: هَجَوْتُك لأنك امْرُؤٌ كريمٌ، فأحْببتُ أن أَضَعَ شِعْري مَوْضِعَهُ. فقال ابنُ جُدْعان: لئن كنت هَجَوْتَ لقد مَدَحْتَ... ثم كسَاهُ، وحَمَلهُ على ناقةٍ برَحْلِها، فمدحَهُ دريدٌ

---

(١) فيليب حِتّي ورفيقاه ـ تاريخ العرب: ١٣٨، والمفصَّل: ٥/ ١١٢.

(٢) دريدُ بن الصِمَّة: من بني جُشَم، من هوازن. شاعر جاهلي من الشجعان الأبطال، كان سيد بني جُشَم وفارسهم وقائدهم. غزا نحو مئة غزاةٍ لم يُهْزَم فيها. وهو من المعمَّرين، قُتل في معركة حنين نحو (٦٣٠ م).

في سوق عكاظ. . . فقد قَدِمَ السوقَ في أحَدِ مواسمها للتجارة، ومعه عُروضٌ مختلفةٌ من أَمْتَعةٍ وأثاث ولباس، وصُنوفٌ من الطعام، حَمَلها على عددٍ من العِير. فرأى الناسَ هناك، فريقاً يتماجَدُون، فيُعدِّدُ كلٌّ منهم أَمْجادَ آبائه، وما اكتسبوه بفعالهم من خِصال الشرف والمروءَة والنَّجْدة، وفريقاً تحلَّقوا حول قاضٍ تنافَروا إليه في تفاخُرهم بالأحساب، وعِزَّةِ النَّفَر، وكثرةِ العَدَد. . . ولمَّا رأى نهيكُ بنُ مالك الرواةَ يَتَلقَّفُون أخبارَ الكِرام الأَجْوادِ، لِيُذيعوها في أحْياءِ العرب، ورأى الناس مَجْهُودينَ من شُحِّ الطبيعة، وتكاليف الحياة، أَنْهَبَ عِيرَهُ بما عليها من العُروض والأمتعة، رَغْبَةً في حُسْن الذِكْر، واكْتِسابِ الحمْدِ والخُلُود. ولمّا علم خالُه بما فعل، أَقْبل عليه يَلُومُه في ذلك، فردَّ عليه بقوله:

يا خالُ ذَرْني ومالي، ما فعلتُ به ... وما يُصيبُكَ منه، إنني مُودِي
فلن أُطيعَكَ، إلاَّ أن تُخَلِّدَني ... فانظرْ بِكَيْدِكَ هل تَسْطِيعُ تخليدي
الحمدُ لا يُشتَرىٰ إلا له ثَمَنٌ ... ولن أعيش بمالٍ غير محمودِ[1]

فالرجُلُ وجَدَ في فِعْل الجُود والسخاءِ، أقصرَ سبيلٍ إلى الحمد والثناء، ورأى أقصَرَ سبيل إلى الشهرة والخلود، أن يفعَلَهُ بعُكاظٍ إذاعةِ العرب، حيث يتلقَّفُه رواةُ الأخبار، فيذيعونَهُ في أحياء العرب. . . وقد لُقِّبَ نَهيكُ بن مالك بعد ذلك بأنه «فتى أهل المشرق».

* * *

٣ ـ نَفيُ المرء عن قبيلته، أو حِرمانُه من حمايتها له، وتضامُنِها معه، أو إسقاطُ جنسيَّتها عنه. . كلُّ ذلك كان يُسمَّى «الخَلْعَ» في الجاهلية. وهو

---

(١) ابن حَجَر العسقلاني ـ الإصابة في تمييز الصحابة: ٣/ ٣٨٥/ت ٧٩١٩.

حرصاً على سُمعتها وكرامتها[1]. وقد مرَّ بنا في حديث البَرّاض بن قيس الكناني أنه كان سكِّيراً، فاسقاً، فاتكاً، خلعه قومُه بعكاظ، بعدما تهالك على الخمرة واللذّات، حتى تحامَتْهُ العشيرةُ كلُّها، فلجأ إلى بني الدُّئِل، فشرب فيهم، فخلعوه، فأتى مكَّةَ، ونزل في جوار حَرْب بن أُميّة، فحالفَهُ حربٌ وأحْسَنَ جِوارَهُ، ولكنه عاد إلى السُّكْر مرَّةً أُخرى، حتى هَمَّ حربٌ بخَلعه، ولكنه لم يفعل. فارتحل عن مكة وهو على حِلْفِهِ قريشاً، فقتل عروة بن عُتبة سيِّدَ هوازن، فهاج حرباً بين قريش وهوازن، هي حرب الفِجَار[2]. وفي أخبار عبد الله بن جُدعان، أنه كان في شبابه فاتكاً، لا زال يجني الجنايات، فيتحمَّلُ عنه أبوهُ ما يجني به على الآخرين، حتى مَلَّتْهُ عشيرتُه، فنفاهُ أبوهُ، وحلفَ لا يُؤْويه لما أثْقَلَهُ به من الغُرْم، وحَمَّلهُ من الدِّيَاتِ، وأعلن ذلك في عكاظ[3].

صفوةُ القولِ، أن الخَلْعَ من القبيلة، أو من حق الجِوار الذي تمنحُه القبيلةُ للعائذين بها، والمتحالفين معها، كان يتَّخِذُ شكلَ مرسومٍ قانونيّ، تُصدِرُه القبيلةُ، ولا يكون نافذاً في حقوق الغير، إلا بعد إعلانه في إذاعة العرب بسوق عكاظ، في مواسمها، ومواسم الحجّ الكبرى. وكان أولياءُ المخلوع ربما بعثوا في السوق مُنادياً، يُذيع هذا المرسومَ على قبائل العرب في منازلهم من عكاظ، وقد يكتبون به كتاباً يُعَلَّقُ في السوق، زيادةً في العَلانِيَة.

* * *

(١) المحبَّر: ١٩٥.

(٢) الأغاني: ٢٢/ ٦٣.

(٣) المفصَّل: ٤/ ٩٤ ـ ٩٥، وعجائب المخلوقات: ٣٢، (الأبشيهي ـ منشورات المتوسط ـ ١٩٨١ بيروت).

٢٠ـ تأمينُ الخَائفين وإغَاثَةُ المَلْهُوفين:

وكان الأشرافُ بعُكاظ يُؤَمِّنون الخائفين، ويُغيثون الملهوفين، ويُطعِمون الجَوْعَى، ولعلَّ أجملَ صوت كان يُسمع هنالك، صوتُ المُنادِينَ يَبْعثُهم سادَةُ القبائل وأشرافُها، يطوفون في السوق، يسألون: هل مِن راجلٍ مُتعَبٍ فَنَحْمِلَهُ؟ أو جائع فقير فنُطْعِمَهُ؟ أو خائفٍ فنُؤَمِّنَه ونُجِيرَهُ؟. ما أجملَ هذا النداء، وما أحْلَى وَقْعَهُ في أُذُنِ خائفٍ أو جائعٍ أو مُتْعَبٍ؟ وأين نحن اليومَ من أمثال تلك المروءةِ والشَّهامَةِ والنَّجْدَة!

ومن هذا القَبيل ما كان يَصْنعُه عامرُ بنُ الطفَيْل، فارسُ قومه، وأحَدُ سادات العرب في الجاهلية. فقد كان يأمُرُ مُنادِياً يطوفُ بعُكاظ أيامَ الموسم، ويُفتِّشُ عن الخائفينَ والمُعْوَزينَ والمُتعَبين[١]... ولم يكن ينتظرُ مَن يأتيه منهم مُستجيراً بل يبادرُ إلى البحث عنهم، ويُقَدِّمُ لهم الأَمْنَ، والطعامَ، والكسَاءَ، والمركُوبَ... ولمّا مات عامرُ بن الطُفَيْل، أقام قومُه حولَ قبره أنصاباً، على أرضٍ مساحتُها مِيلٌ في ميل، وجعلوها حِمَىً، إذا لاذ بها خائفٌ أمِنَ وأُجير[٢].

وجاء في أخبار الجاهلية أيضاً، أن الصَّعِقَ الكلابيَّ، وهو خُوَيْلدُ بنُ نُفَيْل، من بني عامر بن صَعْصَعَة، كان سَيِّداً، يُطعِم الناسَ بعُكاظ[٣].

ولمَّا ضاقت بفارس العرب، الحارثِ بن ظالمٍ المُرِّيِّ، سُبُلُ الأمَان، واشتدَّ عليه طلبُ المَوْتُورين منه، أتَىٰ سوقَ عكاظ في الموسم، وقَصَدَ إلى مَضْرِبِ عبد الله بن جُدعان، فقام بين يَدَيْه، ونكَسَ رُمْحَهُ، إشارةً إلى طلبه

---

(١) الأعلام: ٣/٢٥٢، ومجمع الأمثال: ٢/٤٦.

(٢) الأغاني: ١٧/١٩، والمفصَّل: ٤/٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٢٨٦.

يَسْتعينُ بالسُّخْرِيَةِ، والاسْتِخْفافِ، وبعضٍ من معاني الهجاءِ الشخصيّ.
وبذلك قام النابغةُ في عكاظ، وأصدر حُكمَهُ على زُرْعة، فقال:

نُبِّئْتُ زُرْعَةَ، والسَّفاهَةُ كاسْمِهَا يُهْدِي إليَّ غرائبَ الأَشعارِ
فحلفتُ يا زُرْعَ بنَ عمروٍ، أنني ممّا يشقُّ على العدُوِّ ضِرَاري
أرأيتَ يومَ عُكاظ، حين لقيتَني تحتَ العَجَاجِ، فما شَقَقْتَ غُباري
إنّا اقْتَسَمْنَا خُطَّتينا بيننا فحملتُ بَرَّةَ، واحْتَمَلْتَ فَجَارِ
فَلْتأتينْكَ قَصائدُ، وَلَيَدْفَعَنْ جيشٌ إليكَ، قوادمَ الأكوارِ[١] . . .

ثم يُعدِّدُ النابغةُ لزُرْعَةَ رجالَ قبيلته، وحُلفاءَهم، ويُذكِّرُهُ بقُوَّة بأْسِهم، ومَنَعَتِهم، مؤكِّداً له أنهم باقُونَ على اتحادهم، غير عابِئين بعَدُوِّهم[٢] . . . وهكذا كانت عقوبةُ الوَاشِي، والسَّاعي في الفتنة، تشهيراً له في موسم عكاظ، يَرْدعُه عن غِيِّه، ويُحذِّرُ الناس من غَدْرِهِ.

* * *

(٢٢)ـ صُعْلوكٌ في عكاظ:

من الواضح أن موسمَ عكاظ كان يمكن أن يكون أطيبَ مناسبةٍ عند الصعاليك، للإغارة على أموال التجارِ، والأغنياء، سواء في بعض الطُرق المؤدِّية إلى السوق، أو في وسط الزحام ببطن السوق، لولا أمورٌ ثلاثةٌ ضَيَّعتْ هذه الفُرصَةَ منهم، **أوّلُها**: أن الموسمَ يقع في شهرٍ حرام يوضع فيه

---

(١) السفاهة: ضد الحلم، أو هي الحمق. ضراري: مسّي بأذى. برّة: إسم للبر أي الخير، فَجَار: إسم للفجور، أي حملتُ خُطةَ الخير وحملتَ أنت خطة الفجُور. **العجاج**: الغبار. **قوادم الأكوار**: مفردها قادمة الكور وهي مقدّمة الرحل.

(٢) د. محمد زكي العشماوي ـ النابغة الذبياني: ١٥٤ ـ ١٥٦، وشرح القصائد السبع الطِوال: ١٤٧.

السلاح، **وثانيها**: أن طائفة الذَادَةِ المحرِّمين كانوا مُستعدِّين للدَّفْع عن الحرمات بالسلاح، **وثالثها**: أن الصعاليك أنفُسَهم، مع كثرةِ طالبيهم المَوْتُورين منهم، كانوا يستفيدون من حُرْمَةِ الشهر، ويحضرون السوق من غير أن يَخشَوْا بأساً، فما كان بوسْعِهم الاعتداءُ على أحَدٍ في حَرَم السوق، أو سَلْبُه شيئاً، ولكنهم اغتنموا فرصة الزحام هنالك، لانتقاء ضحايا هم من بين أحياء العرب، والإحاطةِ بما يملكونه من الأموال، ومعرفةِ المواضع التي يسكنونها من البوادي، وذلك ليرسموا خُطَطَهم فيما بعد للإغارة عليهم، حينما يعودون من الأسواق إلى منازلهم، وتنقضي الأشهُر الحرُم. . .

وفي أخبار **السُّلَيْكِ بنِ سُلَكَة السَّعْديّ**، وهو من كبار الصعاليك، أنه خرج في الشهر الحرام، حتى أتىٰ سوقَ عكاظ. فلما اجتمع الناسُ، وتدافعوا في السوق، أَلْقَىٰ سِلاحَهُ، وخرج يَتكلَّفُ الوقارَ والمَهابَةَ، وجعل يطوفُ بين الناس، ويسأل: مَن يَصِفُ لي منازِلَ قومه، وأَصِفُ له منازِلَ قومي؟ ويبدو أن ذلك كان عادةً مألوفةً في المواسم، اعْتَادَها فِتْيانُ القبائل، في المجامع العامَّة، ولعلَّها للتعارُف أو التفاخُر. وظلَّ السُّلَيْكُ على ذلك السؤال، مُتظاهراً بالفَضْل في القَدْرِ والمنزلة، حتى اقْتَرَبَ من فَتى، توسَّمَ فيه بساطةَ الفِطرة، فبادَرَهُ الفتى إلى الكلام فقال له: أنا أفعلُ ذلك. . . أنا قيسُ بنُ المكْشُوحِ[1]. . . فتواقفا، وتعاهدا ألاَّ يكذبا، وطفق كلٌّ منهما يصفُ للآخَرِ منازلَ قومه، فقال قيسٌ: خُذْ بين مَهَبِّ ريح الجنوب، وريح الصَّبا[2]، ثم سِرْ أربعَ ليالٍ، حتى تبدو لك رَمْلَةٌ وقَفَ بينها الطريقُ، فهنالك منزلُ قومي، ومَضاربُ خِيَامِهم. . . فقال السُّلَيْك، وذكر له اسماً آخَرَ غيرَ إسمه الحقيقي:

---

(١) قيس بن المكشوح: هو قيس بن هبيرة المكشوح ابن هلال البَجَليّ، وكان حليفاً لبني مُراد فنُسِبَ إليهم. كان فارس قبيلته في الجاهلية، أدرك الإسلام فأسْلَم، وشارك في الفتوح.

(٢) أراد أن الطريق إلى منزل قومه بين الجنوب والشرق، فريح الصَّبا تهبُّ من الشرق.

إنّ قَنـاتـي لَنَبْـعٌ لا يُـؤَيِّسُهـا غَمْزُ الثِّقَاف ولا دُهْنٌ ولا نارُ[1]
متى أُجِرْ خائفاً، تأمَنْ مَسَارِحُهُ وإن أُخِفْ آمِناً، تَقْلَقْ به الدارُ
إنّ الأمورَ إذا أوْردتُها، صَدَرت إنّ الأمـورَ لهـا وِرْدٌ وإصْـدارُ

فقال: ويْحَك! وما كان طريفٌ فيكم حتى قال هذا الشعرَ؟ قال: كان أثْقَلَ العرب على عَدُوِّهِ وَطْأةً، وأَدْرَكَهم بثأر، وأيْمَنَهم نَقِيبةً، وأصْلَبهم قناةً لمن رامَ هضْمَهُ، وأَقْراهم لِضَيفٍ، وأحْوَطَهم من وراءِ جارِهِ، اجتمعتِ العربُ بعُكاظ، فكلُّهم أَقَرَّ له بهذه الخِلال. فقال المنصور: يا أخا بني تميم، لقد أحسنتَ إذ وصفتَ صاحِبَك، ولكني أحقُّ بأبياته منه، فأنا الذي وصف، لا هو[2]!

ويبدو أن المنصور غَبَطَهُ، وتمنَّى لو تجتمع العربُ بعُكاظ وتُقِرُّ له بمثل هذه الخِلال، لأن من تعترف له مجامعُ العرب بعكاظ بخِلالٍ، لا يقدر أن ينزعها منه أحَدٌ، فكأنها مَنَحتْه أَوْسِمةً تظلُّ خالدةً على مَرِّ الزمن.

* * *

(٢٤) ـ مُلْقِي القِنَاع:

كان من عادة فرسان العرب التقنُّعُ في المواسم والجموع، وفي أسواق العرب، كأيام عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، وما أشبه ذلك، إلا ما كان من طريف بن تميم العَنْبريّ، فارس بني عمرو بن تميم في الجاهلية، فإنه كان لا

(١) **القناة**: الرمح أو العود، جمع: قناً. **النبع**: واحدته النبعة. وهي شجرٌ تتخذ منه السهام والقسيُّ. يقال: «ما رأيتُ أصلبَ منه نبعاً» أي أشد منه. **غمز**: القناة جسها ليختبرها أو ليقوّمها. **الثقاف**: آلةٌ تثقف بها الرماح. **ثقف الرمح**: قوّمه وسوّاه.
(٢) تاريخ الطبري: ٨/٦٩ ـ ٧٠.

بني تميم، في يوم مُبَايض، فقد حَمل عليه حَمَصِيصَةُ يومئذٍ حتى قتله[1].

ويبدو أن التقنُّعَ، في المواسم والمجامع العامَّة، لم يكن حَذَرَ الغَدرِ أو الثأر وحسب، بل كان أحياناً خوفاً من الأَسْر، ثم المُغَالاةِ في طلب الفِدْيَة، كما يحدثُ اليوم في عصرنا من جرائم الخطفِ والمُغَالاة في قيمة الفداء.

* * *

(٢٥)ـ مُلاعَنَةٌ في عكاظ:

الْتَقَىٰ بعكاظ في أحد مواسمها، قعْنَبُ بنُ عَتَّابٍ اليربوعيُّ فارسُ تميم، بُجَيْراً بنَ عبد الله العامريَّ فارسَ قيس، والناسُ مُتَواقِفُون، فقال بُجَيْرٌ: يا قعنبُ، ما فَعَلتِ البيضاءُ فَرَسُكَ؟ قال قعنب: هي عندي. قال: فكيف شُكْرُكَ لها؟ قال: وما عَسَيْتُ أن أشكُرَها به؟ قال: وكيف لا تشكرُها وقد نَجَّتْكَ مني! فأنكر ذلك قعنب، فتَلاعَنا، وتَداعَيا أن يَلعنَ اللَّهُ الكاذبَ، ويجعلَ مِيتَتَهُ على يد الصادق. ثم نَذَر قعنبُ أن لا يرى بُجَيراً بعد هذا الموقف، إلا قتله، أو مات دون ذلك.

ثم إن بُجَيْراً أغار بقومه يوماً على بني العنبر من تميم، وهم خُلوفٌ، أي أن الرجال لم يكونوا في المنازل، فاسْتاق السَّبْيَ والنَّعَمَ، فأتَى الصَّرِيخُ بني العنبر وإخوانَهم بني عمرو وبني حنظلة، فركبوا في أَثَرهم حتى أدركوهم، فقاتلوهم، ولَحِقَ قعنب بُجَيراً فطعنه، فأرْدَاهُ عن فرسه وقتله، وانهزم بنو عامر قومُ بُجَيْر، واسْتَنْقَذَ بنو تميم أمْوالَهم وسَبْيَهم[2].

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦٩، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧١، والأصمعي ـ الأصمعيات: ١٢٧، والكامل في التاريخ: ١/ ٦٠٢، والعقد الفريد: ٥/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩، وتاج العروس: ١٧/ ٥٣٢.

(٢) الكامل في التاريخ: ١/ ٦٣١ ـ ٦٣٢، والعقد الفريد ٥/ ١٧٩، ومعجم البلدان: ٥/ ١١١، وأيام العرب في الجاهلية: ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٢٦) ـ القِنَاعُ في عكاظ:

لم يكن فرسانُ العرب فقط مَن يُخْفُون وجوههم وراءَ الأَقْنعة، وإنما كان الرجال المشهورون بالجمال، إذا وردوا المواسمَ، يُؤْمَرون أيضاً بالقِنَاع، مَخافَةَ فتنةِ النساء بهم، وكان منهم **سُنَيْعُ الطُّهَوِيُّ**، وهو أحدُ المشهورين بالجمال من بني طُهَيَّة، وهم حيٌّ من تميم[١]... وكان بعضُهم يتَقنَّعُ خوفاً من الحسَدِ، والإصابةِ بالعَيْن! ويُعَدُّ من هؤلاء: **المُقَنَّعُ الكِنْديُّ**، محمدُ بنُ عُمير، وكان من أجمل الناس وجهاً، وأمَدِّهم قامةً، وأكملهم خلقاً، فكان إذا كشف عن وجهه أصابتْهُ العينُ، ولحقه مرضٌ وعَنَتٌ. ومثلُه: **وَضَّاحُ اليمن**، عبدُ الرحمن بنُ إسماعيلَ الحِمْيَريُّ، **وأبو زبيدٍ الطائيُّ**، حَرْمَلَةُ بنُ المنذر... وكان هؤلاء، كما ذكر الأصفهاني: «يَرِدُون مواسِمَ العرب مُقنَّعين، يَسْتُرون وجوههم خوفاً من العين، وحَذَراً على أنفسهم من النساء، لجمالهم...»[٢]. وربما تقنَّع بعضُهم في المجامع العامَّة، جرياً على عادة الأشراف في اتّخاذ القناع، لأنه أهْيبُ في الصدور، وأجَلُّ في العيون، وهو من سِيماء الرؤساء[٣]. ومن النساء مَن كُنَّ يأتين عكاظاً مُتَبرقعات، خوفاً من تعرُّضِ الشبَّان لهنَّ بما يُؤْذيهنَّ... وجاء في أخبار وقائع الفِجَار بعكاظ، أن إحداها وقعتْ لمّا تحلَّق فِتْيةٌ من قريش حول فتاة من بني عامر، وأرادوها أن تَنْزِعَ بُرْقعَها وتُسْفِرَ عن وجهها، فأبَتْ، فشَدُّوا ذَيْلَ ثوبها بشوْكةٍ إلى ظهرها، فما كادت تقومُ حتى انكشف ثوبُها عن جَسَدِها وعَوْرَتها، فاستغاثتْ بقومها، فاشْتَجروا مع قريش ثم اصطلحوا.

* * *

---

(١) لسان العرب: ٨/١٦٨ (سنع)، و ١٥/١٧ (طهو)، والمحبّر: ٢٣٢.

(٢) الأغاني: ٦/٩٨ ـ ١٩٩، والشعر والشعراء: ٣٠١، ٣٠٥، والبيان والتبيين: ١/ ١٥٥.

(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٧٠.

٢٧ ـ إطلاقُ الأَلْقَاب:

وكانوا في مجامع عكاظ، إذا وقع أمرٌ له شَأنٌ، فأُطْلِقَ فيه لَقَبٌ على أحدٍ، جَرىٰ له هذا اللقبُ مَجْرى اسْمِهِ الأَصْليّ... فقد قاتل أبو ربيعة بن المُغِيرَة المخزوميُّ[١]، بِرُمْحَيْنِ في معركة شَرِبٍ بعُكاظ، فسُمِّيَ «ذا الرُّمْحَيْن»، وصار يُعرفُ بهذا اللقب بقيَّةَ حياته[٢]... وثَبَتَ سِتَّةٌ من أبناءِ أُميَّة بن عبد شمس مع أبيهم، في معركة عكاظ، وعَقَلُوا أنفُسَهم، وقاتلوا قتالاً شديداً، فشُبِّهُوا بالأُسْدِ، وسمَّاهُم الناسُ يومئذٍ «العَنَابِسَ»، والعُنْبُسُ: الأَسَدُ، وهم حربٌ، وأبو حربٍ، وسفيانُ، وأبو سفيان، وعمرو، وأبو عمرو[٣]... وكان خُوَيْلدُ بنُ نُفَيْلٍ الكلابيُّ سيِّداً يُطْعِمُ الناسَ بعُكاظ، وقد صَنَعَ طعاماً للناس في أحد المواسم، فهبَّتْ ريحٌ بغُبَارٍ، وألْقَتْهُ في الطعام، فسَبَّها، ولعَنَها! وقيل إن صاعِقَةً يومئذٍ أصابته، فصُعِقَ بها، فسُمِّي «الصَّعِقَ»، فجرى له هذا اللقب مَجْرىٰ الإسم، وعُرِفَ به أبناؤه أيضاً، ومنهم زُرْعَةُ بن الصَّعِق، ويزيدُ بن الصَّعِق، وهما حفيدا خُوَيْلد الصَّعِق من ابنه عمرو[٤].

* * *

---

(١) أبو ربيعة بن المغيرة: عمرو بنُ المُغِيرة بن عبد الله، من بني مخزوم، من قريش. كان سيِّداً، شريفاً، موسراً، وكان يكسو الكعبة وحدهُ سنةً، وجميعُ قريش سنةً. وهو والد عبد الله بن أبي ربيعة الذي بعثت به قريشٌ مع عمرو بن العاص وعمارةِ بنِ الوليد، إلى الحبشة بعد هجرة المسلمين إليها.

(٢) العقد الفريد: ٥/ ٢٥٨، ولسان العرب: ٢/ ٤٥٤ (رمح)، والأغاني: ١/ ٧١.

(٣) الأغاني: ١/ ٢٦، والكامل: ١/ ٥٩٤، وتاج العروس: ١٦/ ٢٨٨ (عنبس).

(٤) الأصمعيَّات: ١٤٤، وجمهرة أنساب العرب: ٢٨٦.

شيخ مَهْو. . . »[1].

* * *

(٢٩) ـ المُصَارَعَة والفُروسيَّة:

ولا شك في أن سوق عكاظ كانت تَشْهدُ في بعض جوانبها، كثيراً من أَنْشِطَةِ الرياضةِ البدنيَّةِ، كالمصارعة، ورُكوبِ الخيْل، ومُبارَزاتِ الفُرْسَان. . . ويبدو أن مواسمها كانت عند العرب، كما قال العَلاَّمةُ الشيخُ عليٌّ الطنطاويُّ، أعياداً «للفنِّ والرياضة، يَحْتَشِدُ لها الناسُ، ويتَبارَىٰ فيها أرْبابُ اللَسَنِ والفصاحة، وأصحابُ القُوَّةِ والبراعَةِ، وربما صَحِبَ ذلك بيعٌ وشراء، وربحٌ وتجارةٌ، كأعْيادِ الأُلِمْپِيَادِ عند اليونان، وسُوقِ عكاظٍ عند العرب»[2].

وقد ذكر ابن سعد أن رجُلاً لَقِيَ راعياً، حينما أسْلَمَ عمر بنُ الخطاب، فقال له: أَعَلِمْتَ أن ذاك الأَعْسَر الأَيْسَرَ أسْلمَ؟ فقال: أَلَّذي كان يُصارعُ في سوق عكاظ؟ قال: نعم! قال: أما واللَّهِ لَيُوسِعَنَّهم خيراً، أو لَيُوسِعَنَّهم شَرّاً[3].

وفي سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ما يُؤكّدُ أنه كان، في الجاهلية، «يُصَارِعُ في المواسم، ويُسَابِقُ على الخيل، في عملٍ من أعمال الفُروسيَّة، والرياضة البدنيَّة»[4]، وكانوا يَشْهَدُون له بالغَلَبة في عُكاظ على

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٥٠.
(٢) حديث العيد ـ مجلة المسلمون ـ المجلد الرابع/ العدد الثالث: ٢٤٠، (أيار ١٩٥٥).
(٣) الطبقات الكبرى: ٣/ ٣٢٥.
(٤) عباس محمود العقاد ـ عبقرية عمر: ٢١٦.

عكاظ، أتاها زهيرٌ، وقَدِمَها الناسُ من كل وجه، فتأتيه هوازنُ فيها بالإتاوة التي كانت له في أعناقهم، وتُقَدِّمُ له السَّمْنَ والجُبْنَ والغَنَم وغيرها من الأموال. وقد أَتَتْهُ عجوزٌ من هوازِنَ، يوماً، بسَمْنٍ في نِحْيٍ[١]، واعتذرتْ إليه، واشْتكتِ السنين التي تتابعت على الناس بالجدْبِ، فذاقَهُ، فلم يرضَ طَعْمَهُ، فدفَعها بقوْسٍ في صدرها، فاسْتَلقَتْ على قفاها، فبَدَتْ عَوْرَتُها، فغضبتْ منه هوازِنُ، وحقدتْ عليه، وكان في أَنْفُسِهم منه غَيْظٌ لما كان يَسُومُهم به من الخُسْفِ والهوان، وكانت بنو عامرِ بنِ صَعْصَعة قد كثُرتْ، فآلَىٰ خالدُ بن جعفر، سيِّدُ بني عامر، أن يجعلَهُ من شأنه حتى يقتلَهُ[٢].

وفي حديث زهير بن جذيمة، أن أَحَدَ مُلوكِ الحيرة[٣]، وقد علم بما بلغه من الشرفِ والسِّيَادة في قومه، تَزوَّجَ إليه إحدى بناته، وأرسلَ يَسْتَزيرُه بعضَ وَلَدِهِ، فبعث إليه ابْنَهُ شَأْساً، وكان أَصْغَرَ أبنائه. فأكْرَمهُ الملكُ، وأجْزَلَ له العطاءَ. ولما أحبَّ الانصرافَ، والرجوعَ إلى أهله، أَنْعَمَ عليه، وحَباهُ أفضلَ الحُبْوَةِ من المسك والطِيب والطنافِسِ، وكسَاهُ حُلَلاً فاخِرةً، وقُطُفاً ثمينةً، فيها قطيفةٌ حمراءُ، لها هُدْبٌ وخَمْلٌ، وكانت وقتئذٍ من حُلَلِ الملوك.

---

(١) النِحْيُ: الزِّقُّ، وهو ما كان للسَّمْن خاصةً.

(٢) أيام العرب: ٢٣٥ ـ ٢٣٦، والأغاني: ١١/ ٧٧ ـ ٧٨، والعقد الفريد: ٥/ ١٣٥، والمفضّل: ٥/ ٣٥٧، و ٤/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩، ٥١٦، ٦٥٢، والمحبّر: ٢٤٨، والأعلام: ٣/ ٥١.

(٣) ذهب الرواةُ إلى أنه النعمانُ الأول بن امرىء القيس (٤٠٣ ـ ٤٣١ م)، ولكنني أرى عصرهُ أقدمَ من زمن زهير بن جذيمة، الذي أُرجِّحُ أنه كان نحو (٤٧٥ ـ ٥٥٠)، لأن في الخبر أحداثاً، وقعت في أيام ملوكٍ للحيرة، اختلف الرواةُ فيمن كانوا، وتبين لي بالبحث أن هذه الواقعة ربما كانت في عصر المنذر بن ماء السماء (٥١٤ ـ ٥٢٥ و ٥٣١ ـ ٥٥٤ م)، واستمرت أحداثها بعد ذلك في أيام خلفائه، حتى وصلت إلى أبي قابوس النعمان بن المنذر (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م)، على ما ذكرهُ الرواةُ من دَوْرٍ لهذا الملك في أحداث الخبر.

ولـمَّا كان شأسٌ في بعض الطريق، أَناخَ ناقَتَه في الظهيرة ليستريح، على مَقْرُبةٍ من نبعِ ماءٍ لبني عامر، يقعُ في جواره مَسْكِنُ رياح بن الأَشَلِّ، من بني غَنِيٍّ بنِ أَعْصُر[1]. ثم خلع شأسٌ ثيابَهُ، وجَعَلَ يغتسِلُ، وامرأةُ رياح غير بعيد منه تنظرُ إليه، فغضب رِيَاحٌ، وصاح به: وَيْحَكَ اسْتَتِرْ، فالبُيوتُ بين يَدَيْك! فلم يحفل به شأسٌ، فرماهُ رِيَاحٌ بسهمٍ في صُلْبِهِ فقتله... ثم اسْتَلبَ مالَهُ ومَتَاعَهُ، ونَحَرَ ناقتَه، وغَيَّبَ كلَّ أثَرٍ له.

بلغ زهيراً أن ابْنَهُ أقبل من عندِ الملك، منذ مُدَّةٍ غير قصيرة، وأن آخِرَ العهد به كان بالقُرْب من بُيوتٍ لبني غَنِيّ، ثم فُقِدَ أَثَرُهُ، فركبُوا إلى الملك، وسألوه عن حاله، فقال: حَبَوْتُه وسَرَّحْتُه، فقالوا: وما مَتَّعْتَهُ به؟ قال: طِيبٌ ومِسْكٌ وحُلَلٌ وقُطُفٌ، فرجعوا يَقُصُّونَ أثَرَهُ[2]، فلم تَتَّضِحْ لهم سبيلُه، ولم يَعْثُرْ عليه أحَدٌ. ولم يَدُرْ في خَلَدِ زهير أن يكون قاتلُ ابْنِهِ من بني غَنِيّ، وهم من قبائلِ قيس بن عَيْلان، حتى جاء موسمُ عكاظ، فشُوهِدتِ امرأةٌ تَعْرِضُ فيه للبيع قُطُفاً فاخِرةً، بينها قطيفةٌ حمراءُ، وأشياءُ أُخَر... وكانوا يعرفون أن هذه الأمتعةَ لا تكونُ إلا من هدايا الملوك، فارْتابُوا في أمرها، حتى تَحقَّقُوا أنها كانت لشَأْسٍ بن زهير من حباء الملك، وأن المرأة زوجةٌ لِرِيَاح بن الأَشَلِّ، فعلموا أن رياحاً صاحبُ ثأرهم.

غضب زهير، وغضبتْ معه قبيلةُ عَبْس، ولمَّا انقَضَتِ الأشهُرُ الحُرُم، جعلوا يُغِيرونَ على بني غَنِيٍّ، ويُمْعِنُون فيهم قَتْلاً، ثأراً وانتقاماً، قبل أن يطلبوا قَوَداً أو دِيَةً... فاستعانت بنو غَنِيٍّ بحلفائهم من بني عامر بن صَعْصَعة، وهم بطنٌ من هوازِنَ، مِمَّن كانوا يَسْخطون على زهير لما كان

---

(١) غنِيٌّ بن أَعْصُر: بطنٌ من قيس بن عيلان. كانت منازلُهم بنَجْد وجوار طيِّيء.

(٢) قَصَّ: أثَرَهُ، أي تَتَبَّعَهُ شيئاً فشيئاً.

يَسُومُهم من الخُسْفِ والذُّلِّ، فاتَّسَعَتِ الحربُ، وامْتدَّ نِطَاقُها. . .

وفي السنة التالية، وحينما أَزِفَ موسمُ عكاظ، خرج زهيرٌ في أهل بيته إلى عكاظ، كعادته في كل سنة، فالتقَى هنالك خالدَ بن جعفر، سيِّدَ هوازن، من بني عامر صعصعة، وكان رياحُ بنُ الأَشَلّ جَدَّهُ لأمه[1]، أو من بعض أخواله، فقال له خالد: لقد طال شَرُّنا منك يا زهير، فكُفَّهُ عنا! فقال زهير: أمَا واللَّهِ ما دامت لي قُوَّةٌ أُدْرِكُ بها ثأراً، فلن أكُفَّ. . . فانصرف خالد إلى قومه، وحرَّضَهم على زهير، والخلاصِ منه، وأمَرهم بالاستعدادِ وجَمْعِ الجموعِ لحربه. ولمَّا انفضَّ موسمُ عكاظ، وانْصَرمتِ الأشهُر الحرُم، سار زهيرٌ حتى نزل بقومه مَوْضعاً قريباً من بلاد هوازن، فحذَّرَهُ ابنُهُ قيس من ذلك الموضع قائلاً: أُنْجُ بنا من هذه الأرض، فإنّا قريبٌ من عدوِّنا! فقال له: ما الذي تُخَوِّفُني به من هوازن؟ أنا أعْلَمُ الناس بها. . . وكان خالد يَتَجسَّسُ أخبار زهير، فلما علم بمكانه، ركبَ إليه في جَمْعٍ من بني عامر، فاقْتَتَل الفريقان، وكان زهيرٌ شيخاً قد أَسَنَّ وضَعُفَ، فتمكَّن خالدٌ منه، وأَوْقَعهُ أرضاً، وخَرَّ فوقهُ يَعْتنقُه، فجاء فارسٌ آخَرُ معه، وضرب رأسَهُ بالسيف، فقُتِل. وسُمِّي ذلك اليومُ يومَ النَّفْرَاوَاتِ[2].

* * *

ثارتْ عَبْسٌ وذُبْيانُ وجميعُ غطفانَ لمقتل سيِّدها، وتنادَتْ لِلأَخْذِ

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٢٨٤.

(٢) الكامل في التاريخ: ١/ ٥٥٦ ـ ٥٥٨، والأغاني: ١١/ ٧٠ ـ ٨٨، والعقد الفريد: ٥/ ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، وأيام العرب في الجاهلية: ٢٣٥ ـ ٢٣٩، والمفضَّل: ٣/ ٢١٣، و ٤/ ٢٥٢، و ٥/ ٣٥٨، والعرب قبل الإسلام: ٣١٧ ـ ٣١٨. **والنفراوات**: موضعٌ بنَجْدٍ لعلّه في ناحية من نواحي سهل ركبة.

ذهب إليه، دعا به وأمَرَ بقتله، فقال له: أيها الملكُ إنك قد آمَنْتَنِي، تَغْدُرَنَّ بي! فقال: لا ضَيْرَ إن غدرتُ بك مَرَّةً، لقد غدرتَ أكثر، ثم أمَرَ الخِمْسِ أن يقتلَهُ ثأراً لأبيه، فقتلهُ، وأخذَ سيفَه، وكان يُسمِّيه «المغْلوب فأتى به سوق عكاظ، وجعل يعْرِضُه للبيع، ويُنَادي: هذا المَغْلوبُ س الحارثِ بن ظالم[٢]. . . ومن حقِّ ذلك السيفِ أن يُغَالَىٰ في ثَمنِهِ بعُكا فصاحِبُه كان فارساً من أشهر فُتَّاكِ العرب في الجاهلية.

* * *

● تعقيب:

هذه ثلاثون حالةً إجتماعيةً مختلفةً، فيها نحوُ خمسين خبراً من أ عكاظ، تُثبتُ أن ما كان يجري في عكاظ هو أكثر من التجارة، وأن التجّ وغيرَ التجار كانوا يحضرونها، من أجل الحاجات التجاريّة والاجتما والأدبيّة على السواء[٣]. وقد لا تكون هذه الأخبارُ كلُّها صحيحةً، ل مُعْظَمَها صحيحٌ من غير شكّ، وكافٍ ليُصَوِّرَ لنا ما كان يجري في عكاظ الأَنْشَطَةِ الاجتماعية، ودُخُولِ قبائلِ العرب بعضِها في بعض، وسَعْيِها الوحدة القوميّة واللغويّة.

---

(١) المَغْلُوبُ: عَلَب السيفَ والسِكّينَ والرمحَ، أي حَزَم مَقْبِضَهُ بالعِلْباءِ، وهو العَصَبُ يُشدُّ على أجْفانِ السيوف، وقيل: إن سيف الحارث سُمِّي مَغْلوباً لآثارٍ كانت في متْنه من كثر ضَربَ به.

(٢) المفضّل: ٣/ ٢١٤، والمحبَّر: ١٩٤ (وفيه أن النعمانَ أخو الأسود)، وإنما هو ابنُهُ، النعمان الثاني بن الأسود بن المنذر الأول (٥٠١ ـ ٥٠٥ م)، أما النعمان المذكور هنا النعمان الثالث بن المنذر الرابع (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م)، ويلاحظ أن بينهما نحو ثمانين سنة! شأن ذلك أن يجعل مقتل الحارث نحو (٥٩٠ م).

(٣) عكاظ والمربد: ٢٤.

الفصل الرابع

عكاظ محفل الشعراء والخطباء

المطلب الأول: صراع اللغات العربية

المطلب الثاني: عكاظ واختلاف اللهجات

- نهضة الشعر العربي في الجاهلية مدينة لعكاظ خاصة.
- الدور العكاظيُّ في تهذيبِ العربية وتوحيدِها كان من أحوال الحضارة عند العرب.
- تهذيب العربيّةِ وتوحيدها وارتقاؤها عمل «جماعي» أسهمت فيه عامة القبائل التي اشتهرت بالفصاحة.

المطلب الثالث: الحكومة بين الشعراء

المطلب الرابع: أثر النقد في توحيد لغة العرب

المطلب الخامس: الصورة الطبيعية لسوق عكاظ

١ ـ مذهب من بَخَس عكاظاً حقَّها

٢ ـ مذهب المُغالين في دور عكاظ.

الجاهليّين إلى العَالَم، وصَهْرِ عاداتِهم، ومَفاهِيمِ الشَّرَفِ عندَهم في بَوْتَقَةٍ واحدةٍ، ومَنْحِهم لغةً شِعْرِيَّةً مُركَّزَةً، تَسْمُو على جميع اللهجات، وتَسْتغرِقُها»[1]. وفي موضعٍ آخَرَ عَدَّ بروكلمان سوق عكاظٍ من مواسم الحجِّ، وذهب إلى أن القبائلَ كانت تحجُّ إليها من مَطارِحَ نائيَةٍ، وأن قيامَها كان مُرتبطاً بالاحتفالات الدينيَّة، ولذلك كانت مجالاً للتبادُلِ الثقافيّ والروحيّ عند العرب، فضلاً عن تَبادُلِ العُروض والبضائع التجاريّة.

* * *

المطلب الأول ـ صِرَاعُ اللغات العربيّة:

من المعلوم أن جُذور العربية الأُولى ما تزالُ مُغَيَّبَةً في مَجاهِل التاريخ، وجُلُّ ما تَوافَق عليه العلماءُ حتى اليوم، أن اللغات السامِيَّةَ، قبل تَفرُّقها، كانت ترجعُ إلى أصْل واحدٍ، ومن العَسِير تحديدُ ذلك الأصل، لأن المهدَ الأول للشعوب العربية، ما يزال مجهولاً غامضاً[2]... ولكن يُمكننا أن نُقرِّرَ أنه كان من تلك اللغة الأُمِّ، فِئَتَانِ رئيستَانِ، تنتمي إليهما كلُّ اللغات واللهجات العربية[3]. وهنالك اتِّجاهٌ علميٌّ قويٌّ، يعتمدُ على النقوشِ

---

(١) **كارل بروكلمان** ـ تاريخ الشعوب الإسلاميّة: ٢٦.

(٢) د. **صبحي الصالح** ـ دراسات في فقه اللغة: ٤٨.

(٣) **اللغات الساميّة**: يمكن تصنيفُها في فئتين، الأولى: **شمالية**، والثانية: **جنوبية**. أمَّا **الشماليةُ** فهي مجموعتانِ، **شَرقيّةٌ**: ومَوْاضعُها بلادُ الرافدين، وتشملُ: الأَكّادِيَّةَ، والبابليَّةَ، والآشوريَّةَ. **وغربيّةٌ**: وهي فرعان، الأولُ: **الآرامِيّةُ** بلهجاتها الكلدانيّة والسريانيّة، والثاني: **الكنعانيةُ** (أوجْرِيتيَّة، عِبريَّة قديمة، فينيقيَّة، مُؤابيَّة، إيبْلَوِيَّة). وأمَّا **الفئةُ الجنوبيةُ**، فَمَوْطنُها جزيرةُ العرب، وهي ثلاثة أقسام، الأولُ: **لغةُ اليمن**، وتشملُ لهجاتِ معِين وسَبَأ وحضرموت وقَتَبان والشِحْر والحبشة، وهي أكثرُ اتصالاً بالأكادِيَّة. والثاني: **العربيّةُ البائدةُ**، وتشملُ اللحيانيَةَ والثَّمُوديَّةَ والصَّفَوية. والثالثُ: الفُصْحى الباقيةُ بلَهْجتَيْها الحجازيّة والتميميّة.

اليَمَنِيَّةِ، المكتشفةِ في العصر الحديث، يجعلُ اليمنَ مَهْدَ اللغة العربية الأُمّ، ويجعلُ لغةَ اليمن أصْلاً لِلُغَةِ الحجاز. فقد وُجِدت في تلك النقوشِ، مئاتُ المُفْرداتِ المُشْتَركةِ بين اللغتين، في الرَّسْم والمعنى... ومع أن لغةَ الحجاز أَحدثُ اللغاتِ العربيةِ القديمةِ، ولَهجاتِها، نَشْأةً وتاريخاً، لكنها أكثَرُها شَبَهاً باللغة الأم، وربما كان ذلك لأن عربَ الحجاز ظَلُّوا في مَواطِنِهم لم يَبْرحُوها إلى المَهَاجِرِ، مثلما فَعَلَ إخوانُهم أهلُ الجنوب في هجرتهم المستمرَّة إلى الحجاز، والشامِ، وبلادِ الرافدين، والحبشة وغيرها من البلدان.

على أن اللغة العربية، عُموماً، لم تَبلغْ في اليمن من الفَصاحَةِ، والتهذيب، وانتظام القواعد، ما بَلَغَتْهُ في الحجازِ، خاتِمَةِ مَطافِها، بعد دَوْرَتها التاريخيَّة الكبرى، ابتداءً من جنوب جزيرة العرب، فبلادِ الرافدين، ثم إلى بلاد الشام، حيث انتهت بغَلَبَةِ الآرامية على سائر أخواتها، لغاتِ الشمال، في العراق والشام...

وفي صراعٍ لُغَوِيٍّ طويل، بدأ منذ ما قبل الميلاد، واستمرَّ نحواً من خمسة قرون، قَضَتِ العربيَّةُ الحجازيَّةُ على اليمنيَّة بكل لهجاتها، وتحقَّقتِ الوحدةُ اللغويَّةُ حينئذٍ بين العرب في الجزيرة، ولا سيما بعد انْهِيارِ دُولِ الجنوب، وانتقالِ مراكز التجارة الدوليَّة إلى الحجاز، وغدتْ مكَّةُ العاصمةَ القوميَّةَ للعرب جميعاً، وسوقُ عكاظِ المجمَعَ العَامَّ لقبائلهم، والمَعْرِضَ الكبيرَ لمتاجرهم...

ولا شك في أنه كان لعُكاظٍ أثَرٌ خطيرٌ في وحدةِ العرب، ووحْدَةِ لغتهم وثقافتهم، إذ تَداعَتْ ثقافةُ اليمن قبل ظهور الإسلام بزمنٍ ليس قصيراً، «فماتتْ لغةُ الجنوب، واحتلَّتْ لغةُ الشمالِ، أي الحجازِ، مكانَها، وساعد على هذا الانقلاب الأسواقُ الأَدَبيَّةُ، التي كان الشمالُ قد أَلِفَها، كسوق عكاظٍ، ومَواسمُ الحجِّ السنويِّ، التي كان عربُ الجاهليّة يقصدون الكعبةَ

فيها، والعلاقاتُ التجاريَّةُ التي أنشأتها مكَّةُ مع غيرها من البُلدان»[1]. . . وكانت مَكَّةُ مَثَابَةَ الحجَّاجِ من مختلف طوائف العرب، وكانت مواسمُ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، التي تسبقُ موسمَ الحجِّ، مُلْتَقَى الشعراءِ والخطباءِ والحكماءِ، إلى جانب التجّارِ، وذوي المصالح المختلفة. ويُضَافُ إلى ذلك ما كان من هجرة بعض قبائل اليمن إلى الشمال، واختلاط مَنازلهم بمنازِلِ أهله. . . فكان من شأن ذلك كلِّه أن خَرَجَتِ العربيَّةُ الحجازيَّةُ أكثَرَ اتِّساعاً وانفتاحاً، وأشدَّ عُمقاً ودِقَّةً، وما هو إلا أن نَزَلَ القرآنُ بها، حتى بدأت معركتَها الأخيرةَ ضِدَّ الآراميَّة، فصَرَعَتْها، وصارت لها السيادةُ المُطْلَقَةُ في جميع أنحاءِ جزيرة العرب وبلادِ الشام والعراقِ، ولم يَنْجُ من سيطرتها سوى مناطق قليلةٍ مَعْزُولة، ظلَّت على الآراميَّةِ أو العِبْريَّة.

والواقع أن الإسلام «صادَفَ حين ظُهورِهِ، لغةً مِثاليَّةً، مُصْطَفاةً، مُوَحَّدةً، جديرةً أن تكونَ أداةَ التعبير عند خاصَّةِ العربِ، لا عامَّتِهم، فزاد من شُمولِ تلك الوحدةِ، وَقوَّىٰ من أثَرِها، بنُزولِ قرآنه بلسانٍ عربيّ مُبِين. . . ولا شكَّ في أن الوحدةَ اللغويَّة كانت قائمةً قبل ظهور الإسلام، وهذا لا يعني أن الفُروق بين اللهجات العربيَّة زالتْ نهائياً، وإنما يُؤكِّدُ أن الاختلافَ لم يَعُدْ عميقاً وصارِخاً»[2]. . . ذلك أن سوق عكاظٍ، والمواسمَ الأُخرى، أزالت قسماً كبيراً من تلك الفُروق، وقَضَتْ لغةُ القرآن على ما بقي منها.

* * *

المطلب الثاني ـ عُكاظٌ واختلافُ اللهجَات:

كانت لقبائل العرب في الجاهلية لهجاتٌ مُتَعدِّدةٌ، مُتَبايِنَةٌ في أشكالِ

---

(١) تاريخ العرب: ٨٥.

(٢) دراسات في فقه اللغة: ٥٩.

الفُروقِ التي كانت بينها. ولكنها فُروقٌ «لم تكن في الأصل فروقاً ضخمةً، ولم يكن بينها هذا المدى المتَّسِعُ. كانت لهجاتٍ مُتَقارِبةً حيناً، ومُتَضامَّةً حيناً آخَر، لا يكادُ يُجاوِزُ الخلافُ فيها بعضَ الألفاظ، وبعضَ الصِّيَغ، ولا يكاد يَعْدُو بعضَ هذه الأساليبِ في الوقْفِ أو الحَذْفِ، وفي الهَمْزِ أو التخفيف، وفي إبْدال حرفٍ بحرفٍ آخَرَ يُقَارِبهُ في المَخْرج[1]... وعلى الجُمْلةِ كانت فروقاً صَوْتيةً، ترجع إلى اختلاف الأصوات، لا إلى اختلافِ البِنْيَة، ولا إلى التبايُنِ في التركيب. ومن المؤكَّد أن العرب حين كانوا يَتَباعَدون في المكان، بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، كانوا يستطيعون أن يتبادلوا الحديثَ مُتَفاهِمين، وأن يتَناقَلُوا الخبرَ أو القصَّةَ مُطْمئِنِّينَ، وأن يروي بعضُهم شِعْرَ بعضٍ، وأن يتذوَّقَهُ دون مَشَقَّة»[2]. ذلك أن مجتمعَ الجاهلية لم يكن جامداً، إنْطِوائياً، تتحاجَزُ فيه القبائلُ، وتتباعَدُ حتى كأنَّ كلَّ قبيلةٍ منها أُمَّةٌ مُسْتقِلَّةٌ، لا يكاد يكونُ بينها وبين مَنْ حولَها إلا الغاراتُ، أو الحَذَرُ من الغارات... وإنما كان مجتمعاً مُتَحرِّكاً، مُنْفَتِحاً، تَسوقُ القبائلَ فيه حركةٌ مُسْتمِرَّةٌ إلى التخالُطِ والتقارُب، وتَصِلُ بينها بالنَّسَبِ، والجِوارِ، والحِلْفِ، والمصالح المشتركة... إلى حركةٍ أُخْرى، قلَّما هَدَأتْ، لكثيرٍ من قبائل الجنوب، في الهجرة إلى الشمال، والاستقرارِ في مواضِعَ مختلفةٍ منه، كهجرة الأزْدِ الكبرى، التي توزَّعَتْها الحجازُ وعُمَانُ واليمامةُ والبحرين والشامُ والعراقُ... إلى حركة دائمةٍ لأبناء كلِّ قبيلةٍ داخِلَ

---

(١) من ذلك ما كان بالإبدال، كقولهم في الخِباء: «خِباع». ومنها ما كان بتقديم حرف في الكلمة، كقولهم في صاعقة: «صاقعة». ومنها أفعال القلب، كقولهم في يئسَ: «أيِسَ». ومن ذلك ما كان في أَوْجُه الإعراب، كنصبِ خَبرِ ليس عند الحجازيين، ورَفعهِ عند قبائل تميم إذا اقترن بإلاّ.

(٢) د. شكري فيصل ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول: ٢٤٥.

قبيلتهم، وخارِجَها مع إخوانهم من أبناء القبائل الأُخرى، يتلاقون في قوافل التجارة، ومراكزِها الكبرى، ومَحطَّاتِها الرئيسة، وفي مواسم الحجِّ، ومواسم الأسواق كعُكاظٍ ومجنَّة وذي المجاز وغيرها(١) . . . وقد كان من شأن ذلك كله أن يكون سبيلاً إلى الوحدةِ اللغويَّة عند عرب الجاهليَّة، وإن ظلَّت بين لهجاتهم فُروقٌ، ليست غالباً أكثرَ من عُيوبٍ في نُطْق بعض الحروف، وكان منها: عَنْعَنَةُ تميم، وكَشْكَشَةُ ربيعة، وكَسْكَسَةُ هوازِنَ، وتضجُّعُ قَيْس، وتَلْتَلَةُ بَهْرَاءَ، وعَجْرفيَّةُ ضبَّة، وغَمْغَمَةُ أو عَجْعَجَةُ قُضَاعَة، وطُمْطُمَانِيَّةُ حِمْيَرَ، ولَخْلَخَانيَّةُ عُمَانَ والشِحْر(٢)، وهي جميعاً عيوبٌ في النُطْق لا أكثر(٣) . . .

وقد ذهب أهلُ الأخبار، وكثيرٌ من الأدباء إلى أن قريشاً ارتفعت بفصاحتها عن كل تلك العيوب(٤)، حتى غدت لغتُها أفضلَ اللغات، ولهجَتُها أحسنَ اللهجات(٥)، فنزل القرآنُ الكريمُ بها! والواقع أن القرآن إنما أُنْزِلَ

---

(١) أُنْظرِ المرجعَ نفسَه: ٢٢ ـ ٢٩.

(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٣) **العَنْعَنَةُ**: يقولون عَنَّ عبد الله قائمٌ بدلاً من أنَّ، فيجعلون الهمزةَ عَيْناً إذا وقعت في أول الكلمة. **الكَشْكَشَةُ**: يجعلون ما بعد كاف الخِطَاب في المؤنَّث شِيناً. **الكَسْكَسَةُ**: يجعلون بعد كاف المذكَّر أو مكانها سِيناً. **التَّضَجُّعُ**: الإمالَة والخَفْض. **التَّلْتَلَةُ**: كسر أوائل الحروف، كقولهم: تِعْلمون وتِعْقلون وتِصْنَعون. **العَجْرفيَّةُ**: التقعُّر في الكلام. **الغَمْغَمَةُ**: عدم إظهار بعض حروف الكلمات أثناء الكلام. **العَجْعَجَةُ**: يجعلون الياء جِيماً مع العَيْن، كقولهم: راعِج في راعي، ومَعج في معي. **اللخلخانيّة**: كقولهم مَشَا الله بدلاً من ما شاء الله. **الطُمْطُمَانيّة**: كقولهم طابَ امْهَواء بدلاً من طاب الهواء، يجعلون الميمَ بدلَ أل التعريف. ومنه: «وفدُهم على رسولِ الله وقد سألوه: هل مِنَ امْبِرِّ امْصِيَامُ في امْسَفَرِ؟ أرادوا: هل من البِرِّ الصيامُ في السفر.

(٤) مجالس ثعلب: ١/ ٨٠ ـ ٨١.

(٥) أدبيات اللغة العربية: ١/ ١٣، وأسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٠٦، ود. طه حسين ـ في الأدب الجاهلي: ١٣٦.

شعر النابغة، في ابتداءِ أمره، شيءٌ من «الإقواء»، فقال: وردتُ يَثْرِبَ، وفي شِعْري بعضُ العاهَةِ، فصَدَرتُ عنها وأنا أشْعَرُ الناس[1]... وكان النابغةُ من شُعراءِ الطبقة الأولى، المُقَدَّمين على سائر الشعراء[2]. وقد نَقل ابنُ منظور عن أبي حنيفة، أن النابغة كان يأتي المدينة (يثرب)، ويُنْشِدُ بها الناسَ، ويسمعُ منهم، وكانت بالمدينة جماعةُ الشعراء[3]... وهذا دليلٌ على أن الفصاحةَ، وسلامةَ اللغةِ، وقَواعِدَ الشِعْر، كانت مُتَوافِرةً في الأَوْس والخَزْرَج، وأنهم كانوا يمارسون نقداً على الشعراء... فأين تَفَرُّدُ قريشٍ في ذلك كلِّه؟

يُضاف إلى ذلك أن معظم الخطباء الأبْيِنَاءِ كانوا من تميم أو إيَادٍ، وفي هذا قال الجاحظ: «إن لإيَادٍ وتميم في الخُطَبِ خصْلةً ليست لأحدٍ من العرب، لأن رسول الله هو الذي روى كلامَ قُسِّ بنِ ساعدة، ومَوْقفَهُ على جَمَلِهِ بعُكاظ، ومَوْعِظتهُ، وهو الذي رواهُ لقريشٍ وسائرِ العرب، وهو الذي عَجِبَ من حُسْنِهِ، وأَظْهَرَ من تصويبه. وهذا إسْنَادٌ تعجزُ عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمالُ، وإنما وَفَّق اللَّهُ ذلك الكلامَ لقُسِّ بن ساعدة، لاحْتجاجِه للتوحيد، ولإظهارِهِ معنى الإخلاص، وإيمانِهِ بالبعث، ولذلك كان خطيبَ العرب قاطبةً»[4]. وعَدَّهُ في موضعٍ آخَر من الشعراء البُلَغَاءِ، والخُطَباءِ الأبْيِنَاء، والحُكَّام الرؤساءِ[5]... وقال أيضاً: وكذلك ليس لأَحَدٍ في ذلك

---

(١) الأغاني: ١١/ ٩ ـ ١٠، والشعر والشعراء: ١٦٨، ولسان العرب: ١٥/ ٢١٠ (قوا).
والإقواء: عَيْبٌ في الشعر، تختلف فيه حركات الرَّوِيِّ، فبعضُه مرفوعٌ وبعضُه منصوبٌ أو مجرور، ولكنه لا يكسر الوزن.

(٢) الأغاني: ١١/ ٣.

(٣) لسان العرب: ٢/ ٥٦٥ (قمح).

(٤) البيان والتبيين: ١/ ٦٠.

(٥) المرجع نفسه: ١/ ٥٢، ٢٨٣.

مثلُ الذي لبني تميم. لقول النبيِّ في فصاحة عمرو بنِ الأهْتم: إن من البيان لسحراً[١]. وذُكِرَ أيضاً أن عبد الملك بن مروان قال يوماً: هل تعرفون حَيّاً، فيهم أخْطبُ الناس، وأَجْوَدُ الناس، وأشْعَرُ الناس؟ هم إِيَادٌ، لأن فيهم قُسَّ بنَ ساعدة، وكعبَ بنَ مَامَة، وأبا دُؤادٍ الإيَادِيَّ[٢].

وذهب د. جواد علي إلى أن بناءَ العربية شيدَ معظَمُه من لُغاتِ تميم وقَيْس وأَسَد، وهي القبائلُ التي تجاورتْ في مواضع سَكنِها، وتوغَّلتْ بطونُها في بَوادي العراق والبحرين واليمامة ونَجْدٍ، وأن لقبائلِ هُذَيْلٍ وثقيفٍ سهماً مَوْفوراً في ذلك، وتبيَّن له أن قريشاً كانوا قد داوَرُوا بينهم لغات العرب جميعاً، وتداوَلُوها، وأخذوا ما اسْتَملَحُوهُ منها، في الأسواق ومَواسمِها، وفي التنقُّل بقوافل التجارة، وأن تميماً كانت أكثرَ شهرةً منهم في بضاعة الكلام[٣]... أي أن دَوْرَ قريش في تهذيب العربية عموماً، وفي سوق عكاظ خصوصاً، كان أقلَّ من دَوْرِ تميم، وأنه كان دَوْرَ المُتَأثِّرِ أكثرَ منه مُؤَثِّراً، وهو في مكَّة أظْهَرُ منه في عكاظ. ومن ذلك قولُ حمّاد الراوية: «كانت العربُ تعرض أشعارها على قريش، فما قَبِلوهُ منها كان مقبولاً، وما رَدُّوهُ منها كان مَرْدُوداً، فقَدِم عليهم عَلْقَمَةُ بنُ عَبَدَة التميمي[٤]، فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمتَ وما اسْتُودِعتَ مكتومُ   أم حَبْلُها إذ نَأَتْكَ اليوم مصرومُ

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٦٠ ـ ٦١.

(٢) الأعلام: ٢/ ٣٢.

(٣) المفصَّل: ٨/ ٦٦٠ ـ ٦٦١، و ٨/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

(٤) **علقمة بن عَبَدَة الفَحْل**: من بني زيد مناة بن تميم. شاعر جاهليٌّ مُجيد، وكان من صُدور الجاهلية وفُحولها. لُقِّب بالفَحْل لأنه نازع امرأ القيس الشعرَ، وكان صديقاً له، ورَضِيا حُكمَ امرأةِ امرىء القيس، فقال كلٌّ منهما قصيدةً في وصف الخيل، فحكمت لعلقمة، فطلَّقها امرؤ القيس، وخَلَفَ عليها علقمة.

مِثَاليَّةٌ، هي لغةُ الشِعْرِ والخَطابة، خَلتْ من عُيوب اللهجات وهَنَواتِها، وتكوَّنتْ من خير ما في تلك اللهجات من المُفْردات والتعابير، فصارت لغةَ المجتمعات الأدبية. ولو أن شاعراً ضَمَّن شِعرَهُ، يومئذٍ، شيئاً من عيوب لهجته الخاصَّة، كالكَشْكَشَةِ أو العَجْعَجَةِ، وغدا يُنْشِدُهُ في عكاظ، لصَيَّروهُ أُضْحُوكَةً، من التهكُّم به، والتندُّرِ عليه[١].

ومن الطبيعيّ أن التفاوُتَ في اللهجات والمُفْرداتِ، كان يَقِلُّ أو يكثُرُ، تَبَعاً للعلائق التي تربطُ بين قبائل العرب، وتَبَعاً لاختلاف عوامل المكان والزمان والاجتماع، التي تُؤثِّرُ أعظمَ تأثيرٍ في اللغة... ولمَّا عَظُمَ شأنُ عكاظ، وطَفِق العربُ من كل الأحياءِ يَؤُمُّونها سعياً وراء مصالحهم، قَصَدَ إليها الشعراءُ والخطباءُ من كل مكانٍ في بلاد العرب، وكان معظمُ هَمِّهِم انتقاءَ الألفاظِ الفصيحةِ[٢]، المعروفةِ عند أكثر العرب، طَمعاً في أن تنتشِرَ أقوالُهم بينهم، وأن تحوزَ الرِضَى والاسْتِحسَانَ منهم كافةً. فكان الشعراءُ والخطباءُ بذلك دعاةَ الوحدة اللغوية، والعاملينَ على تحقيقها. ولو اتَّبَعَ كلُّ

---

(١) دراسات في فقه اللغة: ٩٦.

(٢) ذكر الجاحظ في البيان والتبيين (٧/٢): أن البلغاء من الشعراء والخطباء العرب، لم يكونوا يقولون كلَّ ما يَردُ على خواطرهم، وإنما كانوا يُنغّمون ويُجَوِّدون حتى يظفروا بالكلام الجيد البليغ، وأن «من شعراء العرب مَنْ كان يَدَعُ القصيدة تمكث عنده حَوْلاً كَرِيتاً (تامَّ العَدَد)، وزمناً طويلاً يُرَدِّدُ فيها نظره، ويُجيلُ فيها عقله، ويُقلّب فيها رأيه، اتهاماً لعقله، وتتبّعاً على نفسه، فيجعل عقله ذِمَاماً على رأيه، ورأيَه عياراً على شعره... وكانوا يُسمّون تلك القصائد: الحوليّات والمقلَّدات والمنقَّحات والمُحْكَمات، ليصير قائلُها فَحْلاً خِنْذيذاً (مُجيداً)، وشاعراً مُفْلقاً».

ويلتقي مع هذا الاتجاه، تسميةُ المعلَّقات بالمُذهَّبات، لأنها فازت بإجماع الآراء على أنها أجودُ الشعر لفظاً وأسلوباً ومعنى، فَدُوِّنت بماء الذهب. وهذا يؤكّد أن الشعر عند العرب لم يكن فطرةً وحسب، وإنما كان دَرْساً ودَأْباً، وجهوداً مُستمرةً من أجل التجويد والتزويق.

شاعرٍ، أو خطيبٍ، لهجةَ قومِهِ على ما بها من العُيوب، لم يجدْ مَن يَسْتحسِنُها غيرَهم، ولم تَرْوِها القبائلُ الأخرى، فتفوتُه بذلك الشهرةُ، والافْتِخارُ بها.

ويُفْهم من بعض موارد الأخبار والأدب، أن نشأةَ المُعَلَّقاتِ الشعريَّة اقترنتْ بسوق عكاظ، التي كانت مَجْمعاً أدَبِيّاً، أَمَّهُ فحولُ الشعراء، يتبارُونَ فيه بأشعارهم، ولم يكن للشاعر وقتئذٍ أن يطمحَ إلى مَجْدٍ أكبرَ من أن يَفُوزَ في هذه السوق بإعجابِ الناس، وتقديرهم... «فسوقُ عكاظ، في جاهليَّةِ التاريخ العربيّ، كانت أشْبَهَ شيءٍ بأكَّادِيميَّةٍ كبرىٰ في بلاد الغرب. وكان الفائزُ في عكاظ يُبَاهي بنفسه مُبَاهاةَ البطَلِ المُجَلِّي من أبطال الإغريق في ألعابهم الأُلِمْپِيَّةِ، بل ليس بين نائلي جائزة نُوبل اليومَ مَن يزيدُ فخرُهُ على فخرِ أولئك الفائزين في عكاظ الجاهلية»[1]. ويذهبُ الرواةُ إلى أن أوّلَ قصيدةٍ نالتْ إعجابَ المحكَّمِينَ بعُكاظ، مُعَلَّقَةُ امْرِىءِ القَيْس بن حجر الكِنْديّ[2]، المتوفَّىٰ نحو سنة (٥٦٠ م)، ومَطْلَعُها:

قِفَا نَبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسِقْطِ اللِوَىٰ بين الدَّخُولِ فحَوْمَلِ

ومرَّتِ الإشارةُ أيضاً إلى أن عمرو بنَ كلثومٍ التغلبيَّ، بعدما فَتَك بالملك عمرو بنِ هند اللَخْمِيِّ، نحو سنة (٥٦٩ م)، وقال في ذلك مُعلَّقَتَهُ المشهورةَ:

ألاَ هُبّي بصَحِنك فاصْبَحينا   ولا تُبقي خُمورَ الأَنْدَرِينَا[3]

---

(١) تاريخ العرب: ١٣٧.

(٢) المرجع نفسه: ١٣٨.

(٣) الصحن: القدح الواسع. **فاصبحينا**: فاسقينا الصَّبُوحَ وهي الخمرة تُشرب في الصباح. الأندرين: بلدة كانت جنوبي حلب اشتهرت بالخمور الجيدة.

سأنشُرُ ما حييتُ لكم كلاماً   يُنشَّر بالمَجَامِعِ منْ عُكاظِ[1]

فكلا الشاعِرَيْن يتمنَّىٰ أن تَدِبَّ أشعارُهُ إلى سوق عكاظ، فيَتَسَنَّى لها عندئذٍ أن تَذِيعَ في الناس، ويتناقَلَها الرواةُ في أحْياءِ العرب، وهذا لا يمكن أن يكون، ما لم تكن بلُغَةٍ يَفْهَمُها كلُّ العرب... وهي اللغةُ الأَدَبيَّةُ المِثَاليَّةُ المُوَحَّدةُ، التي كانت تعملُ لها عُكاظُ، ومواسمُ الحجِّ والأسواق. وما نهضةُ الشعرِ العربيِّ، في عصر الجاهليَّة المُتَأخِّرةِ، إلا ثَمَرةٌ من ثمرات أعمال النَّخْلِ والاصْطِفاءِ، والتهذيب والتوحيد، التي اضْطَلَعَت سوقُ عكاظِ بالنصيب الأَوْفَى منها في لغات العرب ولهجاتهم. وفي ذلك قال الأفغانيُّ: «إن نهضةَ الشِعْر مَدِينةٌ للأسواق، بل مَدِينةٌ لعُكاظِ خاصَّةً، عُرِفَ لها هذا الأمرُ منذ الجاهلية حتى اليوم...»[2]، وعَدَّ التوحيدَ أعظمَ آثارها قبل البَعْثَةِ: التوحيدَ الذي جرى بين قبائل العرب من عامَّة الأقطار، والتوحيدَ اللغويَّ الذي كان للشعراء والحُكَّام فيه، على مدى سنين مُتَطاوِلَةٍ، أَبْلَغُ الأَثَرِ في انتقاءِ الألفاظ والأساليب، وشُيُوعِها بوساطة الرواة في القبائل[3]...

ولا بُدَّ من الإشارة أخيراً، إلى أن عمل عكاظ على التوحيد والتهذيب، لم يكن مَقْصُوراً على أدب الشعراء والخطباء، بل كان يشملُ أَنْماطاً مُتَعدِّدةً من فنون الكلام، في الاجتماع، والتجارة، ومختلفِ شؤون الحياة، فكان من اللازم أن يجري الكلامُ فيها بألفاظٍ ولهجةٍ يُمكِنُ للجميع فَهْمُها من غير عُسْرٍ.

* * *

(١) لسان العرب: ٧/ ٤٤٦ (شوظ)، والمفضَّل: ٩/ ٧٤٤.

(٢) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٠٨.

(٣) المرجع نفسه.

أقرانه، بين يَدَيْ قاضي الشعراء، فَرَحاً للقبيلة كلِّها، ببُلوغِهِ المقدرةَ الشعريَّة التي تُؤهِّلُه للدفاع عنها، والحديثِ باسمها، والتغنِّي بمفاخرها.

«ويبدو أن من الشعراء النابهين، مَن كان يقومُ في هذه السوق مقامَ القاضي، الذي لا تُدْفعُ حكومتُه»[1]، وقد أسْعَفَتْنا مواردُ الأخبار بمعرفة واحدٍ منهم، إذ أَطْبَقَتْ على أن الحكومة بين الشعراء، في سوق عكاظ، كانت للنابغة الذبياني، في نحو النصف الثاني من القرن السادس للميلاد، ومَطلع السابع. وذكرتْ أنه كانت تُضْرَبُ له هنالك قبَّةٌ حمراءُ من أَدَمٍ، فتأتيه الشعراءُ، فتعرضُ عليه أشعارَها، وتُناقِشُه الرأيَ في فصاحة ألفاظها، وقُوَّةِ تعبيرها وبيانِها، فينقدها نقدَ العالمِ الخبيرِ بأسرار الفَصاحة والبيان، ثم يُصدرُ حُكمه.

وكان أوَّلَ مَن أَنْشدَهُ، في أحد المواسم، أبو بصير الأعشى بنُ ميمون. . . وكان حسَّانُ بنُ ثابت، أحسَّ من نفْسِهِ القدرةَ يومئذٍ على عَرْضِ أشعاره في سوق الشعر، فجاء إلى عكاظ في ذلك الموسم، ودخَل على النابغة، فأنشدَهُ قصيدتَهُ التي يقول فيها:

نُسَوِّدُ ذا المالِ القليلِ، إذا بَدَتْ ... مُروءَتُهُ فينا، وإنْ كان مُعْدَمَا
وَلَدْنَا بني العنقاءِ، وابنَيْ مُحرِّقٍ ... فَأَكْرِمْ بنا خالاً، وأكرمْ بنا ابْنَمَا[2]

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ: ١١.

(٢) **العنقاء**: هو ثعلبة بن عمرو. **ومحرِّق**: هو أخوه الحارث بن عمرو (يقال إنه أول من عاقب بالنار)، ومن ثعلبة والحارث تفرعت الأوسُ والخزرجُ. **إبْنَما**: إبناً والميم زائدة. يريد أنهم يُسوِّدون صاحب المروءة وإن كان فقيراً مُعْدَماً، ويفخر بقبيلتَيْ الأوس والخزرج.

وإنّا لَنقْري الضيفَ، إن جاءَ طارقاً   من الشحم، ما أمْسَى صحيحاً مُسَلّماً
لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى   وأسيافُنا يَقْطُرنَ من نَجْدةٍ دَما(١)

ثم جاءت الخنسَاءُ السُّلَميَّةُ، فأنشَدَتْهُ قصيدةً ترثي فيها أخاها صخراً، وتقول:

قــذىً بِعَيْنَيْـكِ أم بـالعيـن عُـوَّارُ   أم ذَرَّفَتْ إذ خَلَتْ من أهلها الدارُ
تبكي خُنَاسٌ على صَخْرٍ، وحقَّ لها   إذ رابَهـا الـدهـرُ، إنّ الـدهـرَ ضَـرَّارُ
وإنّ صخــراً لتــأتــمُّ الهُـدَاةُ بــهِ   كــأنــه عَلَــمٌ فــي رأسِــهِ نــارُ
حَمّــالُ ألْــوِيَــةٍ، هَبّــاطُ أوْدِيــةٍ   شَهّـادُ أنْـديـةٍ، للجيـش جـرّارُ(٢)

وكان قاضي الشعراءِ، النابغةُ، حَكَمَ للأعْشَى، فالتَفَتَ إلى الخنساءِ، وقال لها: واللَّهِ، لولا أن الأعشَى أبا بَصيرٍ أنشدني قبلَكِ، لَقُلْتُ إنكِ أشْعَرُ الإنْسَ والجِنِّ، أنتِ واللَّهِ أشْعَرُ من كلِّ ذاتِ مَثَانَةٍ... حَكَمَ لها على الشاعرات فقط، فقالت: واللَّهِ ومِنْ كلِّ ذي خِصْيَتَيْنِ! فحَمِيَ عندئذٍ حسانُ بن ثابت، وغَضِبَ اعتقاداً بأن النابغة ظَلَمهُ، واسْتَلَبهُ حقَّه في الفَوْزِ، فقال: واللَّهِ لأنا أشْعَرُ منكَ ومن أبيك!... فقام النابغةُ بهدوءٍ، وقَبَضَ على يَدِ حَسَّان، وسأله: حيث تقولُ ماذا؟ قال: حيث أقول:

---

(١) نقري الضيف: نكرمه. طارقاً: زائراً بالليل، وقِرَى الضيف في الليل أدْعَىٰ للثناء على المضيف، وفخرِه. الجَفَنات: جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة. الغُرُّ: البِيضُ. يفخر بالكرم والشجاعة.

(٢) عَلَم: جبل. تسأل الخنساءُ نفسها في البيت الأول: ما هذه العيون الدامعة؟ أهو قَذَى أصابها، أم بها مرضٌ؟ أم أنها دمعت حزناً على خلوّ الدار من أهلها؟ ثم قالت: إن الخنساء تبكي أخاها صخراً، وهو حقّ لها، فقد رابها الدهرُ، والدهرُ ضَرَّارٌ، ولماذا لا تبكي وصَخرٌ كان إماماً للهُدَاة، كأنه جبلٌ أُوقدتْ نارٌ على رأسه، وقد عَرَفه الناسُ شُجاعاً مِقْدَاماً يقودُ الجيوش، ويحمل ألويتَها.

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى   وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا[1]

فقال النابغة: إنك لشاعِرٌ، ولكنك أقْلَلْتَ جِفَانَكَ وأسيافَكَ، وفَخَرْتَ بمن وَلَدْتَ، ولم تَفْخَرْ بمن وَلَدَك، وقُلتَ: بالضُّحَى، ولو قُلتَ: بالدُّجَىٰ، لكان أَبْلَغَ في المديح، لأنَّ الضيفَ في الليل أكثرُ، وقلتَ: يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دَمَا، فدَلَلْتَ على قِلَّةِ القتل، ولو قلتَ: يَجْرِينَ، لكان أكثرَ لانْصِبَابِ الدَّمِ! وأنتَ يا بْنَ أخي لا تُحْسِنُ أن تقولَ مثل قولي:

فإنك كالليلِ الذي هو مُدْرِكي   وإنْ خِلْتُ أن المُنْتَأىٰ عنك واسعُ

فخَنَسَ حسَّانُ لقوله، ومضى في طريقه[2].

* * *

ويبدو أن النابغةَ الذبيانيَّ كانت له شُهْرَةٌ معروفةٌ في عالم الشِعْر، فضلاً عن غَلَبتِهِ على مُعَاصرِيه من الشعراء، فكانوا يعترفون له بالمقْدرةِ والتفوُّق، ويحترمون أحكامَهُ في أشعارهم، إيماناً منهم بسَلامة ذَوْقِهِ في النقد. ومن الممكنِ أن نرى في مُلاحَظات النابغة، أنه كان شديدَ الثقة بمقدرته الشعريَّة، وأنه كان، على الأغلب، يَدْرسُ شِعرَهُ، ويَنْقدُه قبل عَرْضِهِ على الناس، ويعرفُ ما يختارُ منه إذا وقف مُنْشداً بعُكاظ... ذكر الأصفهانيُّ أن النابغة قَدِمَ يوماً سوقَ عكاظ، فنَزَلَ عن راحِلَتِهِ، وجلس على رُكْبَتَيْهِ، ثم اعْتَمَدَ على عَصَاهُ، وأَنْشَأَ يقول:

---

(١) إن جمعَ الجَفْنَةِ والسيفِ على جَفَناتٍ وأسْيافٍ هو لأدنى العدد، أما أكثَرُه فهو: جِفَان وسُيوف.

(٢) الأغاني: ١١/٦، و ٤/١٧٠، والشعر والشعراء: ١٦٧ ـ ١٦٨ و ٣٤٤، والخنساء لبنت الشاطىء: ٤٧ ـ ٤٨. ود. محمد طاهر درويش ـ حسان بن ثابت: ٢٤٦ ـ ٢٤٩.

المطلب الرابع ـ أَثَرُ النقْدِ في توحيد اللغة:

يبدو واضحاً أن في نَقْدِ النابغة للشعراء، وتَعاليقهِ على أقوالهم، ما يُؤكِّدُ أن شعراءَ الجاهلية كان بعضُهم يُراجِعُ بعضاً فيما يُنشِئُه من الشعر، وأنهم كانوا يُبْدون، في ثنايا مُراجَعاتهم، بعضَ الآراء في الألفاظ والمعاني. وكان أَحَدُهم يفخرُ بجَوْدَةِ شعره على الآخَرين، فكانوا يتنافَرون في ذلك، أي يتحاكمون، كما يتنافَرُ الأشرافُ في سُؤْدَدِهم ومَجْدِهم، إلى المحكَّمين ليقْضُوا بينهم[1]، فكان هؤلاء يُفَضِّلون من سَهُلَتْ عبارتُه، وكان لألفاظِهِ النصيبُ الأَوْفَرُ من الفصاحة والبيان، مع التحرُّزِ من عُيُوبِ النُطْقِ[2]، والابتعادِ عن الكلام الحُوشِيِّ. وهذا من شأنه العملُ على توحيد العربية... وليس هذا وحَسْبُ، بل كان الشعراءُ حينئذٍ «يَسُوقُونَ أحياناً ملاحظاتٍ، لا ريب في أنها أصلُ الملاحظات البيَانيَّة في بلاغتنا العربيَّة. ومَن يتصَفَّحْ أشعارهم يجدْها تَزْخَرُ بالتشبيهات، والاستعارات، وتَتَناثَرُ فيها من حينٍ إلى حينٍ ألوانٌ من المُقَابَلات والجِناسَاتِ، مما يَدُلُّ دلالةً واضحةً على أنهم كانوا يُعْنَوْنَ عنايةً واسعةً، بإحْسَانِ الكلام، والتفَنُّنِ في مَعَارِضِه البليغة»[3]، رغبةً في الفَوْز بإعجابِ العرب في مجامِعِهم العامَّةِ الكبرى كعكاظ. ولو نظرنا في نقد النابغة لرأينا أنه «نقدٌ سَدِيدٌ، تناول فيه مسألتين: الأولى لفظية، والثانيةُ معنويَّة. فأمَّا اللفظيَّةُ فإن حَسَّاناً لم يجمع الجفناتِ والأَسْيافَ جمعاً يدُلُّ على الكثرة، والعربُ تَسْتَحِبُّ المُبَالغةَ في مثل هذا الموقف، حين يفخرُ الشاعرُ

---

(١) انظر كتاب الأغاني: ١٣/ ١٩٨ ـ ١٩٩ (منافرة الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبَّل السعدي إلى قاضي العرب ربيعة بن حُذار من بني أسد بن خزيمة، وذلك بعد ظهور الإسلام، وقبل أن يُسلموا، ليحكم بينهم في شعرهم أيُّهم أجْوَدُ شعراً).

(٢) أدبيات اللغة العربية: ١/ ١١.

(٣) البلاغة تطوُّر وتاريخ: ١٣.

بالكرم والشجاعة في قبيلته. وأمَّا المسألةُ المعنويَّةُ، فَفَخْرُهُ بمن ولَدَتْهُ نساؤهم، والعربُ لا تفخرُ بالأبناء، وإنما تفخرُ بالآباء. . . وفي هذا كلِّه ما يَدُلُّ على أن النقدَ في الجاهلية كان شائعاً، وأنه كان يأخذُ مظهريْن عامَّيْن: المظْهر الأوَّلُ يشترك فيه العربُ جميعاً، حين يستمعون إلى شعرِ شاعرٍ، فيقدرونه، ويطربون له، ويتقدَّمُ أشرافُهم وملوكُهم فيُجِيزُون أصحابَه جوائزَ ثمينةً قيِّمةً. وهم في ذلك إنما يرجعون إلى ذَوْقٍ أدبيّ راقٍ، والمظهر الثاني مَقْصورٌ على الأخصائيِّين من الشعراء، الَّذين كانوا لا يكْتَفُون بإظهار الإعجابِ أو السُّخْطِ، وإنما يَعْمَدون إلى إبْداءِ الملاحظات والآراء على ما يسمعون»[1]. هذا، ومن المؤكَّد أن نقدَ الشعرِ الجاهليّ لم يَصِلْ إلينا كلُّه، ولكنَّ ما وصل يَدُلُّ على أنه كان كثيراً، ولا سيما عند الروَاةِ المعلِّمين، فقد تَحوَّلَ فريقٌ منهم إلى نُقَّادٍ، يَفْرضُون أنْفُسَهم، بعِلْمهم وفنِّهم وذَوْقهم، على الشعر والشعراء، وخيرُ مِثَالٍ على ذلك منهم النابغةُ الذبيانيُّ[2]، في قُبَّتِهِ التي كانت تُضْربُ له بعكاظ ليقضيَ بين الشعراء.

على أننا لا نريدُ المبالَغَة في تَقْدير قواعد النقد عند عرب الجاهلية، بل نريدُ التأكيدَ على أنه كان نقداً قَيِّماً، تَأَسَّسَ على ذَوْقٍ فِطْريٍّ سليمٍ، وتَوَضَّحَ في المواسم الكبرى، ولا سيما في عكاظ والحجِّ، وقد بلغَ العربُ مبلغاً طيِّباً من الترقّي في صناعة الكلام، فأسْهَمَ إسْهاماً كبيراً في توحيد لغة العرب، حينما أَفْلَح في توجيه أنظار الشعراء والخطباء إلى العِنَايةِ بالفَصَاحَةِ والبلاغَةِ والبيان، واختيارِ الألفاظِ والتعابير التي يفهمُها العربُ جميعاً. وبذلك صار غُواةُ الشهرة والخُلودِ من الشعراء والخطباء، يصطنعون الكلامَ، الذي يفهمُهُ

---

(١) فن النقد: ٢٢، (سلسلة فنون الأدب العربي)، دار المعارف بمصر.

(٢) المرجع نفسه: ٢١.

عنهم كلُّ العرب، ويختارون من المُفْرَدات ما خَفَّ على السَّمْع، وعَذُبَ في النُطْقِ، ومن العِبَاراتِ ما كان يَأْسِرُ النفوسَ ويملكُ القلوبَ، فتكوَّنَتْ من ذلك كلِّه لغةٌ مِثَاليَّةٌ، هي لغةُ الشعر والخطابة في المجتمعات الأدبيَّة، وقامت على خَيرِ ما في لَهجاتِ العربِ من القواعد والمفردات، ولا سيما منها لهجات قريشٍ وتميم وإيَاد وأسَدٍ وقَيْس، ونَفَضَتْ عنها مُعْظَمَ العُيُوبِ التي كانت تَسِمُ سائرَ اللهجات، فبَدَتْ في أحْسَنِ حُلَّةٍ، فيما وصل إلينا من أدب عصر الجاهلية، وظهرت في أبْلَغِ صورةٍ، حينما نَزَلَ القرآنُ الكريمُ بها، في بلاغَتِهِ المُعْجِزَة، وتَحدِّيهِ العربَ أنَ يَأْتُوا بمثلِهِ، على ما لهم من بلاغةٍ، وفصاحة، ونظرٍ ثاقبٍ في دِقَّةِ التعبير، وخَفَايا القولِ وأسْرارِه.

* * *

المطلب الخامس ـ الصورةُ الطبيعيَّةُ لسوق عكاظ:

الصورةُ الطبيعيَّةُ لسوق عكاظ في حياة العرب، كما نقلها إلينا المؤرِّخُون وأهلُ الأخبار، وكما فَهِمَها معظمُ الباحثين المتأخِّرين، وكما عَرَضْناها فيما تَقصَّيْناهُ من الحوادث والروايات، أنها كانت مَعْرِضاً تجارِيّاً عامّاً يجمعُ قبائلَ العرب على اختلافها، مثلما كانت مَرْجِعاً يرجعون إليه لبحث شُؤونهم الاجتماعيَّة على تَنوُّعِها، ومَجْمَعاً للشعر والأدب تُنْشَدُ فيه القصائدُ، وتُلْقَى الخُطَبُ والمواعظ، وتُضْرَبُ الأمثال... فكانت، بهذه الصورة، تعملُ على التقريب بين قبائل العرب، وعلى التقريب بين لغاتهم ولهجاتهم، مما أدَّىٰ إلى خلق لغةٍ مِثَاليَّةٍ موحَّدَةٍ، صارت لغةَ المجتمعات الأدبيَّة، فكانوا يستعملونها للتفاهُم، وإنْشادِ الشعر، وقولِ الخُطَب، حتى أضْحَى اسمُ عكاظٍ في التاريخ عَلَماً على كل مَجْمَعٍ، أو مَعْرِضٍ، يضمُّ الألُوفَ المتباينةَ من الناس، بل عشراتِ الألوف، ويكون حديثُ الشعر والأدب بعضَ ما يجري فيه.

غير أن ثمَّةَ مَن رأى سوق عكاظ على غير هذه الصورة السَّوِيَّة، فكان في تصوُّرِهِ لها إمَّا مُمْعِناً في التقليل من شأنها، أو مُغَالِياً في الخَيَال حتى جاوَزَ به الحقيقةَ. وسنأتي بمثالٍ على كلٍّ منهما. . .

١ - التقليل من دَوْرِ عكاظ:

خيرُ مِثَالٍ له ما كتبهُ هيكلُ عن تصوُّرِهِ لما كانت عليه هذه السوق، فقال: «وقد تَعوَّدَ المؤرِّخون، إذ يذكرون عكاظاً، أن يقولوا: إن الشعراء كانوا ينتهزون فرصةَ انعقادِها، فيَعْرضون حَوْليَّاتٍ من نُخَبِ قصائدهم على الناقدين، في احتفالٍ عظيم تَشْهَدُهُ الجماهير، وبذلك يَذِيعُ ما يُقِرُّهُ الناقدون وأُولو الحُكْم من هذا الشعر في أنحاء شبه الجزيرة جميعاً، ويَتَغنَّى به العربُ في كلٍّ نادٍ. . . وإن الخطباء كانوا يجعلون منها مَثَابةً لعَرْضِ آرائهم وتعاليمهم! وصحيحٌ أن الشعراء كانوا يُنْشِدون في عكاظ، وأن الخطباء كانوا يتحدَّثون إلى الناس فيها، ولكنَّ ذلك لم يكن سببه أن هؤلاء وأولئك كانوا يتَّخِذون من عكاظ حَفْلاً أَدَبيّاً، ومجتمعاً خاصّاً بألوان البلاغة في الشعر والخطابة، بل كان يرجعُ إلى طبيعة الحياة في بلاد العرب، وإلى أن عكاظاً كانت تضمُّ مِن قبائلها مَن لا يجتمعون طيلةَ العام، إلا أيامَ الحجِّ. وقد كانت عكاظ تجمعُهم لتبادُلِ التجارة، ابْتغاءَ المنافع. وهذا التبادُلُ في التجارة، وهذا التنافُسُ في ابتغاءِ المنافع، وما كان يقعُ أثناء ذلك، وبسببه، من خصوماتٍ تتصلُ بعضَ الأحيان أعواماً مُتَتاليَةً، هو الذي كان يدعو الشعراءَ ليُنْشِدوا، والخطباءَ ليقولوا. أمّا أنَّ هؤلاء الشعراء كانوا يجيئون ليَعْرِضوا شِعرهم للنقد، وأنّ هؤلاء الخطباءَ كانوا يَتَبارون بلاغةً، ليَسْتَعْليَ بعضُهم على بعض في البيان، وأن ذلك كان يقع في الجاهلية، أيامَ كانت لهجاتُ العرب لا يزال بينها من التبايُنِ ما لم يُزِلْهُ اسْتِعْلاءُ لغة قريش، إلا بعد أن

أنزل اللَّهُ القرآنَ بها، فتَجاوُزٌ في التصوُّرِ، يدعو إليه ما جُبِل الناسُ عليه من تَوَهُّم الحياةِ في كل العصور والأمكنة، على صُورةِ حياتهم في البيئة المحيطةِ بهم. . . فذهبوا يُصَوِّرون عكاظاً، وما كان يجري فيها، هذه الصورةَ الذهنيَّةَ التي أَلِفُوا، والتي تختلفُ وما تُثْبته أنباءُ الحياة العربية في العهد الجاهليّ اختلافاً عظيماً. ولستُ أَزْعم أنني عثرتُ في أَثَرٍ قديم، أو مَخْطُوطٍ غير معروف، على صورةٍ تصفُ ما كان يجري بعكاظ على النحو الذي أريد أن أُسَطِّرَهُ هنا، لكنني انتزعتُ نفسي جهدَ الطاقة من بيئتنا الحاضرة، وحَملتُها على تصوُّرِ البيئة العربية قُبَيْل الإسلام، وفي فَجْرِه، كما تَصِفُها لنا أنباءُ التاريخ، وحاولتُ بذلك، وفي حدود الطبيعة الإنسانية، أن أرى ما كانت عليه عكاظ بالفعل، وما كان يقعُ فيها»[١].

وكأنَّ انتزاعَ النفسِ من البيئة الحاضرة، ووَضْعَها في البيئة الماضِيَة، لِتَصَوُّرِ ما كانت عليه عكاظ، وما كان يجري فيها، أَمْرٌ لا يستطيعُه أحدٌ من الناس إلا هيكل، ولا يجوز لأحَدٍ غيره أن يقُومَ به. مع أنه، كما يَتَبيَّنُ من مُتابعة حديثه عن عكاظ، لم يُحقِّق من أخبار عكاظ شيئاً، ولم يطَّلِعْ على أكثرَ مما قاله الأزرقيُّ عن مواسم الحجِّ، وبعضِ ما اتَّفق له من كتُب أهل الأخبار، كالأغاني، فيما تحدَّثتْ به عن حروبِ الفِجَار، وخطبةِ قُسٍّ بن ساعدة، وطوافِ النبيّ عليه السلام في السوق مُبشِّراً بالإسلام. والصورةُ الطبيعية عنده لعكاظٍ أنها كانت سوقاً يجتمع العربُ بها كلَّ سنةٍ «لتبادُلِ التجارة، وليس لهم من الاجتماع غرضٌ آخَر»، أمَّا ما كان يجري فيها أحياناً من إنشادٍ للشعر وخطابةٍ، فمَرَدُّهُ إلى الخصومات والحروب، التي كانت تنشب بين القبائل، من جرَّاءِ المنافَسَةِ التجارية، «وحيثما اجتمع الناسُ

---

(١) في منزل الوحي: ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

هيكل في التقليلِ من شأنِ عكاظ، وتميلُ بنا إلى القول بأن عكاظاً كانت، بالفعل، مَعْرِضاً للبلاغة «ومدرسةً بَدَوِيَّةً، يُلْقَى فيها الشعرُ والخُطَبُ، ويُنْقَدُ ذلك كلُّه، ويُهَذَّب»[1]، وهو ما جعل لها الأثَرَ الكبير في لغة العرب. وهنا يجب أن نُذَكِّر بقول ابن الكلبي: «كانت بعكاظ منابِرُ في الجاهلية، يقوم عليها الخطيبُ بخُطْبتِهِ، وفَعالِه، وعَدِّ مآثِرِهِ، وأيّامِ قومه من عامٍ إلى عامٍ...»[2]، وهو قولٌ نعتقدُ أنه دليلٌ كافٍ.

* * *

٢ ـ الغُلُوُّ في وَصْفِ عكاظ:

ولعلَّ خيرَ مَن يُمثِّل هذا الاتجاه الأستاذُ معروف الأرناؤوط[3]، في كتابه «سيِّد قريش»، وهو رواية تاريخيَّة اجتماعية، تبحثُ، كما أشار مُؤَلِّفها، عن حياة العرب السياسيَّة والاجتماعيَّة، في العصر الجاهلي، إلى ظهور الرسول عليه السلام. ومن شأن روايةٍ كهذه أن يلتزمَ كاتبُها بالوقائع التاريخيّة، التي أُسِّسَتْ عليها، وأن يُراعي الأمانةَ والدقَّةَ في نَقْلِها، أو في صياغتها. وليس من حقِّه أن يَجْمَحَ به الخيالُ، فيُسْرِفَ في التصرُّف بالوقائع، حتى يصيرَ فيها قاصّاً، أكثرَ منه راويَةً للتاريخ...

---

(١) عكاظ والمربد: ١٣/٢٣ (مجلة الرسالة ١٩٣٣ م).

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠.

(٣) **معروف بن أحمد الأرناؤوط:** (١٨٩٣ ـ ١٩٤٨ م). كاتب صِحَافيٌّ، ألباني الأصل. ولد في بيروت، وكتب في بعض صُحُفها، ثم أصدر بدمشق جريدة «فتى العرب» نحو سنة (١٩١٨ م)، فاستمرَّتْ يوميَّةً حتى وفاته. وهو من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. من كتُبه: سيد قريش في ثلاثة أجزاء، وعمر بن الخطَّاب، وطارق بن زياد، وفاطمة البَتُول، وغيرها.

اليوم، «ودعا الناسَ إلى موسم عكاظ في صباح الغَد»، وأن أبا طالب أعْقَبَهُ في الكلام على موسم العام الجديد، فبَاهَىٰ العربَ بحماية قريشٍ مواسمَ عكاظ، و «قَدَّم لهم شعراءَ الموسم الحالي واحداً بعد واحد»[1].

ثم ذكر أن قبائل العرب خرجت من مكة إلى سوق عكاظ في اليوم التالي[2]، وأن عشرةَ آلافٍ من الفرسان المَسَاعِير خرجوا معهم إلى عكاظ[3]. . . وأن قريشاً أقامت في عكاظ قُبّةً من الأَدَم، جَلَّلتْها بغطاء من القماش الأخضر، وجَعلتْ على حراسة هذه القبَّة التي أُعِدَّتْ للنابغة الذبياني حرسَ شَرَفٍ من غسَّانَ ولَخْمٍ وقريشٍ وعبد شمس[4]. . .

ومن الواضح ما في هذه الأقوال جميعاً من غُلُوٍّ في الوصفِ، والخروج عن الحقائق التاريخيَّة! فمن أين للكاتب تعيينُ يوم الخامس من أيلول موعداً لانقضاء أربعة شهور على عودة أبي سفيان بقافلة قريش من الشام؟ ومن أين له تعيينُ ذلك اليوم لحجِّ العرب إلى الكعبة، وتعيينُ اليوم الذي يليه لقيام موسم عكاظ؟ وكيف تكون سنةُ (٥٨٢ م) موعداً لاحتفال قريش بارْتِدادِ الحبشة عن غزو الكعبة الَّذي كان سنة (٥٧٠ م)، وموعداً لاحتفال حِمْيَر بتحرير اليمن الَّذي كان سنة (٥٧٥ م)، وأَنَّىٰ يكون ذلك؟ ومن المُلاحَظِ أيضاً أنه جعل موعدَ عكاظ بعد موسم الحج، وإنما هو قبله، كما جَعَلَ مكانَ اجتماع الناس بمكة، بينما هو في الحقيقة بعُكاظ، يَقْدَمُونها من اليمن ونَجْد والطائف، وربما من العراق!. . . واخترع كذلك أمْرَ مقاطعةِ ملوكِ غسَّانَ مواسمَ عكاظ، وجَعلَهُ نتيجةً لِخلافِهم مع ملوك بني لَخْم بالعراق، مثلما

---

(١) سيِّدُ قريش: ٢/٢٦ ـ ٢٧.
(٢) المرجع نفسه: ٢٧.
(٣) المرجع نفسه: ٣٠.
(٤) المرجع نفسه: ٣٢.

جَعلَ إدارةَ مواسم عكاظ بأيـدي ورقة بن نوفل وأبي طالب، وحمايتَها والقيامَ عليها بأيدي قريش! وهي أقوالٌ كلُّها بعيدةٌ من حقائق التاريخ، ولا يملكُ الروائيُّ أن يتصرَّفَ بها على هذا النحو من التحريف والغُلُوِّ، فيسيء إليها، وهو ما فعله معروف الأرناؤوط في روايته.

* * *

الفصل الخامس

تاريخ سوق عكاظ

المطلب الأول ـ البداية: بعض أخبار عكاظ يؤكد وجودها في القرن الثاني للميلاد.

المطلب الثاني ـ النهاية: ظل أمرها يتضاءل في الإسلام حتى انتُهِبت سنة (١٢٩ هـ = ٧٤٧ م) ثم لم تعد تنعقد بعدها.

الخـاتمـة

الفصل الخامس

تاريخ عُكاظ

المطلب الأول ـ البدايَة:

ليس من اليَسِير على المُحقِّق أن يُعيِّنَ السنةَ التي ابتدأتْ فيها مواسمُ عكاظ بالانعقاد. والأخبارُ التي يَصِحُّ التعويلُ عليها في هذا الموضوع، ليست في مُنْتَهى أمرها أكثَر من أَدِلَّةٍ على وجود عكاظ في أزمنة مُعَيَّنةٍ، لا في سنةٍ مُعيَّنة، مع تَفَاوتٍ كبير بينها فيما تدلُّ عليه من قِدَم عكاظ. وللباحثين في ذلك آراءٌ مختلفةٌ، أشْهَرُها قولُ الآلوسيّ: إنها «اتّخِذَتْ سوقاً بعد عام الفيل بخمسَ عشرةَ سنةً»[1]، أي نحو (٥٨٥ م)، إذ كانت واقعةُ الفيل سنة (٥٧٠/ ٥٧١ م)... وبينما عَدَّ الدكتور هيكل هذا التحديدَ أَدَقَّ ما رُوِيَ عن الزمنِ الذي بدأ العربُ يُقيمون فيه عكاظاً[2]، عَدَّهُ الدكتور أحمد أمين غيرَ صحيح، لأن معظم الحوادث المأثورة عن عكاظ، يرجعُ تاريخُها إلى ما قبلَ ذلك[3]، ورجَّح الأفغانيُّ إنشاءَ عكاظ قبل الهجرة (٦٢٣ م) بأكثر من سبعين عاماً[4]، أي نحو (٥٥٠ م)، ثم رجَعَ بزمنها في موضع آخر إلى ما قبل القرن السادس للميلاد[5].

---

(١) محمود شكري الآلوسي ـ بلوغ الأرب: ١/ ٢٧٠.

(٢) في منزل الوحي: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(٣) عكاظ والمربد ـ مجلة الرسالة لسنة ١٩٣٣: ١٣/ ٢٥.

(٤) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٠٩.

(٥) المرجع نفسه: ٣٤٢.

والمعروفُ أن الفِجَار جملةُ وقائعَ، نشأت كلُّها في سوق عكاظ، وأن المؤرِّخين يُصَنِّفُونَها في فِجَارَيْن، أوّلُهما: وهو السابق، قديمٌ مجهولُ التاريخ، كان في ثلاثة أيام مُتفرِّقةٍ على بضع سنين. والثاني: مُتأخِّر، كان في خمسة أيام، نشب سنة (٥٨٦ م)، وانتهى سنة (٥٩٠ م). وهذا من شأنه أن يُبطلَ مذهبَ الآلوسيّ، لأنه يؤكِّدُ أن عكاظاً كانت قبل (٥٨٥ م). ومثلُه أيضاً خبرٌ نقله الأصفهانيُّ، ذكر فيه أن عَبْلة بنت عُبيد، من بني زيد مناة بن تميم، كانت زوجةً لرجُلٍ من بني جُشَم بن معاوية، من هوازن، فبعَثَها بأنْحَاءٍ[1]، سَمْنٍ تبيعُها له بعكاظ، فباعَتِ السمنَ، وراحِلَتَيْنِ كان عليهما، وشربتْ بثمنها خمراً، فلما نفد ما معها، رَهَنَتِ ابنَ أخيه وهربتْ، فطلَّقها... فتزوَّجها بعده عبدُ شمسٍ بن عبد مناف (٤٧٠ ـ ٥٥٠ م)، فولدتْ له بعضَ ولده[2]. ومن الواضح أن هذا الخبر يرتفع بوجود السوق إلى زمنٍ أقْدَمَ من ذاك، ولعلَّه في أوائل القرن السادس. ويؤكد ذلك قولُ النابغة الجَعْدِيّ[3]:

ولقد شَهِدْتُ عكاظَ قبل محلِّها	فيها، وكنتُ أُعَدُّ في الفِتْيانِ
والمنذرَ بنَ مُحرِّقٍ في مُلْكِهِ	وشهدتُ يومَ هَجَائنِ النعمانِ
فمن يَكُ سائلاً عني فإني	من الشبَّانِ أيامَ الخُنَانِ

أي أنه كان ما يزال فتىً لمّا شَهِدَ عكاظاً، وحينما مَلَكَ الحيرةَ المنذرُ بنُ ماء السماء نحو سنة (٥٠٦ م)، وكان شابّاً كذلك أيامَ «الخُنَانِ»، وهو مرضٌ خطيرٌ وقع في عهد المنذر، ففتك بالناس والإبِل، فأرَّخُوا به إذ

---

(١) الأنحاء: مُفْردها نِحْيٌ وهو زِقُّ السمن. ونَحَىُ اللبنَ: مَخَضَهُ.

(٢) الأغاني: ١/١٩٩.

(٣) النابغة الجعديّ: قيس بن عبد الله، من بني جَعْدة، من عامر بن صعصعة. شاعر مفلق، من المعمَّرين، اشتُهر في الجاهلية، وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر قبل الإسلام.

عَدُّوه من الحوادث العِظام، وقال إنه عاش حتى أدرك زمنَ الملك النعمان بن المنذر (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م). ثم أدرك الإسلامَ، فأسلم، وكانت له صُحبة، وتُوفي نحو (٦٧٠ م) عن عمر طويلٍ، قيل إنه بَلَغَ مئة وثمانين سنة[١]، أي أن مولده كان نحو (٤٩٠ م)، وشُهودَه عكاظاً كان في أوائل القرن السادس، وربما منذ سنة (٥٠٥ م)، أيامَ حَدَاثَتِهِ.

على أنني كنتُ ذكرتُ في أخبار عكاظ مُنَافرةً بين «مَيَّادِ بن حنّ العُذْريّ»، ورجلٍ من اليمن في بعض المواسم[٢]، وأشرتُ إلى أن مَيَّاداً هذا كان يُعاصِرُ قَصيَّ بنَ كلاب (٤٠٠ ـ ٤٨٠ م)، وهذا يرتفعُ بزمن وجودالسوق إلى القرن الخامس... غير أن ذلك كلَّه لا يَدُلُّ دلالةً دقيقةً على تاريخ عكاظ، فحكايةُ الأمثال التي صَدَرتْ عن «ضَبَّة بن أَدّ» بعكاظ، بعد مقتل ابنه سُعيد[٣]، تُشير بوضوحٍ إلى أن هذه السوق كانت قائمةً قطعاً في القرن الثاني للميلاد... إذ أن «ضَبَّةَ بنَ أَدّ» هو عمُّ «تميم بن مُرٍّ بن أَدٍّ»، وكانا في عصر واحدٍ. وهنا لا بُدَّ لي من الإشارة إلى ما كان في عهد بني خُزَاعة بمكة، فالأخبار التاريخيّة مُطْبِقَةٌ على أن عمرو بنَ لُحَيٍّ الخُزَاعيَّ سيِّدَ مكة في عصره، هو أوَّلُ من عكف على تنظيم الشؤون العامَّة بمكة والحجاز ونَجْد، جَرْياً على خطته في النهوض بها، وترغيب سائر العرب في شُهُودِ مواسمها، سواء أكانت للحجِّ والعبادة، أو للتجارة والاجتماع واللهو[٤]. فعيَّنَ للمواسم وقتئذٍ أَئمَّةً يُدِيرونَها، وكان منهم أئمَّةُ عكاظٍ وقُضاتُها. ولم تَرِدْ قبل ذلك أيَّةُ

---

(١) الإصابة: ٣/٥٠٨/ت: ٨٦٤١، والمفضّل: ٣/٢١٩ و٨/٥٢١، و٩/٨٤٧، ولسان العرب: ١٣/١٤٣ (خنن).

(٢) انظر الفقرة الرابعة في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٣) انظر الفقرة الأولى في الفصل نفسه.

(٤) أخبار مكة: ١/٩٥، ١٠٠، وتاريخ الطبري: ٢/٢٥٩، والسيرة لابن هشام: ١/١٢٤ ـ ١٢٥، وصبح الأعشى: ١/٤٩٦.

إشارةٍ إلى وجود عكاظ، فضلاً عن وجود أَئمَّةٍ وقُضاةٍ لها! وقد أَطْبَقَ أهلُ الأخبار على أن «سعدَ بنَ زيد مناة بنِ تميم» هو أوَّلُ من اجتمعت له الخصلتان معاً من بني تميم: إمامةُ الموسم، والقضاءُ بعُكاظ، ومعنى هذا أن إحداهما كانت في أبيه، والأُخرى كانت في عمِّه عمرو بن تميم، ثم صارتا بعدئذٍ إرثاً في أبنائهما. وفي ذلك يقول شاعرُ بني تميم، المخبَّلُ السعْدِيُّ[1]، مفتخراً بِجَدِّه سَعْد بن زيد مناة:

ليالِيُّ سعدٍ في عكاظَ يَسُوقُها له كلُّ شرقٍ من عُكاظَ ومَغْربِ[2]

مما يعني أن هذا الشأن من عكاظ كان في بني تميم، منذ أواسط القرن الثاني للميلاد، وأن سوق عكاظ كانت موجودةً وقتئذٍ من غير شك، وذلك منذ بدأت تجارةُ القوافل تنتقلُ إلى مكة، بعدما سقطتِ البتراءُ سنة (١٠٦ م)، وتَلَتْها تدمرُ سنة (٢٧٢ م)، وكانت بين هذه وتلك ولايةُ خُزَاعَة شؤونَ مكةَ وما حولها، ثم نهضةُ الحجاز بمواسمه وقوافله على طرُق التجارة الدوليّة.

* * *

المطلب الثاني: النهايـــة:

ظلَّت سوقُ عكاظ تقومُ في الإسلام، فعاصَرتْ ظهورهُ، وشَهِدَتْ دعوةَ الناس إلى الإيمان به، وكانت وقتئذٍ مُزْدَهِرةً. ثم أخذ شأنُها يَضْعفُ منذ هاجرَ المسلمونَ من مكة إلى المدينة، لما كان بينهم وبين المشركين بعد

---

(١) المخبَّل السعدي: شاعر مُعمَّر من مُخَضْرمي الجاهلية والإسلام، توفي غالباً في خلافة عمر، بعدما أَسَنَّ وضَعُف. وهو: الربيع بن ربيعة بن مالك بن ربيعة بن عوف بن قتال بن جعفر أنف الناقة بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد. فإذا قدرنا وجود المخبَّل بين (٥١٠ ـ ٦٤٠ م)، كان سَعْدٌ من أبناء القرن الثاني.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١٦٧/٢.

ذلك من وقائِعَ وغزوات، عَوَّرتْ على أهل الحجاز ونَجْدٍ متاجِرَهم، وأفْسَدَتْ طُرُقَهم، وهدَّدَتْ قوافِلَهم بالاستلاب.

ولمّا كانت الفُتوح، انْقَلبَ العربُ غُزَاةً فاتحين، فانصرفوا عن التجارة، وتضاءَلَ شأنُ أسواقهم، إذ كان في الفُتوح ما شَغَلهم عنها، وكان لهم في أسواق الشام والعراق ومصر وإيران ما سَدَّ حاجاتهم إلى سِلَعِ التجارة وعُروضِها. وكان لهم في القرآن الكريم شاغِلٌ بعُلوم الدِين، وأحكام الشريعة، عن شؤون الشعر والأدب.

وكان العربُ في الجاهلية يتَأَثَّمُون من الجمع بين الحجِّ والتجارة، فكانوا يُتَاجِرُون في مواسم عكاظ ومجنَّة وذي المجاز قبل حُلول موسم الحجِّ، فلما كان الإسلام، أباح لهم التجارةَ في موسم الحج، فاسْتَغْنى كثير من التجار عن شهود مواسم عكاظ، ولا سيما بعد انصرافِ كِبَارِ الناس وأشْرافهم عنها إلى قيادة الجيوش، وإدارة معارك الفُتوح. وهذا كلُّه كان عاملاً كبيراً على تضاؤل شأن عكاظ.

ويأتي فوق ذلك عاملٌ كان من أكبر الأسباب في انحطاط عكاظ، وإهْمالِ أمرها، بعدما أُطْلِقَتِ الشهورُ القمريَّةُ من عِقَالها، في حجَّة الوداع (١٠ هـ = ٦٣٢ م)، فصارت الشهورُ والمواسمُ تدور في الفصول الأربعة، وكان العربُ يعملون قبل ذلك على تَثْبيتها، لتظلَّ مواسمُهم ثابتةً في مواقيتها المُعَيَّنةِ لها من السنة الشمسيَّة. فلمَّا جعلتِ الشهورُ تدور، فَقَدَ موسمُ عكاظ ثباتَ مَوْعِدِه، ففقَدَ بذلك ركناً رئيساً في أساس وجوده واستمراره. فالمواسمُ إنما سُمِّيت بذلك لأنها وسِمَتْ بوقتٍ، يجب أن يظلَّ ثابتاً، لأنه قائمٌ في الأصل على أحوال ثابتةٍ في الزراعة، والتجارة، والغَلاَّتِ، والنِتَاجِ، ووفاء الديون، وما إلى ذلك.

وهكذا تضاءل أمرُ عكاظ، وخَمَل ذِكْرُها، ولكنها لم تزل قائمةً، على

ضَعفها، حتى ثارت بمكة طائفةٌ من الخوارج سنة (١٢٩ هـ = ٧٤٧ م) وكان على رأسهم المختارُ بن عَوْف[١]، فانْتَهبوها، فخاف الناسُ بعدها على أموالهم وأَنْفُسِهم، فلم يعودوا إليها، فتُرِكَت حتى الآن، ثم تُركتْ مَجَنَّة وذو المجاز بعد ذلك، واسْتُغْنِيَ عنها جميعاً بالأسواق في مكة ومِنى وعَرَفة[٢]. وانطوىٰ بذلك سِجلٌّ مُشْرقٌ لحضارة العرب في الجاهلية، ظلَّ مَنْشُوراً نحو خمسة قرون، كان له فيها أعظمُ الآثار في حياة العرب الاجتماعيّة، والأدبيّة، والسياسيَّة، وفي تَقْرِيبهم من الوحدة القوميَّة، وبُلوغِهم اللغةَ الأدبيَّةَ الموحَّدةَ، التي كان لها الفضلُ فيما وصل إلينا من أَدَبِ الجاهلية في الشعر والخطابة والأمثال والمواعظ وغيرها. وكان من حقِّ عكاظٍ على أصحاب الأمر فيها اليومَ، أن يَبْعَثُوها من جديد، ويُقيموا مواسمَها على الأرض التي كانت تقومُ فيها، وعلى النحو الذي كان أجدادُنا يَنْحُونَه في إقامتها عند إدْبارِ الصيف وإقْبالِ الخريف، فذلك كان ميقاتَ موسمها، ثم في اتخاذِها مَعْرِضاً اقتصاديّاً، ومَحْفِلاً اجتماعيّاً، ومَجْمَعاً لُغَويّاً وعِلْميّاً، لعلها ترجعُ مُجدَّداً، فتصبح مُلْتَقَى العلماء والشعراء والأُدَباء، وقُطْبَ الدائرة الفِكريَّة في بلاد العرب.

* * *

---

(١) **المختار بنُ عوف الأَزْديُّ**: أبو حمزة، وُلد بالبصرة، وأخذ بمذهب الخوارج الإبَاضِيَّة، وكان في كل سنة يُوافي مكة يدعو الناس إلى الخروج على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، حتى كانت سنة (١٢٩ هـ) فقام بفريق من الخوارج واستولى عليها، وتبعه جمعٌ من أهلها. قُتِل سنة (١٣٠ هـ).

(٢) أخبار مكة: ١/ ١٩٠.

الفصل السادس

موسمُ سوقِ مجنّة

مقـدمــة:

ذكر الأزرقيُّ أن العرب كانوا، كلما أَهَلَّتْ شهور الحجِّ، وهي شوّال وذو القعدة وعَشْرٌ من ذي الحجَّة، يخرجون إلى مواسمهم في عكاظ ومجنّة وذي المجاز وعَرَفَة ومِنىً، فهذه مواسمُ الحجّ... وكانوا يقولون: لا تحضروا أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز إلا مُحْرِمين بالحجّ[1].

وكنا أَفَضْنا في الحديث عن موسم سوق عكاظ، ونتحدَّثُ هنا عن موسم مجنَّة، مَوْقِعها وميقاتها وما أُثِرَ من وقائعها.

١ ـ موقع السوق وأصحابها:

ذكر الأزرقيُّ أن «مَجنَّة» سوقٌ بأسْفَل مكة، على بريدٍ منها... أي على نحو اثْنَيْ عَشَر ميلاً إلى الشمال من مكة. وأنها سوقٌ لبني كنانة، وأرضُها من أَرْضِهم[2]. وهي التي يقولُ فيها الأصمعيُّ إنها كانت بِمَرِّ الظَّهْران، قُربَ جبلٍ يُسمَّىٰ: الأصْفَرَ، وهو في شمال مكة على قَدْر بريدٍ منها، وكانت لبني الدُّئِل بن بكر خاصَّةً، من بني كنانة بن خزيمة. وذكر ياقوت أن «مَرَّ الظهران»

---

(١) أخبار مكة: ١/١٨٧، ١٨٩، ١٩٢.

(٢) المرجع نفسه: ١/١٩٠.

موضعٌ على مرحلةٍ من مكة (٢٤ ميلاً)، به عُيونٌ كثيرةٌ، ونخلٌ، وجُمَّيْزٌ، وسوقُ مَجنَّةَ كانت تقوم في قرية مَرٍّ بوادي الظهران، بجَنْبِ «طَفِيل» وهو جبلٌ مُشْرِفٌ على مجنَّة[١]. وإيَّاهُ كان بِلالٌ الحبشيُّ يريدُ فيما كان يتمثَّلُ به من قول الشاعر، شوقاً إلى مجنَّةٍ، وطِيب هوائها، ولذَّة مياهها:

ألا ليت شعري هل أَبِيتَنَّ ليلةً ... بفَخٍّ وحولي إذْخِرٌ وجَليلُ
وهل أَرِدَنْ يوماً مِيَاهَ مَجنَّةٍ ... وهل يَبْدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفِيلُ[٢]

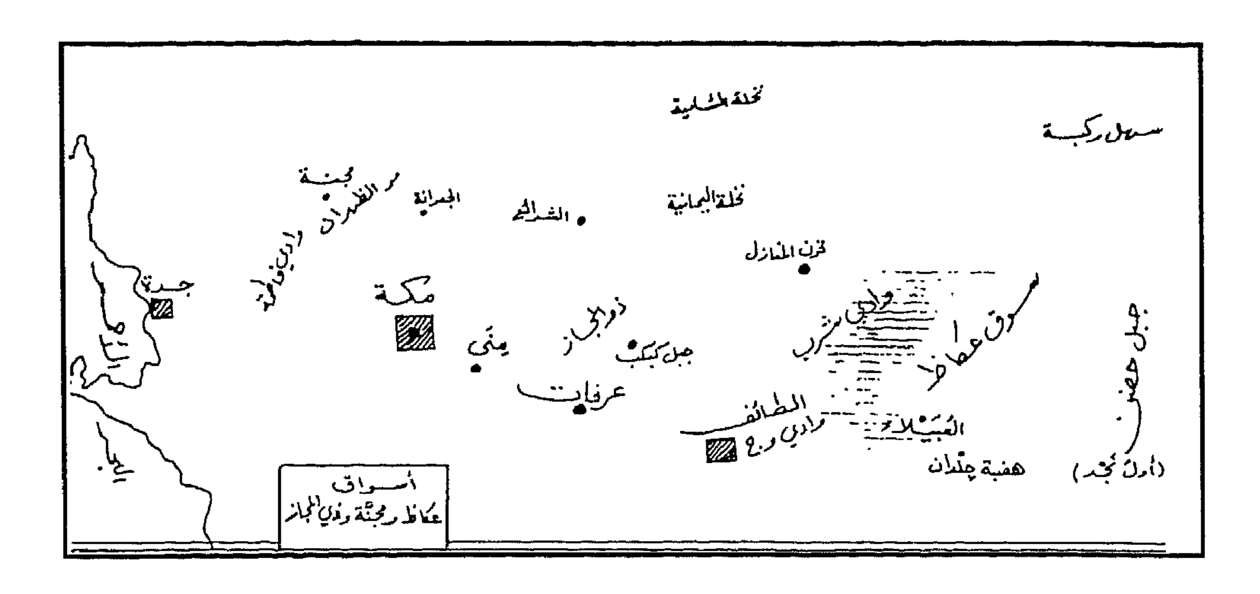
فكان النبيُّ عليه السلام إذا سمع ذلك يقول: اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبِّنا مكَّةَ أو أشَدَّ، وصَحِّحْها وبارِكْ لنا في صاعها ومدِّها[٣]. وهذا دليلٌ على حُسْنِ موقعها، وهو ما لعلَّه يتبيَّنُ من تقليب بعض معاني إسمها، فكأنها سُمِّيت بذلك لشيءٍ فيها يتصل بالجَنَّة، أي البستان، أو يتَّصلُ بالمُجون لما كان بها منه[٤].

٢ ـ موسمُ السوق:

كانت العربُ، إذا مضتْ عشرون يوماً من أوَّلِ ذي القعدة، انصرفوا عن سوق عكاظ إلى سوق مجنَّة، فأقاموا بها الأيامَ العشرةَ الأخيرة من

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ٥٨ ـ ٥٩، و ٥/ ١٠٤، وأسماء جبال تهامة: ٤٦، والكامل في التاريخ: ١/ ٥٩٠، وتاريخ الطبري: ٣/ ٩٤.
(٢) فَخٌّ: وادي الزاهر بمكة. الإِذْخِرُ: حشيشٌ طيب الرائحة، يُسقف به البيوت فوق الخشب، له ثَمرٌ يُطحن ويُدخل في الطيب. ينبت في الحُزون والسهول. شامَةٌ وطفيل: جبلان مشرفان على مجنَّة.
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر: ١٠/ ٣١٩ ـ ٣٢٠ (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق)، وأخبار مكة: ١/ ١٩١، ومعجم البلدان: ٥/ ٥٩ و ٣/ ٣١٥.
(٤) لسان العرب: ١٣/ ١٠٠ (جنن)، ومعجم البلدان: ٥/ ٥٨.



الشهر[1]، أسواقُهم قائمةٌ للبيع والشراء والمُبادَلاتِ المختلفة. فكان مَنْ فاتَهُ شُهودُ موسم عكاظ، أو شَهِدَها وفاتَهُ غَرَضٌ فيها، يَسْتوفيه في موسم مَجنَّة، ومَنْ بَقِيَ عنده فَضْلٌ من عُروض التجارة عَرَضَهُ للبيع فيها، ومَن كان له أسِيرٌ لم يُسْعِفْهُ الحظُّ في العثور عليه بعُكاظ، سعَىٰ إلى مَجنَّةٍ يبحثُ عنه، لعلَّهُ يعثرُ عليه عند أحدٍ من قبائل العرب فيُفَادِيه.

ومما لا ريْبَ فيه أنه كان في هذه السوق مثلُ ما كان بعكاظٍ، أو مُعْظَمُه، من الأنْشَطةِ التجاريّة والاجتماعيّة والأدبيَّة، فكأنَّ موسمَها كان استمراراً لموسم عكاظ، ولكن مَوْضعَها أقربُ إلى مناسك الحجِّ من عكاظ، وأصحابَها من بني كنانة، وأرضَها من بعض أرْضِهم، بينما أصحابُ عكاظ من بني هوازن، وأرضُها لهم... وربما كان ذلك مقصوداً، ليَعمَّ النفعُ مختلفَ قبائل العرب، ولا سيما أن موسم مَجنَّة كان يقعُ وقتئذٍ في زمن الخرِيف، فكانوا يَترَبَّعُونَ في موضعها، يَنْهلون من مياهها، ويَجْنُون من ثمارها. وقد علمنا من شعرٍ لأبي ذُؤيْب الهُذَليّ، أن الخمر كانت تُجلبُ

(١) أخبار مكة: ١/١٨٧.

إليها من بُصْرَى وغزَّة، وذلك حيث قال[1]:

سُـــلافَـــةُ راحٍ ضُمِّنَتْهـــا إداوَةٌ   مُقَيَّـرَةٌ رِدْفٌ لمـؤخَـرةِ الـرَّحْـلِ[2]
تَـزَوَّدَهـا مـن أهـلِ بُصْـرى وغَـزَّةٍ   على جَسْرةٍ مرفوعةِ الذَّيْل والكِفْلِ[3]
فَـوَافَـىٰ بهـا عُسْفَـانَ، ثـم أتـى بهـا   مَجَنَّةَ تَصْفُو في القِلاَلِ ولا تَغْلي[4]

وكان شُعراءُ العربِ اعْتَادوا أن يَصِفُوا الخمرَ، ويُشِيدوا بذكرِها، ويُعيِّنُوا مواضِعَ صُنْعِها وَوُرودِها.

وأخيراً نُشِيرُ إلى أن سوق مجنَّة كانت، على شاكلة عكاظ، منطقةً حُرَّةً، مُعْفَاةً متاجِرُها من الضرائب أو العُشُور، لأنها واقعةٌ في إطار مناسك الحجّ، ولأن موسمها يقوم في شهرٍ حرام، وليست في حَوْزَةِ مَلِكٍ يستبدُّ بمقاليد الأمور فيها. أمَّا القضاء بين الناس فيها، فأعتقدُ أنه كان من شأن حُكَّام بني كنانة، وسائرِ مَن كانت العربُ تَرتضي حكومتهم من القضاة.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ٥٩.

(٢) **سُلافَةُ الراح**: ما سال وتَحلَّبَ قبل العصر، وهو أفضلُ الخمر. **الإداوةُ المُقَيَّرة**: إناءٌ من الجلد، مَطْليٌّ بالقار حفظاً للخمر أن يُصيبها مكروه. **الردْفُ**: الراكبُ خلفَ الراكِبِ، وكلُّ ما تبع شيئاً فهو رِدْفُه. **الرَّحْل**: مركبٌ يُجعل على الناقة.

(٣) **الجَسْرَةُ المرفوعةُ الذَّيْلِ**: الناقةُ العظيمةُ. **الكِفْل**: ما يحفظُ الراكبَ من خَلْفِه، وهو شيءٌ كالحبل يُجْعل على سنام البعير لحفظ الراكب والرَّحْل.

(٤) **القِلاَلُ**: جمع قلَّة وهي الجَرَّةُ العظيمةُ. وقولُه: لا تَغْلي أي لا تَجيشُ بقُوَّةِ الحرارة.

الفصلُ السابع

موسم سوق ذي المجَاز

١ ـ موقع السوق وأصحابها:

يقعُ ذو المجاز عن يمين الموقف من عَرَفَة، على ثلاثة أميال منها، في موضع قريبٍ من كَبْكَب، على ماءٍ ينبعُ من أصله. وكَبْكَبُ هو الجبلُ الذي يجعله الواقفُ بعَرَفَة خلفَ ظهره[١]. وهو سوقٌ لبني هُذَيْل بن مُدْرِكة[٢]، وقد أكثر شعراؤهم من ذكره في قصائدهم، لأنه أعظمُ مواسمهم.

ولستُ أدري إن كان صحيحاً ما تَفَرَّدَ به ابنُ الأثير، عندما عيَّن موقعَ ذي المجاز بقوله: «كان ذو المجاز بالجانب الأَيْسَرِ، إذا وَقَفْتَ على الموقفِ» بِعَرَفَة[٣].

٢ ـ موسم السوق:

كان العربُ إذا رأوا هلالَ ذي الحجَّة انصرفوا عن سوق مَجنَّة إلى ذي المجاز، فأقاموا به ثمان ليالٍ[٤]، أسواقُهم قائمةٌ للبيع والشراء وسائر

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٩١، ومعجم البلدان: ٥/ ٥٥ و ٥/ ٢٦٥.

(٢) هُذَيْلُ بن مدركة بن الياس، وهو عمُّ كنانة بن خزيمة بن مدركة، وكان بنو هُذَيْل أشعرَ العرب حَيّاً، وأشعرَ هُذَيْل أبو ذؤيب.

(٣) الكامل في التاريخ: ١/ ٥٩٠.

(٤) أخبار مكة: ١/ ١٨٧، والمحبَّر: ٢٦٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

● **طلاب الثأر:**

وكثيراً ما كان طُلَّاب الثأر يُؤخَذون بثورة الانتقام في المواسم، فإذا رأَوْا واتِراً لهم عاجَلوهُ بالقتل، قبل أن ينقضيَ الموسم، ويفلتَ منهم.

ومن ذلك ثأرُ «قَيْس بن الخَطيم» من قاتل جَدِّه بذي المجاز. . . وكان رجلٌ من بني عبد القيس، من أهل هَجَر البحرين، اغتال الخَطِيمَ فقتله، وقيسٌ يومئذٍ صغير، وكان عديٌّ أبو الخَطيم قُتِل قبله أيضاً، فلما بلغ قيسُ بنُ الخطيم مبلغَ الشباب، وعرف أخبارَ قومِهِ، وموضعَ ثأرِهِ، لم يَزَلْ يلتمسُ غِرَّةً من قاتل أبيه وقاتل جَدِّهِ حتى ظفر بالأوَّل في يثربَ فقتله، ثم ظفر بالثاني في موسم ذي المجاز واقفاً على راحلته بالسوق، فعاجَلَهُ بطعنةٍ من حَرْبَتِهِ فقَتَلَهُ، وقال:

ثَأَرْتُ عَدِيّاً والخَطيمَ فلم أُضِعْ وِلايةَ أَشْيَاخٍ جُعِلتُ إزاءَها[1]

* * *

ومثل ذلك أيضاً ما فعله هشامُ بن الوليد بن المغيرة المخزوميُّ، عندما وَجَدَ أبا أُزَيْهِر الدَّوْسيَّ قاعداً في مقعد أبي سفيان بن حرب بذي المجاز، فعَاجَلَهُ بضربةٍ على رأسه[2]. . . وكان لأبي أُزَيْهر ثلاثُ بنات، زوَّج الأولى من أبي سفيان، وزَوَّجَ الثانية من عُتْبة بن ربيعة، وزوَّج الثالثة من الوليد بن المغيرة والدِ هشام، ولكنه أَمْسَكها عنه، ولم يُهْدِها إليه! وكادت أن تقوم فتنةٌ يومئذٍ بسبب ذلك، ولكن أبا سفيان استطاع إخمادَها بحِلْمه وأَنَاتِهِ. وفي هذه الواقعة قال جَعْدةُ بن عبد الله بن عبد العُزَّى:

لا أرى في الأَنَامِ مثلَ هشام أبداً من مُسَوَّدٍ ومَسُودِ

---

(١) الأغاني: ٣/ ٤، والأعلام: ٥/ ٢٠٥.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٣٥.

يوم ألقَى أبا أُزَيْهِرَ غَضْباً   لم يكن عند ذاك بالمحْدُودِ
ثم وَلَّى بذي المجازِ كريماً   غير ما طائشٍ ولا رِعْديدِ[1]

● الرقيق في ذي المجاز:

كان أبو يزيد عُبَيْد السُّلَميُّ لحقه سِباءٌ وهو صبيٌّ، فبِيعَ بسوق ذي المجاز في الجاهلية، فابتاعه رجلٌ من بني سعد بن بكر بن هوازن، فأقام عنده زماناً طويلاً، يَرْعَىٰ له إبِلَهُ، ثم إن عُبيداً ضرب ضِرْعَ ناقةٍ لمولاهُ، فأدْماهُ، فلَطَم وجهه، فخرج عبيدٌ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مُسْتعدِياً، فلما قدم عليه، قال: أنا رجلٌ من بني سُلَيم، أصابني سباءٌ في الجاهلية، كما يُصيبُ العرب بعضها من بعض، وأنا معروفُ النَّسَب، وقد كان رجلٌ من بني سعد ابتاعني، فأساء إليَّ، وضرب وجهي، وقد بلغني أنه **لا سباء على عربيّ في الإسلام**... فما كاد يَفْرَغ من كلامه، حتى وَصَل مولاهُ، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا غلامٌ ابتعتُه بذي المجاز، وقد كان يقوم في مالي، فأسَاءَ، فضربتُه ضربةً واللّهِ ما أعْلَمُني ضربتُه غيرها قط، وإن الرجُلَ ليضرب ابنَهُ أشدَّ منها، فكيف بعبده؟ وأنا أُشْهِدُكَ أنه حُرٌّ لوجه الله! فقال عمر لعُبَيد: قد امْتَنَّ هذا الرجلُ عليك، وقطع عنك مؤونةَ البَيِّنَةِ، فإن أحْبَبتَ فأقمْ عنده، وإن أحْبَبتَ فالْحَقْ بقومك... فاختار الرجلُ الإقامة معه، وانتسب هو وولدُه إلى بني سعد... ويُذكر أن يزيد بن عُبيد هو المعروف بأبي وَجْزَة[2].

ويُقال: إن عمر بن الخطاب اشترى خادمه «أسلم» من سوق ذي المجاز، وكان أسْلَمُ هذا حبشيّاً أسود[3]. ومنه نفهمُ أن الرقيقَ كان من

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٣٦.
(٢) الأغاني: ١٢/ ٢٤٠.
(٣) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٣٥٢.

العُروض التجاريَّة الرائجة في موسم ذي المجاز.

● **حلف ذي المجاز:**

كان عَقْدُ الحِلْفِ، أو إعلانُهُ، أو حِفظُه في المجامع والمواسم المقدَّسة يُضْفي على الحِلْفِ صفةَ القداسَةِ والإلْزام. وقد اشتُهِر من ذلك «حلفُ ذي المجاز»، الذي أصْلح فيه ملكُ الحيرة عمرو بنُ هند، بين بني تَغْلبٍ وبكرِ بن وائل، وأخذ عليهم العُهودَ والمواثيق والرُّهُنَ ضماناً لوفائهم به. وإلى هذا الحلف أشار الحارثُ بن حِلِّزَة اليشكريُّ بقوله:

واذْكروا حلفَ ذي المجاز وما قُـدِّم فيــه العهــودُ والكُفَــلاءُ[1]

وهذا الخبرُ يُشير بوضوح إلى خَطَر ذي المجاز، وإلى أنه كان مجمعاً عامّاً من مجامع العرب يقصده أهلُ الحيرة وقبائلُ العرب الأخرى على اختلافها، وأنه كان موضعاً مُقدَّساً يُجِلُّه العربُ على تبايُن مُعْتَقداتهم، ويأتيه الملوكُ.

* * *

وأخيراً نقولُ في ذي المجاز ما قلناه في مَجنَّة وعكاظ من أن المتاجر فيه كانت مُعْفاةً من العُشُور أو الضرائب، لأنه مشمولٌ بحرمة ذي الحجَّة ومواسم الحجِّ، ولم يكن في حَوْزَةِ ملك يستبدُّ به. وكان اليومُ الثامنُ، وهو الأخيرُ، من موسمه يُسمَّىٰ يوم التَّرْوِيَة، لأنهم كانوا يَتَروُّونَ فيه من الماء بذي المجاز قبل انتقالهم إلى عَرَفَة[2].

(١) شرح القصائد السبع الطِوال: ٤٧٨.
(٢) أخبار مكة: ١/ ١٨٨.

الفصلُ الثامن

موسمُ الحجِّ إلى الكعبة

كانت ما تزال في العرب بقيَّةٌ من الشعائر الدينيَّة يتمسَّكون بها في عصر الجاهلية، ورثوها عن الحنيفيَّةِ دينِ أبيهِمُ إبراهيمَ ثم إسْماعيلَ. ولعلَّ أبرزَها إطباقُهم على تعظيم بيت الله الحرام بمكة، مع ما صاروا إليه من الوثنيَّةِ، والشِّرْكِ، وعبادةِ الأصنام، فكان في مكة، حول الكعبة وفي جوفها، ثلاثُ مئة وستون صنماً، تُمثِّل جملة ما كانت قبائلُ العرب تَتَعبَّدُ له، أو تَتَقرَّبُ به إلى الله زُلْفَى[1]. وقد ذكر ابنُ حبيب أنهم كانوا يحجُّون إلى البيت، ويعتمرون، ويطوفون بالكعبة أسبوعاً، أي سبعَ مرّات، ويمسَحُون الحجرَ الأسود، ويَسْعَوْن بين الصفا والمروة، وكانوا يُلَبُّون، إلا أن مُعْظَمهم كان يُشْرِك في تَلْبيتِهِ، وكانت لكل قبيلة تلبيةٌ تتوجَّهُ بها إلى صنمها، وكانوا يُهْدون الهَدْيَ، ويَرْمُونَ الجِمَارَ[2]. وكانوا يُحْرِمُون بالحجّ، ويعرفون المَنَارَ القديمةَ[3]، التي ضَرَبها إبراهيمُ الخليلُ على حُدود الحَرَم المكّيّ، ويعلمون أن ما دون المنار إلى مكة من الحرَم، وما وراءها من الحِلّ، وقد أقرَّ الرسولُ عليه السلامُ العربَ على ما عرفوه من ذلك. أمَّا مواقيتُ الإحرام التي يُهَلُّ

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٢١، السيرة النبوية للندوي: ٦٧، ٨٣، وتاريخ التمدن الإسلامي: ٢٨.

(٢) المحبَّر: ٣١١، ٣١٩.

(٣) المَنَارُ: جمع مَنَارة، وهي العلامةُ تُجعل بين الحدَّيْن، ومَنَارُ الحَرَم: أعْلامُه.

منها للحجّ فهي أبعدُ من حدود الحَرَم، وهي من الحِلّ، ومَن أحْرَم منها بالحجّ في الأشهُر الحرُم، فهو مُحْرِمٌ، مأمورٌ بالامتناع عن الرَّفَثِ، والتطيُّبِ، ولُبْسِ المَخِيط، وعن صَيْد الصَّيْد[1]. ولئن أقَرَّ رسولُ الله العربَ على ما عرفوه من حدود الحرم، لقد حطم لهم أصنامَهم، وألْغَى تَلْبيَاتِهم، واستبدل بها جميعاً تلبيةً واحدةً لله الواحدِ الأحَدِ، وعلَّمهم المناسِكَ كما جاء بها الإسلام، مُنزَّهةً عن كلِّ ما كان يَشُوبَها من علامات الشِرْك. .

وتُوجَدُ في كتب الأخبار والتاريخ إشاراتٌ كثيرةٌ إلى صُوَرِ التلْبيَةِ التي كانت عند قبائل العرب في الجاهلية. ويبدو من النظر فيها أنها بجُملتها أُنشِئت على إيقاعاتٍ مُعَيَّنةٍ، للتغنِّي بها والرقص، فهي غالباً «تتكوَّنُ من جُمَلٍ قليلةٍ، قصيرة، مُقفَّاةٍ، مُجَزَّأةٍ تجزيئاً موسيقيّاً، لعلَّه قُصِدَ لِيُسَاعِدَ على تَنْغيمها وغنائها. . . ومن أمثلة هذه التلبيات الموزونة تلبيةُ قبائل نزار: لبَّيْك إن الحمد لك، والمُلْكَ لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكهُ وما مَلَك»[2]. . . ذلك أنهم كانوا في نُسكهم يطوفون بالكعبة، وبأصنامهم، يرقصون حولها، ويُغَنُّون لها، ويُلَبُّونَ، ويُهَلِّلُون، وينحرون عندها ما ساقوه معهم من الأنعام يُقَدِّمُونه قرابينَ للآلهة ونُذُوراً.

وإن في قوله تعالى: ﴿**وما كانت صلاتُهم عند البيت إلا مُكَاءً وتَصْدِيَةً**﴾[3]، إشارةً إلى هذا الذي كانوا يفعلونه في حجِّهم، فالمُكَاءُ: الصَّفِيرُ، والتَّصْدِيَةُ: التصفيق باليَديْن. وكان من العادات المألوفة في الجاهلية توافُرُ القِيَانِ للغِنَاءِ في المواسم، وقد تحقَّق أنه كانت لقُريشٍ قِيَانٌ

---

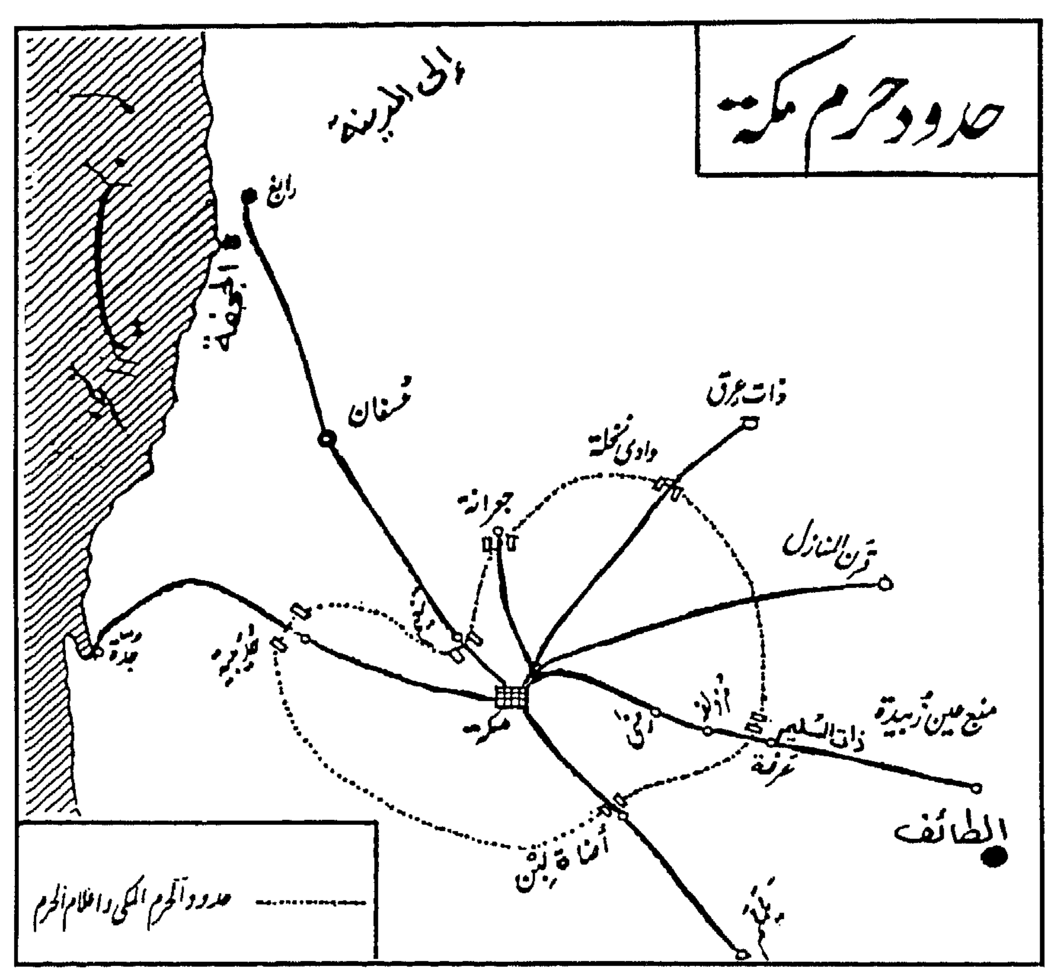
(١) لسان العرب: ٥/ ٢٤١ (نور)، و ١٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣ (علم).

(٢) د. ناصر الدين الأسد ـ القِيَان والغناء في العصر الجاهلي: ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٥.

يَعْزِفْنَ لهم، ويُغَنِّينَ في مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وغير ذلك من المناسبات[1]. ولعلَّهم كانوا، بعد فراغهم من مناسك الحج، يعقدون مجالسَ للغناء واللهو والطرب والشراب، يحضرها معهم من تأخَّر بمكة من أشراف العرب وساداتهم وتُجَّارهم، لقضاء ما لم يُقْضَ بعدُ من حوائجهم.





(١) القيان والغناء في العصر الجاهلي: ٥٠ ـ ٥١.

● **مَنَاسِكُ الحج كما كانت في الجاهلية:**

وكان العربُ في الثامن من ذي الحجة، يقوم فيهم مَن يُنادِي أن تَروَّوْا من الماء بذي المجاز، لأنه لا ماءَ بعَرَفَة، ولا بالمزْدَلفةِ يومئذٍ، فسُمِّيَ ذلك اليومُ يومَ التَّرْوِيَة، وهو آخِرُ أسواقهم. ثم يخرجون يومَ التروية من ذي المجاز إلى عَرَفَة، وكانوا لا يتبايعون في يوم عَرَفَة، ولا في أيام مِنىً، تأثُّماً، فلما ظهر الإسلامُ، أُحِلَّ لهم ذلك بقوله تعالى: ﴿**ليس عليكم جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضلاً من ربكم**﴾[1]، وفي قراءة أُبَيّ بنِ كعب أضاف: ﴿**في مواسم الحجّ**﴾، يعني، كما قال الأزرقي: مِنىً وعرفَة وعكاظ ومجنة وذي المجاز، فهذه مواسم الحج[2]... وفي صحيح البخاري أن أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز، هي التي تأثَّموا من التجارة فيها، فأحَلَّ الله لهم ذلك بهذه الآية، وعَزا القولَ إلى ابن عباس[3].

وكانوا يخرجون من ذي المجاز، عند غروب شمس الثامن من ذي الحجَّة، وابتداءِ اليوم التاسع منه، وكان ابتداءُ اليوم يكون عند غروب الشمس. فإذا جاؤوا «عَرَفة»، وقفت طائفةُ «الحِلَّة» على الموقف من عَرَفَة، ووقفت طائفةُ «الحُمْسِ» في أطراف الحَرَم من ناحية «نَمِرَة»، وهي الجبلُ الذي عليه أنصابُ الحرَم، عن يمين الخارج من المأزمَيْن يُريد الموقفَ بعرفة[4]. وكانت العربُ في دينها على مذهبيْن: الحُمْس والحلَّة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٢) أخبار مكة: ١/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٣) صحيح البخاري (كتاب البيوع): ٣/ ٨٢.

(٤) معجم البلدان: ٥/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

١ ـ فالحُمْـــسُ:

هم الذين شدَّوُوا على أنفسهم في دينهم، فكانوا إذا دخل موسمُ النُّسْك والحجّ، وأَحرموا، لم يأكلوا لحماً، ولم يطبخوا سمناً، ولم يَمْخَضُوا لَبَناً ولا جبناً، ولم يغزلوا وَبَراً ولا صُوفاً ولا قُطناً، ولم يُحرِّكوا شَعْراً ولا ظِفراً، ولم يلبسوا إلا جديداً، ولم يطوفوا بالبيت إلا في ثيابِهم ونِعَالِهم، لا يَطَؤُون أرضَ المسجد بأقدامهم تعظيماً له، وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها، وإنما ينقبُ أَحَدُهم نقباً في ظهر بيته، أو خلفه، ليدخلَ ويخرجَ منه... وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿**وليس البِرُّ بأن تأْتُوا البُيوتَ من ظهورها ولكن البرَّ مَن اتَّقَىٰ، وأْتُوا البيوتَ من أَبوابها واتَّقُوا الله لعلكم تُفْلحون**﴾[١]. وكان الحُمْسُ لا يقفونَ بعَرَفَة، ولا يفيضون منها، ويقولون: نحن أهلُ الحَرَم ولا نخرجُ من الحَرَم! فنزل فيهم قولُه تعالى: ﴿**ثم أَفيضُوا من حيث أفاضَ الناسُ واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيم**﴾[٢].

٢ ـ والحِلَّـــةُ:

كانوا يطبخون السمنَ، ويأكلون اللحمَ، ويَجتزُّون من الصوف والوَبَر والشَّعَر ما يكتفون به، ويتواصَلُون في النُّسك، ويمنحُ الغنيُّ الفقيرَ بعضَ مالِه، وكانوا يدَّهِنُونَ ويتطيَّبُون، ويلبسون كلَّ الثياب، فإذا دخلوا مكة بعد فَراغهم من عرفة ومنَى، تصدَّقوا بكلِّ حذاء وكلِّ ثوبٍ لهم، ثم اسْتكْرُوا من الحُمْس ثياباً جُدُداً، تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها بثيابٍ قارَفُوا فيها الذنوبَ، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاءً، يُباشِرونها بأقدامهم، فإن لم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٩٩.

يجدوا ثياباً طافوا عُراةً، الرجالُ في النهار، والنساءُ في الليل، ذلك أنهم كانوا إذا أَحْرَمُوا بالحجِّ، لم يستحلُّوا البَيْعَ والشراءَ حتى يعودوا إلى منازلهم، إلا ما يحتاجون إليه من اللحم لطعامهم. وقيل إن الحُمْسَ هم الذين فرضوا على العرب، إذا دخلوا الحَرَم في موسم الحج، أن يطرحوا أَزْوادَ الحِلِّ، وهي ما تزوَّدُوه من طعام للسفر، ويشتروا اللحم من أهل مكة، وأن ينزعوا عنهم ثيابَ الحِلّ، ويستبدلوا بها ثيابَ الحرَم، إما شراءً، أو عاريةً، أو اسْتيهاباً، فإن تيسَّرَ لهم ذلك، وإلا طافوا بالبيت عرايا، وربما طافَتِ المرأةُ منهم مُرْتديةً ثوباً أو قميصاً، مُفَتَّقاً في مُقَدَّمِهِ ومُؤَخَّره[1]، أو مُفَرَّجاً، كأنه من سُيُورٍ تكادُ إذا انفرجت تُبدي ما وراءها.

ولمّا أقام أبو بكر، رضي الله عنه، للمسلمين حجَّهم في موسم سنة تسع للهجرةِ، كان الناسُ من أهل الشِّرْك على منازلهم من حَجِّهم، وقد نزلت يومئذ سورةُ التوبة على رسول الله، فوجَّه عليَّ بن أبي طالب إلى مكة، وأمره أن يُؤذِّنَ في الناس، إذا اجتمعوا بمِنىً يوم النَّحْر: أنه لا يدخلُ الجنةَ كافرٌ، ولا يحجُّ بعد العام مُشْرِكٌ، ولا يطوفُ بالبيت عُرْيان[2].

* * *

وكان العربُ نَهارَ التاسع من ذي الحجة، إذا طَفَلَتِ الشمسُ للغروب، وصارت على رؤوس الجبال كأنها عَمائمُ الرجال في وجوههم، دَفَعُوا من عَرَفَة، فأفاضَ الحُمْسُ من أنصاب الحرَم، وأفاضَتِ الحلَّةُ من الموقف، حتى يلتقوا بالمزدلفة جميعاً، فيبيتُون بها[3]. وكان قصيُّ بنُ كلاب بنَىٰ فيها

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧، وأخبار مكة: ١/ ١٧٩ ـ ١٨٢، والمحبَّر: ١٧٩ ـ ١٨١، ومعجم البلدان: ٥/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) السيرة النبوية للندوي: ٣٢٠.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٨.

المِشْعَرَ، فكان يُسْرَجُ عليه ليلاً، ليهتدي به أهلُ عَرَفَة إذا جاؤوا المزدلفة، فأبقاهُ اللّهُ مِشْعراً، وأمر بالوقوف عنده[1]، بقوله تعالى: ﴿**فإذا أفَضْتُم من عرفات فاذكروا الله عند المشْعَر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالِّين**﴾[2]. وكانوا يَظلُّون ليلتَهم في مُزدلفة حتى تطلعَ الشمسُ، وتصيرَ على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال على وجوههم، فيدفَعُونَ من مزدلفة إلى مِنىً[3]، لِرَمْي الجِمَار، وتقديم الأَضَاحي، وإنما سُمِّيتْ مِنىً لما يُمْنَى بها، أي يُراقُ، من دِمَاءِ الأضَاحي[4].

فلما حجَّ رسولُ الله خطب الناسَ بعرفَة، فقال: «إن أهل الشِّرْك والأوثان، كانوا يدفعون من عرفة إذا صارتِ الشمسُ على رؤوس الجبال، كأنها عمائمُ الرجال في وجوههم، ويدفعون من مزدلفة إذا طلعت الشمسُ على رؤوس الجبال، كأنها عمائمُ الرجال في وجوههم، وإنا لا ندفعُ من عَرَفَة حتى تَغْرُبَ الشمسُ، ويحِلَّ فِطْرُ الصائم، وندفعُ من مزدلفة غداً إن شاء الله قبل طلوع الشمس»[5].

وكان العربُ إذا قضَوا مناسِكَهم بمنىً، نَفَروا إلى مكة، فكانوا يَسْعَوْن بين الصَّفا والمروة، ويطوفون بالكعبة. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿**إن الصَّفا والمروة من شعائر الله فمَن حجَّ البيتَ أو اعْتَمَرَ فلا جُنَاحَ عليه أن يَطَّوَّفَ بهما ومن تطوَّعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليم**﴾[6].

---

(١) المحبَّر: ٣١٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.
(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٩.
(٤) معجم البلدان: ٥/ ١٩٨.
(٥) أخبار مكة: ١/ ١٩٠.
(٦) سورة البقرة: ١٥٨.

وكان بنو الغَوْثِ بن مُرّ، وهو أخو تميم بن مُرّ، يَلُونَ الإجازةَ بالحاجِّ مِن عَرَفة إلى مزدلفة، ومِن مِنىً إلى مكة، ثم ورثهم في ذلك بنو صفوان من بني تميم. وكان بنو عَدْوانَ يَلُونَ الإفاضةَ بالحاجِّ من مُزْدلفة إلى مِنىً غداةَ يوم النَّحْر[1]. وكانت صورةُ الإجازة أو الإفاضة بالناس، أن يتقدَّمَ صاحِبُها الناسَ فيخطبُهم، ويأمُرهم بالوفاءِ وقِرَى الضَّيْف، ورعاية الجار، وتعظيم الحرمات، ثم يجوزُ بهم فيمضُون وراءَه، فإذا نَفَر نَفَرُوا معه، وإذا رَمَى الجِمَارَ رَمَوْا، وإذا أفاض أفاضُوا. . .

وكانت تحجُّ البيتَ جماعاتٌ كثيرة من مختلف قبائل العرب، في الحجاز ونَجْد وتهامة، والعَروض، والبحرين (الأحساء)، وعُمَانَ، واليمن، وحضرموت، فضلاً عن عرب الشام والعراق. وكان يحجُّ إليه أيضاً ملوكُ حِمْيَر وكندة وغسَّان ولخم، على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم[2]. وإن إبقاءَ الإسلام على مكانة الكعبة لدليلٌ على مكانتها في قلوب العربِ جميعاً، فقد كانت مَهْوَى أفئدتهم من عهد إبراهيم وإسماعيل، ثم ظلَّتْ تضمُّهم إليها بعد ذلك، على شِرْكهم، كما تضمُّ أوثانَهم وأصنامَهم، حتى هداهُم الله بالإسلام، وعلَّمهم رسولُ الله، عليه السلامُ، مناسِكَ حجِّهم، وهَدَمَ قواعدَ الشِرْك والوثنيَّة فيهم.

* * *

موسمُ الحجّ في الإسلام:

لئن أَقَرَّ الإسلامُ الحجَّ، وجعله فريضةً على المسلمين مَنِ استطاع منهم

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ١١٩ ـ ١٢١.

(٢) معجم البلدان: ٥/ ١٨٣، وأخبار مكة: ١/ ١٨٩، ومطلع النور: ١٥٥ ـ ١٥٧.

إليه سبيلاً، لقد نَقَّاهُ مما شابَهُ من شوائب الوثنيَّة، وأرسَى قواعِدَهُ على إخلاصِ التوحيد، ونزاهةِ العبادة، وجعل أركانَه أربعةً، **الأوَّلُ**؛ الإحْرامُ، وهو نيَّةُ الدخول في أداء فريضة الحجّ، أو العُمرة، وسُمِّي إحْراماً لأنه يمنعُ الحاجَّ من إتيان المحرَّمات. **والثاني**: الوقوفُ بعَرَفَة، فالحجُّ عَرَفَة. **والثالث**: الطوافُ بالبيت، وهو طوافُ الإفاضة. **والرابع**؛ السَّعْيُ بين الصَّفا والمروة.. وجعل على الحاجِّ واجباتٍ، **أوَّلُها**؛ الإحْرامُ من الميقات، وهو ميقَاتانِ، **ميقاتٌ زماني**، أي في **أشْهُرِ** الحجّ، لقوله تعالى: ﴿**الحجُّ أشْهُرٌ معلومات**﴾[1]، وهي شوَّال وذو القعدة وعَشْرٌ من ذي الحجَّة. **والميقاتُ المكانيُّ** يعني أن يُحرِمَ الحاجُّ من الحدود التي عيَّنها رسولُ الله عليه السلامُ للإحْرام، وهي على مسافاتٍ مُتباينةٍ من مكة، وهي الحدودُ نفسُها التي عيَّنها إبراهيم الخليلُ، وكانت العربُ ما تزال تعرفها، فأقَرَّها رسولُ الله على ما كانت عليه. أمّا **الواجبُ الثاني** فرَمْيُ الجِمَارِ الثلاثِ أيامَ التشريق الثلاثة، غير جمرة العقبة، فإنها تُرمَى يومَ النحر. **والواجبُ الثالث** حَلْقُ الشعر أو تقصيرُه. ومن سُنَن الحجِّ: تقديمُه على العُمرة، والتَّلْبِيةُ، وطوافُ القدوم، والمبيتُ بمزدلفة، ومِنىً، وطوافُ الوداع، وتجرُّدُ الرجُلِ عند الإحْرام من المَخِيطِ، وارتداؤه إزاراً ورِداءً أبْيَضيْن[2]... إلى ما هنالك من أحكام دقيقةٍ، ألْغَتْ كلَّ العاداتِ والتقاليد السَّيِّئة، ومنها أنهم كانوا في الجاهلية يمتنعون من الهُجْر في القول ما دام موسمُ الحجّ قائماً، فإذا بدا لبعضهم أن يفخر بما لقَوْمه من المآثِر، ويَهجُوَ غيرهم بما يراه فيهم من المثَالِب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) **أحمد عبده عاشور** ـ الفقه الميسَّر: ١٧٣ ـ ١٧٨، ١٨٠، (القاهرة ١٩٧٨)، **والقاضي أبي شجاع أحمد بن الحسين الأصفهاني** ـ مَتْنُ الغاية والتقريب: ٢٦ (مصر (١٣٤٣ هـ).

والمعايب، انتظرواحتى يَفْرَغُوا من مَنَاسِكهم، فإذا فَرَغُوا نزلوا شِعْبَ «الصُّفِيّ» ليلة التحصيب، ووقفوا على الشِّعْب، وجعلوا يتفاخرون بالآباء والمكارم والوقائع، فيقوم من كل قومٍ شاعرٌ أو خطيبٌ، فلا يترك شيئاً من المَحَامِدِ والشرف إلا أضافه إلى قومه، وأَنْشَدَ كلَّ ما قيل فيهم من المديح، وتحدَّى الآخَرين أن يأْتُوا بمثل ذلك. فإذا كان هنالك من أراد مُفاخرتَهم من القبائل الأخرى، قام خطيبُهم أو شاعِرُهم، فردَّ عليهم أقوالهم، وذكر مَثَالِبهم، وكلَّ ما أُضيف إليهم من المساوىء، وما هجاهم به الشعراءُ، ثم افتخر بما يراهُ فَخَاراً لقومه[1]... والمحصَّبُ شِعْبٌ بين مِنىً ومكة، وكانوا إذا نَفَرُوا من منىً إلى مكة للتوديع، أقاموا بالمحصَّب، وهَجَعُوا ساعةً من الليل، ثم دخلوا مكة. وكانوا يُسَمُّونَ شِعْبَ الصُّفِيِّ هذا، صُفِيَّ السِّبَاب، والصُّفِيُّ هي الحجارة المَلْسَاءُ التي كانوا يقفون عليها، ويَعْقدون بها مجالسَ المدْحِ والذمِّ والمفاخرة... وقد أبْطل الإسلام هذه العادةَ بقوله تعالى: ﴿فإذا قضيتُم مناسِككُم فاذكروا الله كذكركم آباءَكم أو أشدَّ ذِكراً﴾[2].

ويُذكر أنه لما كان عصرُ بني أُميَّة، كان يخرجُ إلى صُفِيِّ السِّبَابِ سُدَيْفُ بن ميمون الشاعر، مولى بني خزاعة، وكان مُتعصِّباً لبني هاشم، ويخرج معه مولى لبني أُميَّة يُقال له: سَبْلَب، فيَتَسابَّانِ، ويتشَاتمان، ويذكران المثالبَ والمعايبَ، ويخرج معهما من سفهاء الفريقين مَن يتعصَّبُ لهما، فلا يبرحون حتى تكون بينهم الجِراحُ والشِّجَاجُ، فيخرج إليهم والي مكة، فيفرِّقهم ويُعاقب الجُنَاةَ منهم. ولم تزل هذه العصبيَّةُ بمكة حتى شاعت في عامَّة الناس وسِفْلَتِهم، فكانوا طائفتين يُقال لهما: السُّدَيْفِيَّةُ والسَّبْلَبِيَّة[3].

---

(١) أخبار مكة: ١/١٨٨، و ٢/٢٧٣ ـ ٢٧٤، والعقد الفريد: ٣/٣١٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.
(٣) الأغاني: ١٦/٨٦.

ومن العادات السيئة التي هَدَمَها الإسلامُ، ماكان «الحُمْسُ» يأخذون به أنفسهم من التشدُّدِ والتفرُّد في مناسك الحجّ، فصار شأنُهم شأنَ سائر المسلمين، لا يمتازون عنهم بشيء. . . وقد كان من عادات الحُمْسِ أن أحَدَهم إذا أَحبَّ أن يُعاقِبَ أحْمَسِيّاً، شَرَط عليه أن يقوم بفِعْل ما يَحْرُم عليه فِعْلُه في هذا المذهب. . .

ومن حديث ضُبَاعة بنت عامر القُشَيريَّة، أنها كانت من أجمل نساء العرب، تزوَّجها هَوْذَةُ بنُ عليّ الحنفيُّ، ثم مات عنها، فتزوَّجها عبدُ الله بنُ جُدعان التيْميُّ، فكانت عنده بمكة ما شاء اللَّهُ لها أن تكون. . . وبينما هي تطوفُ بالكعبة يوماً، إذ رآها «هشامُ بنُ المُغيرة المخزوميُّ»[1]، فأعجبتْهُ، فكلَّمها عند البيت، فقال لها: أَيُرضيكِ أن يكون هذا الجمالُ وهذا الشباب عند شيخ كبير؟ فلو أنك سألتِهِ الفُرْقَةَ لتزوَّجتُك!. . . وكان هشامٌ رجُلاً جميلاً مُكْثِراً من المال، وابنُ جُدعان طاعِناً في السنِّ، لا يُولد له.

فرجعتْ ضُبَاعَةُ إلى ابن جُدعانَ، وقد وقع هشامٌ من نَفْسها موقعاً طيِّباً، فقالت: أنا امرأةٌ شابَّةٌ، وأنتَ رجُلٌ مُسِنٌّ، فلو طلَّقْتني لكان أحسنَ! فقال: ما الذي بدا لكِ في هذا؟ على أنني أُنْبِئتُ بما كان بينك وبين هشام وأنتِ تطوفين بالكعبة، وإني أُعطي الله عهداً أنْ لا أفارِقَكِ حتى تَحْلِفي أنْ لا تَتزوَّجي هشاماً، ويوم تفعلين ذلك، فعليكِ أن تطوفي بالبيت عُرْيانةً، وأن تَنْحري كذا وكذا إبِلاً، وأن تَغْزِلي الصوفَ بين جَبَلَيْ مكة، وأنتِ من الحُمْسِ، لا يحلُّ لك أن تَغْزِلي صُوفاً أو وَبَراً.

---

(١) هشام بن المغيرة بن عبد الله: من بني مخزوم، من قريش، وسيِّدٌ من سادات العرب في الجاهلية. كانت قريش وكنانة ومَن وَالاهُم يُؤرِّخون بثلاث وقائع: بناء الكعبة، وعام الفيل، ثم بموت هشام، وهو قريب عهد من البعثة النبويّة. وكان ممن شَهِدَ حرب الفِجَار رئيساً على بني مخزوم.

فأرسلت إلى هشام بالذي أَخَذَهُ عليها ابنُ جُدعان، فبعثَ إليها: أمَّا ما ذكرتِ من طوافك بالبيت عُرْيانةً، فإني أسألُ قريشاً أن يُخْلُوا لكِ البيتَ، فتطوفي قبل الفَجْر في سَدْفَةٍ (ظُلْمةٍ) من الليل، فلا يَراكِ أحدٌ، وأمّا الإبلُ التي يجب أن تنحريها، فَلَكِ اللّهُ أن أَنْحرها عنك، وأمَّا ما ذكرتِ من غَزْل الوَبَرِ، فإنها بِدْعةٌ ابتدعها نَفَرٌ من قريش، وليست دِيناً.

فقالت ضُباعَةُ حينئذٍ لابن جُدعان: نعم، لكَ أن أصْنَعَ كلَّ ما قلتَ وأخذتَ عليَّ إن تزوَّجتُ هشاماً! فطلَّقَها، فتزوَّجت هشاماً، فكلَّم قريشاً، وسألهم أن يُخْلوا لها المكانَ كي تطوفَ بالكعبة... نقل ابنُ عباس عن «المطَّلب بن أبي وَدَاعَة» قولَه: كنتُ يومئذٍ غُلاماً من غلمان قريش، فكنتُ أَخْتلسُ النظرَ إليها، فرأيتُها أقبلتْ من باب البيت، فوضعتْ ثيابَها، ثوباً بعد ثوب، ثم نَشَرتْ شعرها، فغطى بطنَها وظهرها، حتى وصل إلى خلخالها، وطافت بالكعبة سبع مرَّاتٍ، فكنتُ أتبعُها إذا أدْبَرَتْ، وأستقبلُها إذا أقبلتْ، فما رأيتُ شيئاً ممَّا خلق اللّهُ أحسنَ منها، واضِعةً يدَها على فَرْجها وهي تقول:

اليــومَ يبــدو بعضُــهُ أو كلُّــهُ وَمــا بــدا منــه فــلا أُحِلُّــهُ

حتى فَرَغَتْ.. ثم غزلتْ ذلك الوَبَرَ، ونَحَرَ عنها هشام ما ذكرتْ من الإبل... وقد ولدتْ لهشام إبنَه سَلَمة بن هشام، فكان بعدُ من خيار المسلمين. وبينا هي قائمةٌ ذات ليلةٍ، إذ سمع هشام صوتَ صائحةٍ، فقال: ما هذا؟ فقيل: مات عبدُ الله بن جُدْعان! فقالت ضُبَاعة: لَنِعْم زوجُ العربيَّة كان! فقال هشام: أي واللّهِ، وابنةِ العمِّ القريبة! ثم مات هشام بعد ذلك عنها.

وذكرت كتبُ السيرة والأخبار أن رسول الله رغب في الزواج منها، وكانت أكبرَ منه سِنّاً بنحو عشر سنين، فخطبها إلى ابنها سَلَمة، فقال له: حتى أسْتأمِرَها... فجاءَها وأعْلمها بالخبر، فقالت: أفي رسول الله

تستأمِرُني؟ إرْجِعْ فزوِّجْهُ! فرجَعَ، وقد بلغ الرسولَ عنها كَبْرةٌ، وأنها كثُرتْ غضونُ وجهها، وسقط بعضُ أسنانها، فأمْسَكَ عن أمرها[1].

* * *

● **زمن موسم الحج إلى مكة:**

لا شك في أن بيت الله بمكة كان قائماً قبل زَمنِ إبراهيم عليه السلام وأنه كان مَثَابَةَ نُسكٍ وعبادةٍ وحجٍّ، بدليل قوله تعالى: ﴿**إن أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للناس لَلَّذي ببكَّةَ مُباركاً وهُدىً للعالمين**﴾[2]. ولمَّا ذهب إبراهيمُ إلى مكة ليُسْكِنَ فيها زوجَهُ هاجَرَ وإبْنَهُ إسماعيلَ، خاطَبَ ربَّه فقال: ﴿**ربَّنا إني أَسْكنتُ من ذُرِّيَّتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرَّم**...﴾[3]، وهذا دليلٌ على أن البيت كان قائماً، ومُحرَّماً منذ زمنٍ بعيد، ويؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿**وإذ بَوَّأْنا لإبرهيم مكانَ البيت أن لا تُشرك بي شيئاً وطَهِّرْ بيتيَ للطائِفينَ والقائمين والرُّكَّعِ السُّجُودِ وأَذِّنْ في الناس بالحجِّ يأتُوكَ رِجَالاً وعلى كلِّ ضامِرٍ يأتين من كلِّ فجٍّ عميق ليَشْهدوا منافِعَ لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلوماتٍ على ما رزقهم من بَهيمةِ الأنعام فكُلُوا منها وأطْعِموا البائسَ الفقير ثم لْيَقْضُوا تَفَثَهم ولْـيُوفُوا نُذُورَهم ولْيَطَّوَّفوا بالبيت العتيق**﴾[4]... وبَوَّأَهُ، أو بـوَّأَ لـه منـزلاً أو مكـانـاً، أي هيّـأَ لـه، وأنـزلـه ومكَّـن لـه فيـه، أو أسْكَنَـهُ

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١ح: (٣)، والمحبَّر: ٩٧، و٤٣٧ ـ ٤٣٨، ومعجم البلدان: ٦/ ١٨٤ ـ ١٨٥، والأعلام: ٣/ ٢١٣، و٨/ ٨٨، والإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٥ (الترجمة رقم: ٦٧٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الحج، الآيات: ٢٦ ـ ٢٩.

إيّاهُ[1]. . . فالبيتُ كان موجوداً إذن، فأنزله الله فيه، وأمره أن يُطهِّرهُ ويرفعَ قواعدَهُ، ويؤذِّنَ في الناس بالحجِّ، ليَشْهَدوا منافعَ لهم، وهي رضوانُ الله في الآخِرة، وما قد يُصِيبُونه هنالك من منافع التجارات والطعام والبَدَنِ[2]. . . وليذكروا اسمَ الله في أيام معلوماتٍ، هي في الغالب العشر الأول من ذي الحجة، ويقال إنها يومُ عرفة، ويومُ النَّحْر، وأيامُ التشريق[3]. . وفي هذا كلِّه تحديدٌ دقيق لميقات موسم الحجِّ. وقد أمر اللَّهُ الناس، إذا قصدوا الحجَّ، أن يقضوا تَفَثَهم، وهو في قولٍ: مناسكُ الحجّ، وفي أقوالٍ أخرى: حَلْقُ الشعر أو تقصيرُهُ، وتقليمُ الأظفار، وذَبْحُ الهَدْي، ورَمْيُ الجِمَار[4]. . . كما أمرهم بأن يُوفُوا نُذُورهم، وهي كلُّ ما أَوْجَبَهُ الإنسانُ على نفسه، تبرُّعاً لبيت الله، من عبادةٍ أو نُسكٍ، أو صدقةٍ، أو هَدْي، ونحوِ ذلك[5]. . . وأما الطوافُ، فهو الطوافُ الواجبُ يومَ النَّحْرِ، وهو آخِرُ المناسِك، وهكذا صنع رسولُ الله، فإنه لما رجع إلى مِنىً يومَ النَّحْرِ بدأ برَمْي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نَحَرَ هَدْيهُ، وحَلَق رأسَهُ، ثم أفاض من مِنىً فطاف بالبيت[6].

ذكرتُ ذلك اسْتِطراداً، لأن سِيَاقَ الكلام يَستوْجِبُه، بينما أريدُ التأكيد على أن بيت الله بمكة كان قائماً قبل زمن إبراهيم. . . ومع ذلك، إذا فَرضنا أن موسمَ الحجِّ إنما بدأ في زمن إبراهيم، وقد تبيَّن أنه في منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد، فذلك يعني أن هذا الموسم انقضى عليه، منذ قيامه

---

(١) لسان العرب: ١/ ٣٨ ـ ٣٩ (بوأ).
(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٦٣٣.
(٣) المرجع نفسه: ٤/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤.
(٤) لسان العرب: ٢/ ١٢٠ (تَفَثَ)، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٦٣٥.
(٥) لسان العرب: ٥/ ٢٠١ (نذر)،
(٦) تفسير ابن كثير: ٤/ ٦٣٥.

أركان الكعبة، وهو أمرٌ لا يهمُّنا فيما نحن فيه، إذ يكفينا من الخبر دلالتُهُ، في الحالَيْن، على أن العرب كانوا يتداولون قصائد المتفوِّقين من شعرائهم، في مواسم الحجِّ بمكة، وأن هذا هو ما كانت عليه أحوالُهم في الجاهلية.

ولمَّا كان فجرُ الإسلام، تبدَّل وجهُ المجتمع العربي، وبينما كان الشعر زمنَ الجاهلية في خدمة القبيلة ومصالحها، صار في الإسلام وسيلةً إلى تأييد الديانة الجديدة... ثم أخذ التنافسُ بين الشعراء أشكالاً جديدةً، وطرأتْ على الشعر أغراضٌ مختلفةٌ، حتى كان زمنُ بني أُميَّة، فازدهر فنُّ الغَزَلِ في الحجاز ازدهاراً عظيماً، واشتغل به شعراءُ الحواضر والبوادي هناك كفَنٍّ مستقلٍّ بذاته، وليس،كما كان قديماً، لازمةً تأتي في مُقدّمة كلّ قصيدة في سائر فنون الشعر... وقد كان الحجازُ قلبَ الدولةِ الجديدة التي أقامها الإسلامُ، فلما غلب بنو أميَّة على الخلافة، خافوا المُعارِضَةَ من زعماء المهاجرين والأنصار في الحجاز، أن تَزْحَمَهم عليها، وتعملَ على صَرْفها عنهم، فنقلوا عاصمةَ الدولة من المدينة، وجعلوها في دمشق، وعَمَدُوا إلى إقصاء أهل الحجاز عن شؤون الحُكم والسياسة العامَّة، وطَفِقُوا يُغْدقون عليهم، من الأموال والهِبَاتِ والنِّعَم، ما وسَّع عليهم أسبابَ معيشتهم، وصَرَفَهم عن التفكير في أُمورِ الخلافةِ والمطالبةِ بها، فنشأت في مكة والمدينة طبقةٌ مُتْرَفَةٌ جِدّاً من أبنائهم، وفيهم شعراءُ الغزل، ورثتْ عنهم السيادةَ والشرفَ، فوق ما كانوا غنموهُ من الغنائم الكبرى إبَّانَ حركة الفتوح، وفوقه ما ظلَّ بنو أميَّة يُنْعمون به عليهم من كل جانب، فعاشوا في بطالة ونعيم وثراء، وكانت مجالسُ اللهو والغناء يومئذٍ انتشرت في حواضر الحجاز مع انتشار المُغَنِّينَ والمُغَنِّياتِ من الموالي والرقيق، فاشتغلوا بها عن غيرها من الأمور، فاقترنت نهضةُ الغناءِ والموسيقى، بنهضةٍ كبيرةٍ في فنِّ الشعر الذي يُغَنَّىٰ، أو يُصْنَعُ ليُغَنَّىٰ ويُصْحَبَ بالعَزفِ على الآلات الموسيقيَّة، وهو

شعرٌ يدورُ في مُعظمه على الغَزَلِ بالمرأة، ووصفِ محاسنها، وثيابِها، وعطرِها، وحديثها. . . ويمتاز بأن موسيقاهُ أكثرُ صفاءً من موسيقى الشعر القديم، وبأن لغتَهُ مُختارةٌ من مُفْردات سهلةٍ، يفهمها العربُ والمستعرِبُون، فالقِيَانُ الأعجميَّاتُ كُنَّ يُلَقَّنَّ العربيةَ، ليُغنِّينَ ما يُنظَمُ لهنَّ بها من الشِعْر، فكان شعراً شَعْبيّاً غنائيّاً، يُنْشِدُهُ الشعراءُ في مواسم الحجِّ بمكة والمدينة، ويُغَنَّى في مجالس الغناء واللهو، ثم ينتقل إلى الحواضر والبوادي،القريبة في الحجاز، والبعيدة في العراق والشام، ولا سيما وقد قَرُبَتْ معانيه من الناس، وسَهُلت عِبَاراتُه وألفاظُه، وخَفَّت أوزانُه.

ومثلما اشتغل هؤلاء الشعراءُ بمجالس الغناء، اشتغلوا أيضاً بمواسم الحجِّ، فكانوا يترصَّدُون قوافلَ الحَجِيج، يَتَعرَّضُون للحاجَّاتِ الجميلاتِ من بنات الأشراف ونسائهم، فيتغزَّلون بهنَّ، ويَصِفُونَهنَّ بأحسنَ ما يُمكن أن تُوصَفَ به امرأة. ولعلَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة يأتي على رأس شعراء الغزل في الحجاز ممَّن كانوا يُشَبِّبُون بالنساء الجميلات الوافدات إلى مكة للحجِّ. ولعلّ عائشة بنت طلحة التَيْميَّة كانت على رأس من تغزَّلَ بهنَّ الشعراءُ في مواسم الحج عَلاَنِيَةً. . .

* * *

● **عمر بن أبي ربيعة ومواسم الحج:**

أمَّا عمرُ فهو أبو الخطَّاب بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميُّ القرشيُّ (٢٣ ـ ٩٣ هـ = ٦٤٤ ـ ٧١٢ م)، من أهل مكة، أَرقّ شعراءِ عصره، ولم يكن في قريش أشعرُ منه[١]. وذكر الأصفهانيُّ روايةً تقول: «كانت العربُ تُقِرُّ

(١) الأعلام: ٥/ ٥٢.

قلتُ فيك. قالت: أوَ قد فعلتَ يا فاسق؟ قال: نعم، فوقفتْ، فأنشدها:

يا ربَّةَ البغلةِ الشهباءِ هل لكِ في … أن تَنْشُري مَيّتاً، لا تُرْهَقي حَرَجَا
قالتْ: بدائِكَ مُتْ، أو عِشْ تُعَالِجُهُ … فإن تُقِدْنا فقد عَنَّيْتَنا حِجَجَا
حتى لَوَ اسْطِيعُ مما قد فعلتَ بنا … أكلتُ لحمَكَ من غيظٍ وما نَضِجَا[1]

فقالت: لا وربِّ هذه الكعبةِ ما عَنَّيْتَنا طَرْفَةَ عينٍ قطُّ، ثم سارت[2]. . .
ذلك أنها إنما كانت تَتَراءَىٰ له (أي تتكلَّفُ النظرَ إليه ليراها)، ليَصِفَ جمالَها، ويُشيدَ بمحاسِنِها، وليس لأنه عَنَّاها بشبابه وجماله، فهي امرأةٌ حُرَّةٌ مسلمةٌ، لا ترتكبُ مثلَ هذا الإثْم، وإن كانت فخورةً بحُسْنِها، حريصةً على أن يتحدَّثَ الناسُ به اعترافاً بفَضْلها في ذلك على غيرها من نساء عصرها.

* * *

● **عائشة وسُكَينة في الحجِّ:**

ومن طريف ما يُذكر من أخبار عائشة، واحتفالها بموسم الحجِّ، أنها دخلتْ على الوليد بن عبد الملك، وهو بمكة، فقالت: يا أمير المؤمنين، مُرْ لي بأعْوانٍ!. فضَمَّ إليها قوماً يكونون معها، فحجَّتْ ومعها سِتُّونَ بِغْلاً عليها الهوادِجُ والرَّحَائِلُ، ويُقال إن سُكَيْنَةَ بنت الحُسَيْن، وكانت عائشةُ ضَرَّتَها عند مُصعب، حجَّتْ في ذلك العام، وكانت عائشةُ أحْسَنَ منها مَتَاعاً وأَجْهِزَةً وعُدَّةً، فقال حادِيها:

عائشُ يا ذاتَ البِغَالِ السِّتِّين … لا زلتِ ما عشتِ تَحجِّين

---

(١) النَّشْرُ: الإحْيَاءُ. أَرْهَق: حمَّل، أو كلَّفَ الشيءَ، أو دَفع إليه. الحَرَجُ: الإثم أو الذنب. القَوَدُ: القصاص. التَّعْنِيَةُ: تكليفُ المشقَّةِ والأَذَى. الحِجَجُ: ج حِجَّة بمعنى الحجِّ والسنة.
(٢) الأغاني: ١/ ١٩٠ ـ ١٩٣.

فشقَّ ذلك على سُكَيْنَة، فنزل حاديها، فقال:

عـائـشُ هـذي ضَـرَّةٌ تَشْكُـوكِ   لولا أبوها ما اهتدى أبوكِ

فأمرتْ عائشة حاديَها أن يكفَّ فكفَّ[١].

● **عمر بن أبي ربيعة والوليد بن عبد الملك:**

ويبدو من الأخبار، أن أمير المؤمنين، في عصر بني أمية، كان إذا انقضى موسمُ الحجِّ، ظلَّ هنالك مُدَّةً يستقبلُ فيها الناس. وقد ذُكر أن ابن أبي ربيعة حجَّ في إحدى السنين، فلما انصرف من الحجِّ، أَلْفَىٰ الوليدَ بنَ عبد الملك وقد فُرِشَ له في ظهر الكعبة، وجلس هنالك يستقبل الناس. فجاءَهُ عمرُ، وقد صار شيخاً مُسِنّاً، فجلس إليه، فقال له الوليدُ: أنْشِدْني شيئاً من شِعرك، فأنشده قصيدته التي قال فيها:

أَمِـنْ آلِ نُعْـم أنـتَ غـادٍ فمُبْكِـرُ   غـداةَ غَـدٍ أم رائـحٌ فمُهَجِّـرُ

بحاجةِ نفسٍ لم تقلْ في جوابها   فتُبلَـغَ عُـذْراً، والمقـالـةُ تُعْـذِرُ

فطرب الوليدُ، واهتزَّ لذلك، فأجْزَلَ صِلَتَه وبالغ في إكرامه[٢].

● **ابنُ أبي ربيعة في مِنىً:**

ويبدو أن عُمر ابن أبي ربيعة كان يَتَّبعُ النساءَ الحَوَاجَّ في كل مكان من مناسك الحجّ، ويختلسُ النظرَ إلى وجُوهِهنَّ وأَيْديهنَّ، وقد رأى إحداهُنَّ بالمُحَصَّبِ من منىً في أحد المواسم، فراعَهُ منها أنها ليست كالأعراب تبدو

---

(١) الأغاني: ١١/ ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) المرجع نفسه: ١/ ١٢٣.

خالدُ بنُ العاص وَلِيَها قبله ثلاث مرات[١]. . . وبيْنا عائشةُ تطوفُ بالكعبة يومئذٍ، أذَّن المؤذِّنُ، فخرج الحارثُ للصلاة، فأرسلت إليه عائشةُ: قد بقيَ من طَوَافي شيءٌ لم أُتِمَّهُ! فأَمَرَ المؤذِّنَ، فكفَّ عن الإقامة ريثما تَفْرَغُ من طوافها. . . وبلغ ذلك عبدَ الملك فعَزَلهُ، فقال: ما أهْوَنَ واللَّهِ غَضَبُه عليَّ عند رضاها عني[٢].

● ليت الحجَّ كان كلَّ يومين:

ذكر الأصفهاني أن إحدى بنات مروان بن الحكَم حَجَّتْ في سنةٍ، ولمّا قَضَتْ نُسُكَها، أحبَّتْ أن تسمعَ حديثَ ابنِ أبي ربيعة، فأَخْفَتْ نفسَها في نِسْوةٍ أتَيْنَهُ، فحدَّثَها مَلِيّاً، ثم انصرفتْ. . . فأتْبَعَها خادماً عرفتْ موضِعَها، فسأل عمرُ عنه حتى تحقَّق منها وعَرَفها، ولعلَّها كانت تنزلُ بالخَيْفِ من مِنىً. ولمّا عادتْ إليه بعد ذلك، أخبرها بأنه عرفها، فقالت له: سألتُك بالله ألاّ تُشهرني بشِعرك! ثم بعثتْ إليه بألف دينار هديَّة، فقَبِلَها، وابتاع بها حُلَلاً وطِيباً، وأهْداها إليها، فردَّتْها، فقال لها: واللَّهِ لئن لم تَقْبليها لأَجْعَلَنَّها نَهْباً مُباحاً لمن شاء أَخَذَ منها، فتكوني مشهورةً! فقَبِلَتْها ورحَلَتْ، فقال فيها:

أيُّها الرائحُ المُجِدُّ ابتكارا ... قد قضى من تِهامَةَ الأَوْطارا
إن يكن قلبُك الغداةَ خَلِيّاً ... ففؤادي بالخَيْفِ أمسى مُعَارا
ليت ذا الدهرَ كان حتماً علينا ... كلَّ يومين حِجَّةً واعْتِمَارا[٣]

---

(١) زامباور ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة: ٢٧.
(٢) الأغاني: ١١/ ١٨٠ ـ ١٨١.
(٣) المرجعُ نفسه: ١/ ١٦٦.

وتعرَّضتْ لي في المسير فما أمسى الفؤادُ يرى لها مِثْلا[1]

● سُعْدَى بنت عبد الرحمن بن عوف:

كانت سُعدى جالسةً في المسجد الحرام بمكة، فأبصرت عمر بن أبي ربيعة يطوفُ بالكعبة، فأرسلت إليه: إذا قضيتَ طوافَكَ فَأْتِنا! فلما قضى طوافَهُ أتاها، فحادثها وأنشدها من شعره، فقالت: ويحك يا ابنَ أبي ربيعة ما تزالُ سادِراً في حَرَم الله مُنْتَهكاً، تتناول رَبَّاتِ الحِجَال من قريش! فقال: دعي هذا عنك، أما سمعتِ ما قلتُ فيكِ؟ قالت: وما قلتَ فيَّ؟ فأنشدها:

أَحِـنُّ إذا رأيـتُ جمـالَ سُعْـدىٰ وأبكـي إن رأيـتُ لهـا قَـرِينـا
أَسُعْـدى إنَّ أَهْلَـكِ قـد أجَـدُّوا رحيـلاً، فـانظـري مـا تـأمـرينـا

فقالت: آمُرُكَ بتقوى الله، وتَرْكِ ما أنت عليه[2]...

● عمر يُزوِّجُ مُحِبَّيْن:

ويبدو أن عُمر لمّا أَسَنَّ، وذهب عنه ما كان به من شوق وطَربٍ إلى النساء، جعل يُنكر على نفسه بعض ما كان يفعل... ومن ذلك أنه نظر يوماً إلى رجُل يُكلِّم امرأةً في الطَّوَاف، فاقترب منه، وعاب عليه ذلك، وأَنكرهُ، فقال الرجُل: إنها ابنةُ عميٍّ! فقال له عمرُ: ذاك أَشْنَعُ لأمرك، فقال: إني خطبتُها إلى عمِّي، فأبىٰ عليَّ إلا بصَدَاق أربع مئة دينار، وأنا غيرُ مُطيقٍ ذلك... وشَكا إليه من حُبِّها، وكَلَفِهِ بها أمراً عظيماً، واسْتَشْفَعَ به على عمِّه. فسار معه إليه، وكلَّمه، فقال العمُّ: هو مُمْلِقٌ، وليس عندي ما أُصْلِح

---

(١) الأغاني: ١/ ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٢) المرجع نفسه: ١٧/ ٩٧ ـ ٩٩.

به أمرَه! فقال عمر: وكم الذي تريده منه؟ قال: أربع مئة دينار... فقال: هي عليّ، فزَوِّجْهُ. ففَعَل العمُّ ذلك، فطرب عُمَرُ واشتاق إلى أيامه الماضِيات، فقال:

تقولُ وليدتي لمّا رأتني ... طربتُ وكنتُ قد أقْصَرتُ حِينا
أراكَ اليومَ قد أحدثتَ شوقاً ... وهاج لك الهوى داءً دَفِينَا
فقلتُ شكا إليَّ أخٌ مُحبٌّ ... كبعض زماننا إذ تَعْلمينا
فقَصَّ عليَّ ما يَلْقَى بهندٍ ... فذكَّرَ بعضَ ما كنا نَسِينا
وذو الشوقِ القديم وإن تعزَّىٰ ... مَشُوقٌ حين يلقَى العاشِقينا[1]

● طائفةٌ بالبيت تُنْشِدُ شعراً:

جاء في الأخبار أن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كان يطوفُ بالبيت الحرام، إذ رأى امرأةً تطوفُ وتُنشد:

لا يقبلُ اللّه من معشوقةٍ عملاً ... يوماً وعاشقُها غَضْبانُ مهجورُ
ليست بمأجُورةٍ في قتلِ عاشِقها ... لكنَّ عاشقَها في ذاك مأجورُ

فقال لها: يا أَمَةَ الله! أمثلُ هذا الكلام في مثل هذا الموقف، في بيت الله الحرام؟ فقالت: يا فتىً! أَلَسْتَ ظريفاً؟ قال: بَلَىٰ... فقالت: ألستَ راوِيَةً للشعر؟ قال: بلىٰ... فقالت: ألم تسمع قولَ الشاعر:

بِيضٌ غَرائِرُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ ... كظِبَاءِ مكّةَ صَيْدُهُنَّ حرامُ
يُحْسَبْنَ من لين الحديث زَوَانِياً ... ويصدُّهُنَّ عن الخَنَا الإسلامُ[2]

---

(١) الأغاني: ١/١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) أبو محمد السرَّاج ـ مصارع العشاق: ٢/١٧٧ و ٢١٧.

حججتُ سنةً من السنين، وحجَّ زوجُ عَزَّةَ بها، ولم يكن أحدٌ منا يعلم بصاحبه، فلما كنا ببعض الطريق، أمرها زوجُها أن تَبتاع سمناً تُصْلح به طعاماً، فجعلتْ تأتي الخِيَامَ خَيْمةً بعد أُخرى، حتى دخلتْ عليَّ وهي لا تعلم أنها خيمتي. وكنتُ أَبْري سهماً، فلما رَأَيْتُها جعلتُ أبري أصبعي وأنا أنظر إليها ولا أعلمُ ما أصنع، فأقبلتْ عليَّ، وأمسكت يدي، وجعلتْ تمسحُ الدمَ عنها بثوبها. وكان عندي زِقٌّ من السمن، فحلفتُ لتَأْخُذَنَّه، فأخذتْه، وذهبتْ به إلى زوجها، فرأى أثَر الدم عليها، فسألها عن خبره، فكتمتْهُ، فحلَفَ لتَصْدُقَنَّه، فصَدَقَتْهُ، فضربها وحَلَفَ لَتَشْتُمَنِّي في وجهي! فوقفتْ عليَّ، وهو معها، وقالت لي: يا فاسق! وهي تبكي، ثم انصرفا. . . فذلك حين أقول:

يُكلِّفُها الخِنْزيرُ شَتْمي وما بِها هَوَاني، ولكنْ للمليكِ اسْتَذلَّتِ[1]

وهو من قصيدته التي قال فيها، يذكرُ ذلك الموسمَ، ومكانَها أو رَبْعَها الَّذي نزلتْ به يومئذٍ:

خليليَّ هذا ربْعُ عزَّةَ فاعْقِلا قَلُوصَيْكُما ثم ابكيا حيث حَلَّتِ
وما كنت أدري قبل عَزَّةَ ما البُكا ولا مُوجِعاتِ القلبِ حتى تَولَّتِ

وأحب أن أُسجِّلُ هنا أن هذا الغَزَلَ الذي سمَّتْه كتُبُ الأدب والنقد: شِعْرَ الوقوفِ على الديار الخَالِيَة، وبكاءِ الأطلالِ العافِيَة، كالَّذي ابتدأ به كُثيِّر قصيدتَه، بطلَبِهِ من أصحابه أن يتوقَّفُوا عند الرَّبْع الذي حلَّتْ به عَزَّةُ في الموسم، ثم أصبح منها خالياً. . . هذا الشعر إنما هو أثَرٌ من آثار المواسم الكبرى، كموسم الحجّ، وموسم الخروج إلى البادية للتربُّع فيها زمنَ الربيع

(١) الأغاني: ٩/٢٨ ـ ٢٩. والقَلُوص: الناقةُ الشابَّةُ الطويلةُ القوائم.

أو الخريف، فهذه المواسمُ العامّةُ كانت الموضعَ الوحيدَ الذي يمكن أن يتلاقىٰ فيه المحبُّون، وأن يسعَىٰ بعضُهم في إثْر بعض، دون أن يخشَوْا غالباً ما يخشَوْنَه عادةً خارجَ المواسم، بعدما يعودون منها إلى مَواطِنهم التي يُقيمون بها دائماً. فهنالك إن سعى الشاعرُ إلى منزل حبيبته، ليقفَ به ويسْتَوقفَ، ويبكي عنده وينُوح، حلَّ قتلُه وأُريق دمُه إذا كان قادماً من قبيلةٍ أخرى، فإن كان من القبيلة نفسِها حُرِّمَتْ عليه رؤيتُها أو زيارتُها ولقاؤها، بل والزواجُ بها لأنه فَضَح القبيلةَ حين شَبَّبَ بابنة عمِّه، وانتشر شعرُه في قبائل العرب.

● **أشعرُ من قال في مشاعر الحجِّ:**

ذكروا أن أحْسَنَ ما قيل في مشاعر الحجِّ قولُ كثيِّر:

تَفرَّق أنواعُ الحجيج على مِنىً	وفَرَّقَهم، شَعْبَ النَّوىٰ، مَشْيُ أرْبَعِ
فلم أرَ داراً مثلَها دارَ غِبْطةٍ	ومَلْقىً إذا الْتفَّ الحجِيجُ بَمْجَمَعِ
أقلَّ مُقيماً راضِيَاً بمقامِهِ	وأكثرَ جاراً ظاعِناً لم يُودَّعِ[1]

ومثلُ ذلك قولُ القلقشندي في معرض كلامه على فضل الألفاظ، وشَرَفِها، وحُسْنِ انتقائها: «وإذا كان الكلامُ حلواً عَذْباً، وسَلِساً سهلاً، ومعناهُ وسَطاً، أي حَسَناً، دَخَل في جُملة الجيِّد، وجرى مع الرائع النادر، كقول الشاعر:

ولمّا قَضَينا من مِنىً كلَّ حاجَةٍ	ومسَّحَ بالأركان مَن هو ماسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهارِي رِحَالُنا	ولم ينظرِ الغادي الذي هو رائحُ

---

(١) مصارع العشاق: ١/ ١٩٩، الشَعْبُ: التفريق. النوى: البُعد. مشي أربعٍ: أي مسيرُ أربع ليال.

أخـذنـا بـأطـراف الأحـاديـث بيننـا وسَـالَـتْ بـأعنـاق المطِيِّ الأبـاطـحُ

وقال: وليس تحت هذه الألفاظ كثِيرُ معنىً، وهي رائقةٌ مُعْجِبةٌ، وإنما معناها: ولمَّا قضَيْنا الحجَّ، واستلمنا الأركان، أي لَمَسْنا أركان الكعبة، وشُدَّتْ رِحَالُنا على مَهازِيل الإبِل، ولم ينتظر بعضُنا بعضاً، وجعلنا نتحدَّثُ، وتسيرُ بنا الإبلُ في بطون الأودية»[1].

وقد ضرب ابنُ قتيبة هذه الأبيات مَثَلاً على أن ألفاظها أحسنُ شيءٍ مَخَارِجَ ومطالِعَ، ومقاطِعَ، مع أن معناها يسيرٌ[2]. . . ولم يَنْسبْها إلى أحدٍ من الشعراء، ولكن أحمد الربيعي نَسبها في كتابه إلى كُثيِّر عَزَّة، وقال: إنها أبياتٌ مشهورة، تناقلها النقَّادُ وأهلُ البلاغة، تنويهاً بلُطف الوصف الذي جاء فيها لمناسك الحجِّ[3].

● **مجنون ليلى في الحجّ:**

لمَّا ظَهر من قيسِ بن المُلوَّح العامريّ، ما ظهر من هُيَامِهِ بابنة عمه ليلى بنت سعد، ورأى قومُه ما ابتُليَ به، أتَوْا أبا ليلى ورَهْطَها، وسألوهم بالرَّحِم أن يُزوِّجوا قيساً من ليلى، وأخبروهم بما ابتُلي به من حُبِّها، فأبَىٰ أبو ليلى، وحَلَفَ ألاَّ يزوِّجها منه أبداً. . . فقال الناس لأبي قيس: لو خرجتَ به إلى مكة، فعاذ بالبيت، ودعا الله، رجَوْنا أن ينساها، أو يُعافِيَه اللَّهُ ممّا ابتُليَ به! فحجَّ به أبوهُ إلى مكة، وبينما هو يمشي بمِنىً، وأبوه معه قد أخذ بيده، يريدُ رميَ الجِمَار، سمع منادياً يُنادي من بعيد: يا ليلى! فظنَّها ليلاهُ، وخَرَّ مَغْشِيّاً

---

(١) صبح الأعشى: ٢/ ٢٢٣.

(٢) الشعر والشعراء: ٦٦ ـ ٦٧.

(٣) «كُثيِّر عزَّة». حياتُه وشِعره: ٢١٣، (دار المعارف بمصر ١٩٦٧).

● **تَعْقيب:**

إذا نظرنا كَرَّةً أخيرة إلى سوق عكاظ ومواسم الحجِّ، وجدنا أن وراء إقامتها بين مكة والطائف، تدبيراً مُحْكَماً، فتلك البقعةُ الوسَطُ امتازت بخَصَائصَ طبيعيةٍ وجغرافيَّةٍ قلَّما توافَرَ بعضُها لبقعةٍ أخرى من بلاد العرب... ووجدنا أن وراءَ ذلك أيضاً دهاءً حاذقاً، فقد جُعِلتْ مواسمُها تتَّصِلُ اتِّصالاً مباشراً، في نَسَقٍ زَمنيٍّ واحدٍ، بشعائر الحجِّ، في عَرَفَة ومِنىً والكعبة، وكأنها مدخلٌ إليها، حتى غَلَبَ عليها جميعاً، في عصر الجاهلية، إسمُ مواسم الحجِّ، فقيل للناس يومئذ: لا تَحضُروا سوقَ عكاظ إلا وأنتم مُحْرِمون بالحجِّ، وكان لا بُدَّ لمن أراد الحجَّ من العرب، أن يمرَّ بتلك الأسواق، فيشهد مواسمها قبل أن يصل إلى عَرَفة، ثم مِنىً والكعبة. ذلك أن عرفة لم يكن بها ماء، كما رأينا، فكان عليه أن يَتَزوَّدَ بالماء من ذي المجاز، ولم يكن بها وبمنىً بيعٌ ولا شراء، فكان عليه أن يتزوَّدَ بما يحتاجُه من عكاظ أو مجنَّة أو ذي المجاز، هذا إن لم يكن صاحبَ تجارةٍ يريدُ أن يبيعَ عُروضَه، أو يستبدلَ بها عُروضاً أخرى.

أمَّا أهلُ مكة ومَن جاوَرهم، فقَلَّ مَن لم يكن منهم يخرج بتجارةٍ إلى عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، بل لعلَّهم كانوا أشدَّ الناس حرصاً على شُهودِ هذه الأسواق من شُهودهم شعائرَ الحجِّ، فالبيتُ الحرامُ قائمٌ في ديارهم، وأصنامُ الجاهليَّة التي كان الناسُ يحجُّون إليها كانت قائمةً في البيت وفيما حوله، والطوافُ بكلِّ ذلك مَيْسُورٌ لهم متى شاؤوا... وعلى ذلك فقد أفادوا ومَن حولهم، من هذه الأسواق، فوائدَ كثيرةً من المالِ والشَّرفِ والنفوذِ، وهو ما لم يُحقِّق بعضَهُ سائرُ قبائل العرب.

* * *

ثبت المراجع

١ ـ آثار البلاد وأخبار العباد:
زكريا بن محمد الأنصاريُّ القزوينيُّ ـ طبعة فردينان وستنفليد ـ ليدن (١٨٤٨ م)، نسخة محفوظة بمكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.

٢ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار:
أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي ـ طبعة دار الأندلس (١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م)، بيروت، عن نسخة حقَّقها ونشرها بمكة رشدي الصالح ملحس، سنة (١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ م).

٣ ـ أدبيات اللغة العربية:
محمد عاطف، ومحمد نصار، وأحمد إبراهيم، وعبد الجواد عبد المتعال، تحقيق الشيخ حمزة فتح الله ـ المطبعة الأميرية بمصر (١٩٠٩ م).

٤ ـ الأزمنة والأمكنة:
الشيخ أبو علي، أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني ـ مطبعة دائرة المعارف، بحيدر أباد الدكن (١٣٣٢ هـ) الهند.

٥ ـ أسماء جبال تهامة:
عرام بن الأصبغ السُّلَمي ـ تحقيق د. محمد صالح شناوي ـ دار الكتب العلميّة (١٩٩٠ م) بيروت.

٦ ـ أسواق العرب في الجاهلية والإسلام:
سعيد الأفغاني ـ دار الفكر، الطبعة الثانية (١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م) دمشق.

٧ ـ الإصابة في تمييز الصحابة:
ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل، أحمد شهاب الدين بن علي ـ وفي حاشيته: الاستيعاب في أسماء الأصحاب، للقرطبي المالكي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٨ ـ الأصمعيّات:
أبو سعيد، عبد الملك بن قريب الأصمعي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٤ م).

٩ ـ إعجاز القرآن:
أبو بكر، محمد بن الطيب الباقلاني ـ تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر (١٩٦٤ م).

١٠ ـ الأعلام:
خير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت (١٩٧٩ م).

١١ ـ الأغاني:
أبو الفرج، علي بن الحسين الأصفهاني ـ دار الثقافة ـ بيروت (١٩٥٧ م).

١٢ ـ إقتضاء الصراط المستقيم:
تقي الدين أحمد بن تيميّة ـ تحقيق محمد

- تاريخ اليعقوبي:
ابن واضح، أبو يعقوب، أحمد بن إسحاق - دار بيروت (١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م).

٢٩ - تفسير القرآن العظيم:
الإمام عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي - دار الأندلس - بيروت.

٣٠ - جمهرة أنساب العرب:
ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد - تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون - دار المعارف بمصر (١٩٦٢ م).

٣١ - حسان بن ثابت:
د. محمد طاهر درويش - دار المعارف بمصر.

٣٢ - خلفاء الرسول:
خالد محمد خالد - دار الكتاب العربي - بيروت (١٩٧٤ م).

٣٣ - الخنساء:
د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطىء - دار المعارف بمصر (١٩٥٧ م).

٣٤ - دراسات في فقه اللغة:
د. صبحي الصالح - دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة (١٩٨١ م) بيروت.

٣٥ - سيد قريش:
معروف الأرناؤوط - مطبعة فتى العرب (١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م) دمشق.

٣٦ - السيرة النبويَّة:
ابن هشام، محمد بن عبد الملك المعافري - تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي - دار الكنوز الأدبية.

٣٧ - السيرة النبويَّة:
أبو الحسن، علي الندوي - دار الشروق، الطبعة السابعة (١٩٨٧ م) جُدَّة - بيروت.

٣٨ - شرح ديوان كعب بن زهير:
الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري - الدار القومية للطباعة والنشر، عن طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة (١٩٥٠ م).

٣٩ - شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب:
الإمام جمال الدين، ابن هشام الأنصاري - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (١٩٥١ م) مصر.

٤٠ - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:
أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري - تحقيق عبد السلام محمد هارون - دار المعارف بمصر (١٩٦٣ م).

٤١ - الشعر والشعراء:
ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم - تحقيق أحمد شاكر - دار المعارف بمصر (١٩٦٦ م).

٤٢ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا:
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي - دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٨٧ م).

٤٣ - صحيح البخاري (كتاب البيوع):
أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري - دار ومطابع الشعب بالقاهرة.

فهرس الأعلام(*)

(*) لم نأخذ في الاعتبار عند ترتيب الفهارس كلمات: إبن، أبو، بنو، آل.. بل اعتمدنا أوّلَ حرفٍ بعدها، فابْن كثير مثلاً تجدها في حرف الكاف، وأبو بكر في حرف الباء، وبنو تَغْلب في حرف التاء، وهكذا...

(ف)

(ن)

* * *

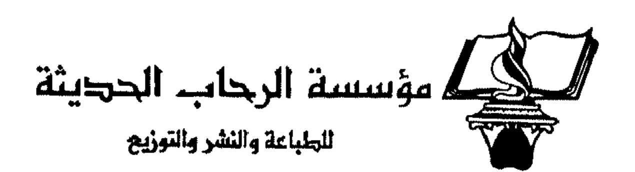
فهرس أسماء القبائل والأقوام



ليس ثمَّةَ شيءٌ في تاريخ العرب قبل الإسلام، كان له من الخَطَرِ والأثَرِ في حياتهم، مثلما كان لِسُوق عكاظ في مواسمها العامَّة. . .

فقد كانت مَجْمعاً قوميّاً، تُشاركُ فيه قبائلُ العرب، من مختلف بلاد العرب. . .

لم تكن عكاظُ سوقاً وحَسْبُ، وإنما كانت عالَماً للعرب كبيراً، فيه كثيرٌ من الحقائق على كثير من الخيال، فكانت أقصى أمانيِّ أحَدِهم، أن يُسْعِدَهُ الحظُّ يوماً بزيارتها، وشُهودِ مواسمها، والاحتفالِ بمجَامِعها، ثم العودة منها بكل ما اشْتَهتْه النفسُ من عُروضِها وأمتعتِها، وما حفظتْه الذاكرةُ من أخبارها ووقائعها، وما زَوَّرهُ الخيالُ من مَحاسنِها ومسَاوئِها. . . لقد كانت عكاظُ مَعْرِضاً تجاريّاً كبيراً لتجارات العرب وغير العرب، ومَجْمَعاً فكريّاً لخطباء العرب وحُكمائهم وشعرائهم، ومنتدىً سياسيّاً لزعماء العرب وَسَادَتهم وأشْرافِهم، فكانت بذلك أعظم مواسم العرب في الجاهليَّة. . .



عرفان محمد حمّور

سوق عكاظ
ومواسم الحجّ

مؤسسة الرحاب الحديثة
بيروت - لبنان

فهرس محتويات الكتاب

الإهداء

إلى الصديق الفاضل الدكتور أُسَامَة نَظِير العَابِد. . .

تقديراً لِمُبادرته الطيِّبة، وشُموله هذا الكتابَ برعاية كريمةٍ، حتى صَدَرَ ومعه أخَواهُ: قواعد الأمن في مجتمعات العرب القديمة، وحسابُ الزمَن عند العرب قبل الإسلام. . . فَحُقَّ له بذلك حسنُ الذِّكْرِ مقروناً بالحمدِ والشُّكرِ. . .

بيروت في ١٥/ ٣/ ٢٠٠٠ **عِرْفان حَمُّور**

مقدمة الكتاب

ليس ثمَّةَ شيءٌ في تاريخ العرب، قبل الإسلام، كان له من الخَطَرِ والأثَر في حياتهم، ما كان لِسُوق عكاظٍ في مواسمها العامَّة. . . فقد كانت عَمَلاً حَضَارِيّاً فريداً من نوعه، وظاهرةً مُتَميِّزَةً، قلَّما شَهِدَ تاريخُ الأُمَم مثيلاً لها، في تَنوُّعِ أغراضها، ووُجوهِ نشاطها، ووَفْرةِ ما كان يكون بها من حاجاتٍ وشؤون مختلفةٍ، شملت جوانبَ كثيرةً من حياة العرب الاجتماعيَّة، والتجاريَّة، والسياسيَّة، والأَدَبيَّة، فكأن دنيا العربِ كلَّها اختُصِرتْ في مَجْمع واحدٍ، فكان مَجْمَعَهم في مواسم عكاظ.

والواقع أن موسم عكاظ كان أكْمَلَ مِثَالٍ للأسواق الموسميَّة العامَّة في الجاهلية، وهو أَعظَمُها شهرةً، وأكثَرُها وقائعَ، فإذا أَفَضْتُ في الحديث عنه، وأَسْهَبْتُ في تَتبُّع أخبارِه وحَوادِثِه، وما كان يجري فيه من مختلف الأَنْشِطة، فإن في ذلك إفاضَةً في الحديث عن سائر المواسم العامَّة الأُخرى، وإسْهاباً في الكلام على وقائعها وأخبارها، فليس فيها جميعاً موسمٌ بلغَ من التميُّز، والتفَرُّدِ، والأثَر ما بَلَغَهُ موسمُ عكاظ، وما كان يجري في عكاظٍ، جَرَى كلُّه، أو بعضُه، أو ما هو قريبٌ منه، في بقيَّة المواسم[1]. . . إلى أن مجمعَ عكاظٍ كان قَوميّاً، تُشاركُ فيه معظمُ قبائل العرب، بينما مجامعُ بعض المواسم ربما

---

(١) د. جواد علي ـ المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٧/ ٣٨٢.

كبيراً، فيه كثيرٌ من الحقائق على كثيرٍ من الخيال، فكانت أقصى أمَانيِّ أحَدِهم، أن يُسْعِدَهُ الحظُّ يوماً بزيارتها، وشُهودِ مَوْسمها، والاحتفالِ بمجَامِعها، ثم العودة منها بكل ما اشْتَهتْهُ النفسُ من عُروضِها وأمْتعَتِها، وما حَفظَتْهُ الذاكرةُ من أخبارها ووقائعها، وما زَوَّرهُ له الخيالُ من محاسِنِها ومساوئها. فكأنَّ العرب الَّذين أقاموها سوقاً لتجاراتهم، وموسماً من مواسم عِبَاداتهم، ما لبثوا، بحُكم ما فُطِروا عليه من الخصائص القومية، حتى تَوسَّعُوا فيها، فجعلوا منها مَعْرِضاً اقتصادياً كبيراً، عَرَضوا فيه سِلَعَهم، وغَلاّتِهم، وأَنْعامَهم، وصناعاتِهم، وما كانوا يجلبونه إليها من البلاد الأخرى. وأقاموا فيها مَجْمَعاً فِكريّاً عامّاً، تداوَلُوا فيه أشعارَ شعرائهم، وخُطَبَ خُطَبائهم وحُكَمائهم، وأخبارَ فُرسَانِهم ومكارم أخلاقهم، وحكاياتِ أيامهم. وكان لهم بها مجالسُ اجتماعيةٌ، يَقْتبِسُ فيها بعضُهم من بعضٍ ما يحلو له من عاداته وتقاليده، وأنْدِيَةٌ سياسية، يتشاوَرُون فيها، ويُعْلنون من منابرها عُهودَهم وعُقُودَهم، ليكون العربُ على علمٍ بها، وشُهوداً على حُسْنِ تنفيذِها واحترامِها. . . لقد كان موسمُ عكاظٍ أعْظَمَ مواسمِ العرب، ولم يكن بين سائر المواسم موسمٌ يُضَاهِيه في تَفَرُّدِ خصائصه، وتَنَوُّعِ وظائفِهِ، وبُعْدِ آثارِهِ في حياة العرب.

* * *

الفصل الأول

سوق عكاظ ـ الخصائص العامة

المطلب الأول: المعنى والمقاصد

المطلب الثاني: الموقع والمكان

١ ـ مذاهب المؤرخين في موضع عكاظ ومعالمه

٢ ـ الكشف عن موضع عكاظ

٣ ـ آراء بعض الباحثين في موقع عكاظ

٤ ـ طبيعة المكان

المطلب الثالث: أصحاب الأرض والسوق

المطلب الرابع: قيام موسم عكاظ

المطلب الخامس: نزلاء عكاظ ومنازلهم فيه

المطلب السادس: أئمَّة عكاظ وقضاته

١ ـ أئمَّة العرب وقضاتهم بعكاظ

٢ ـ كيف صارت رئاسة عكاظ والقضاء فيه إلى بني تميم

٣ ـ الخلط بين مواسم الحجِّ وولاتها وموسم عكاظ ووُلاتِهِ وقُضَاته

٤ ـ عكاظ مجمع للتقاضي عند العرب

● تعقيبٌ على نظام التقاضي في الجاهلية

الفصل الأول

سوق عكاظ ـ الخصائص العامة

المطلب الأول ـ المعنى والأغراض:

يجبُ الابتداءُ أولاً بكلمةِ «عُكاظ»، والبحثِ عن معانيها، للنظَرِ في العِلَّة التي حَملتْهم على جعْلها إسماً لهذه السوق العظيمة. فالواضحُ من استقراء الأخبار أنها كانت إسماً عَلَماً للسوق، لا لموضع قيامها، ولكن الاستعمالَ غَلَّبها، في الوهم، على الموضع، فصارت إسماً للسوق والموضع معاً. . . وإذا فتَّشنا في المعاجم عن معاني هذه الكلمة، وجدنا لها جُملةً من المعاني المختلفة، أبْرَزُها:

- عَكَظهُ يعْكِظُه عَكْظاً: حَبَسَهُ.
- تَعكَّظَ القومُ تَعَكُّظاً: اجتمعوا، ازْدَحَمُوا، تَحبَّسُوا لينظروا في أمورهم.
- تَعَكَّظ عليه أمرُهُ: تمنَّع، وتَحبَّسَ، والْتَوَىٰ.
- عكَظَ خصمَهُ بالحُجَّةَ: عَرَكَهُ وقَهرهُ، وعكَظَهُ بالمفاخَرة: دَعَكَهُ، أي أوْجَعَهُ إذ رَدَّ عليه فَخْرَهُ، وعَكَظَ بالشيء: افْتَخَر.
- عكَظَ الأَدِيمَ: دَلَكَهُ، أي فَرَكَهُ، أو طَلاهُ وضَمَّخَهُ.
- عاكَظَهُ مُعاكَظةً: مَطَلَهُ حَقَّهُ، أي سَوَّفَهُ بوعد الوفاء.
- تَعاكَظَ القومُ: تعاركوا، تفاخَروا، تجادَلُوا وتَحاجُّوا، أي أدْلَى كلٌّ منهم بحُجَّتهِ في مُقَارَعَةِ قَرِينهِ.

ويَفْدونَ الأسْرَى، ويعقدون المُهادَنات[1]، ويحتملون الحَمَالات[2]، ومَن كانت له مَظْلَمةٌ ارتفع بها إلى الذي يقوم بأمر الحكومة من بني تميم[3]. . . وكانوا يصنعون فيها أشياءَ مختلفةً كثيرةً، سنعْرِضُ وقائعَها في محلِّها من الفصول التالية، مُصَنَّفَةً أصْنَافاً ثلاثةً، **أوَّلُها**: شؤونُ التجارة، **وثانيها**: الشؤونُ العامَّةُ، بأشكالها الاجتماعية والسياسية والدينية، **وثالثُها**: شؤون الشِّعْر والشعراء.

* * *

المطلب الثاني ـ المَوْقعُ والمكان:

يكادُ لا يخلو كتابٌ من كتُب تاريخ العرب القديم، أو كتُبِ لُغَتِهم وآدابهم، من الإشارة إلى مواسم سوق عكاظ، أو الكلام على ما كان يكون بها من الأَنْشِطةِ المختلفة، وما كانوا يُعالجون فيها من شؤونِ حياتهم، كالتجارةِ، والحربِ والسلم، وأحاديثِ اللغة والشعرِ والأدبِ، ومَقَالاتِ التفاخُرِ والتكاثُرِ والتنافُرِ، وغيرِ ذلك من شؤون الحياة، حتى صار لسوق عكاظ ذِكرٌ ذائعٌ، وصِيتٌ شائعٌ، وبات اسْمُها عَلَماً على كل مجتمع للناس، يَضُمُّ عشرات الألوف، ويكونُ حديثُ الأدبِ، وإنشادُ الشعرِ بعضاً مما يجري فيه. . . وطَفِقَ العربُ يذكرون اسْمَ عكاظٍ، مثلما يَذْكرُ الناسُ بُرْجَ بابِلٍ، بأنه كان مُلْتَقَى الأُمَم من أنْحاءِ الأرض! ولكنَّ العجيبَ أن موقع عكاظٍ، على ما

---

(١) **المهادَنَةُ**: الصلح والمُوادَعة.

(٢) **الحَمَالَةُ**: الدِّيَةُ والغرامة.

(٣) لسان العرب: ٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، وأبو حيّان التوحيدي ـ الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٥، وأبو يعقوب، أحمد بن إسحاق ـ تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، وأبو العباس القلقشندي ـ صبح الأعشى: ١/ ٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤، وأدبيات اللغة العربية: ١/ ١٢. . .

لها من ذُيُوعِ الشهرة، ظلَّ حتى وقتٍ قريبٍ مجهولاً، بعدما عَفَّتْهُ الحوادثُ، ومَحَتْ مُعظَمَ مَعَالمه. مع أن مَوْضِعاً كهذا، شَهِدَ من تاريخ العرب ما شَهِدَ، وكان له من الأثر في حياتهم ما كان، جديرٌ بأن يكون رمزاً مَأثُوراً، وأن يظلَّ سوقاً للحاجِّ على مَرِّ الزمن، ومَجْمعاً للعرب يُنْشدون فيه أشعارَهم، ويَتَحاوَرُون في شُؤون لغتِهم وآدابِهم وعُلُومهم، ولا سيما أن النبيَّ عليه السلامُ شَهِدَ فيه حربَ الفِجَار، واستمع إلى قُسِّ بن ساعدة الإيَاديّ يخطبُ العربَ ويعِظُهم، وعَرَضَ نفسَهُ فيه على قبائل العرب، يدعوهم إلى الإيمان بالإسلام، أو توفيرِ أسبابِ الحمايةِ له حتى يُؤَدِّيَ رسالاتِ رَبِّه. غير أن ما قام بمكة والمدينة من ثورات بعد وفاة النبيّ وصاحِبَيْه أبي بكر وعمر، وانتقالِ عاصمة العرب من الحجاز إلى الشام، ذهب بكثير من العادات التي أَقَرَّها الإسلامُ بعد الجاهلية، ومنها سُنَّةُ العرب في الاجتماع بعكاظ كل سنةٍ قُبَيل موسم الحجِّ.

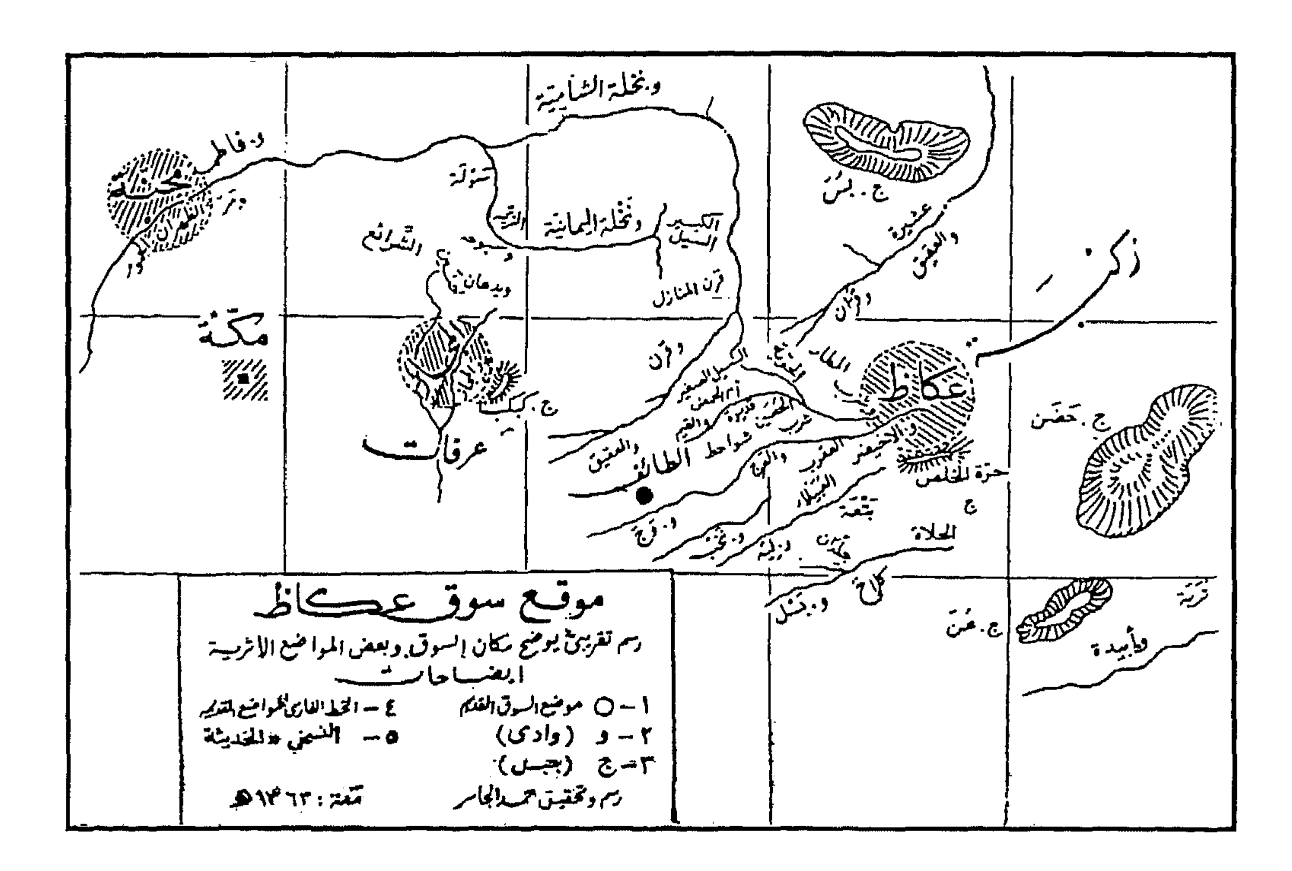
والواقع أن تحديدَ الموضعِ الذي كانت تُقامُ به عُكاظٌ، تحديداً جغرافياً دقيقاً، لم يكن بالأمر اليَسِير في العصر الحاضر، بعدما انْدَرَسَ كثيرٌ من المعالم التاريخية القديمة. ولكنَّ عدداً من البحَّاثَةِ المتأخِّرينَ تَصَدَّوا لهذا العمل الجليل، وكان لهم فيه كلامٌ كثير، ومذاهبُ مختلفةٌ، فلم يكن لنا بُدٌّ من أن نعْرِضَ أولاً خُلاصةَ ما قاله القدماءُ، وتوافقوا عليه في موضع عكاظ، ثم ننتقلُ إلى ما قاله بعضُ المُتَأخِّرينَ فيه، ولا سيما أقوال الشيخ حَمَد الجَاسِر ومَنِ اتَّبَعَ مذهبَه، ونَحَا نَحْوَهُ، كالشيخ محمد بنِ بُلَيْهِد، والدكتور عبد الوهاب عزَّام، والأستاذ رشدي مَلْحس. ونُقَدِّم أيضاً الخريطة التي رسمها الجاسِرُ، للاستعانة بها في معرفة ما سنذكره من المواضِع.

* * *

وهنالك أيضاً كثيرٌ من الأساتذة الأفاضل في المملكة العربية السعوديَّة، أسهموا بكتاباتهم في الكشف عن موقع سوق عكاظ، نذكر منهم: الدكتور ناصر الرشيد، صاحب كتاب «سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام ـ تاريخه

ونشاطاته وموقعُه»، وقد اطلعتُ على بعض آرائه في موقع عكاظ، من خلال ما نشرتْه «جريدةُ عكاظ» بالملحق الثقافي، سنة (١٤١٦ هـ=١٩٩٥ م) من مقالاتٍ لبعض الباحثين عن موقع عكاظ، ولم يُسْعفني الحظُّ بالاطلاع على كتابه كاملاً[١] . . .

* * *



(١) ومن أولئك الأساتذة: د. ناصر بن علي الحارثي أستاذ الآثار والفنون الإسلامية بجامعة أمّ القرى، سعد بن عبد العزيز وكيل وزارة المعارف للآثار والمتاحف، عبد الله محمد الشايع، عبد الله الجفري، فهد المعطاني الهذَليّ، محمد موسم المفرجي، د. عَزَّة بدر، مناحي القثامي، عاتق البلادي، جُوَيْبر الثبيتي، عبد العزيز الشايع، محمد بن سلطان العتيبي، أحمد محمد جابر، خليل بن إبراهيم المعَيقل، عبد الله بن خميس، حمّاد السالمي . . .

على حدود الحَرَم المكِّيِّ، أما الأربعةُ الأُخْرى فكانت أيَّامَ شَمْطَةٍ والعَبْلاءِ وشَرِبٍ والحُرَيْرة، سُمِّيت بأسماءِ مواضِعَ، بعضُها في عكاظ، والبعضُ في أَحَدِ جوانبه[1]، كما سنرى. . .

١ ـ **شَمْطَة**: موضعٌ أطْبَقَ القدماءُ على أنه في عكاظ، ولكنه اليومَ لم يَعُدْ معروفاً[2].

٢ ـ **العَبْلاء**: يُفهم من كلام المُحقِّقين أنها اسْمُ عَلَمٍ لأَكَمَةٍ من صُخور بِيضٍ إلى جنب عكاظ، في جهة الجنوب والغرب، ويَليها في جنوبها: العُبَيْلاءُ، وهي قريةٌ من أعمال الطائف، مُجاوِرَةٌ لعكاظ، ينزلُها بنو عَدْوان من قيس بن عَيْلان. وقيل إنَّ العَبْلاوَات هي الصخورُ البِيضُ التي كانوا يطوفون بها في عكاظ، وهي ما تزال منتشرةً على أَرضِهِ[3].

٣ ـ **شَرِب**: وادٍ عظيمٌ، ما يزال معروفاً حتى اليوم، ينحدرُ من الغرب والجنوب، ويمرُّ شمالَ الطائف، ثم يلتقي بوادي الحَوِيَّة قادماً من غَرْبِهِ، فيَتَّحِدانِ في وادٍ واحدٍ، ينحدرُ إلى الشرق والشمال، ويَجُوزُ السلسلةَ الجبليةَ لبلادِ عَدْوان، ثم يُفْضِي إلى سهلٍ مُتَّسِعٍ من الأرضِ، هو موضعُ عكاظ، حيث يلتقي به هنالك وادي الأُخَيْضِرِ[4]، وهو من منازل قبيلة عَدْوان بن عمرو، من قيس بن عيلان، ثم يَنتهيان إلى سهل ركبة. ويُسمَّى يومُ شَرِبٍ

---

(١) الأغاني: ٢٢/٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٧، وابن عبد ربه ـ العِقْدُ الفريد: ٥/٢٥٦ ـ ٢٥٨، ومعجم البلدان: ٣/ ٣٣٢، ٣٦٣، و ٤/ ٨٠، ومعجم ما استعجم للبكري: ٦٦٠ ـ ٦٦٢.

(٢) موقع عكاظ: ٦٧.

(٣) موقع عكاظ: ٢١ ـ ٢٢، ٢٩، ٣٦، ٦٢، ٦٤، وأخبار مكة: ١/ ٣٨٥.

(٤) موقع عكاظ: ٢٢، ٢٩، ٦٤.

أيضاً: يومَ عكاظ[١]، إشارةً إلى أن أرض عكاظ إنما هي في مَوْضع شَرِب.

٤ ـ **الحُرَيْرة**: وهي حَرَّةٌ[٢]، أَطْبق القدماءُ على أنها تقع إلى جَنْب عكاظ، مِمّا يلي مَهَبَّ جنوبه، أي من حيث تهبُّ ريحُ الجنوب. وقد رجَّح الشيخُ الجاسِرُ أنها الحَرَّةُ التي تُعرف اليوم باسم «ضِلَعِ الخَلَص»[٣]، وهو جُبَيْلٌ أسودُ صغير، يقعُ جنوبَ عكاظ، مع مَيْلٍ قليل نحو الشرق[٤]. وعلَّق عَزَّام على ذلك بأنه رأى هذه الحرَّةَ، التي تُسمَّىٰ حَرَّةَ الخَلَص، في شرق عكاظ، لا في جنوبه[٥]، معتمداً روايةً عزاها ابنُ بلهيد إلى عَرَّام بن الأَصْبَغ السُّلَميّ[٦]، تقول: «. . . وإذا كنتَ في عكاظ، طلعتْ عليك الشمسُ على حَرَّةٍ سوداء. . .»[٧]، أي أن الحَرَّةَ في مشرق المكان! وقد فتَّشتُ كتابَ عرَّام عن هذا النصِّ فلم أَعْثُرْ له على أَثَرٍ. . . ثم إنني نظرتُ فوجدتُ للدكتور عزَّام تعليقاً آخَر على بحث ابن بُليهد قال فيه: إن الحَرَّةَ التي بجنب عكاظ غيرُ التي ذكرها عرّامٌ السُّلَميُّ[٨]. . . فهُما في رأيه إذن حَرَّتانِ، لا حَرَّة واحدة، ولكنه وقف على إحداهما فحدَّثنا عنها، فما بالُه سكتَ عن الثانية، ولم

---

(١) محمد أحمد جاد المولى ورفيقاه ـ أيام العرب في الجاهلية: ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٢) **الحَرَّةُ**: أرضٌ حِجَارتُها سُودٌ نَخِرَاتٌ كأنها أُحْرِقتْ بالنار.

(٣) **الضِلَعُ**: جَبَلٌ صغيرٌ، مستطيلٌ في الأرض، وليس بمرتفع في السماء.

(٤) موقع عكاظ: ٦٦.

(٥) المرجع نفسه: ٦٢.

(٦) **عَرّامُ بنُ الأَصْبغ**: أعرابيٌّ من بني سُلَيم. من علماء القرن الرابع الهجري. كان ثقةً في معرفة جبال تهامة والحجاز ونجد، وقراها وأهلها ومياهها ونباتها. له كتاب صغير سُمِّي: أسماء جبال تهامة وجبال مكة والمدينة، وما فيها من القرى، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من المياه. . . وسمَّاهُ ابنُ بُليهد: جبال تهامة والحجاز ومَحَالِّها. طبع عدة مرات.

(٧) موقع عكاظ: ٢١، ٣٧.

(٨) المرجع نفسه: ٣٧.

ويتبيَّنُ من كل ذلك أن الحُريْرة التي اعتلاها عبد الوهاب عزَّام وابنُ بُليهد، هي نفسُها الحرَّةُ التي رآها من قبلُ الشيخُ الجاسِرُ، وحقَّق موقعَها في جنوبِ عكاظ، بميْلٍ يسيرٍ إلى الشرق، ودليلُه في هذا **إجماعُ القدماء على أن الحُرَيرة تقعُ إلى جَنْب عكاظ مِمّا يلي مَهَبَّ جَنُوبه**، ومَهَبُّ ريح الجنوب عند العرب من حَدِّ القطب الجنوبي إلى مَطلع الشمس[1]، وهذا يُؤكِّدُ أن موقعَها إلى الجنوب مع مَيْلٍ إلى الشرق... هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَر فإن النصَّ الذي نَسبهُ د. عزام وابنُ بُليهد إلى عرَّام السُّلمي غيرُ موجودٍ في كتابه أصلاً، وهذا يُلغي حُجَّة عزّامٍ من أساسها! أمّا احتجاجُه بأنه رأى الحَرَّةَ في الشرق فليس بشيء، لأنه أقامه على بُلوغِهِ الحَرَّةَ قادماً إليها من الغرب إلى الشرق، فقد ظن أنه قطع بذلك عَرْضَ عكاظ، ووصل إلى حَدِّهِ الشرقي، وهو غير صحيح، لأن الحَرَّة قائمةٌ في الجنوب مُنْحرِفةً إلى الشرق.

ويَحسُنُ بنا أخيراً أن نذكر ما قاله عرَّامٌ السُّلَميُّ في كتابه عن بعض معالم عكاظ... قال: «والقَفا جبلٌ لبني هلال[2]، حِذاءَ عُنٍّ[3]... وحِذاءَهُ جبلٌ آخَرُ يُقالُ له: بُسٌّ[4]، وفي أصله ماءٌ يقال له: بقعاءُ[5]، لبني هلال، بئرٌ

---

(١) صبح الأعشى: ٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦، ولسان العرب: ١/ ٢٨٢ (جنب).

(٢) **القَفَا**: أحدُ الجبالِ الواقعةِ إلى الجنوب من سهل رُكْبة، قريباً من جبل عُنّ ـ (موقع عكاظ: ٦٧). بنو هلال: هم بنو هلال بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية، من هوازن، من قيس بن عيلان.

(٣) **عُنٌّ**: جبل في طرف رُكْبَة الجنوبي، بين تُرَبَة شرقاً ووادي بَسْل غرباً ـ (موقع عكاظ: ٦٥).

(٤) **بُسٌّ**: جبلٌ وأرضٌ كثيرة النخل لبني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، فوق ذات عِرْق، بالنخلة الشامية، فيه بيتُ عبادة لبني غَطَفان بن سعد بن قيس بن عيلان، أقاموه على شجرة العُزَّى. (معجم البلدان: ١/ ٤٢١، وتاج العروس: ١٥/ ٤٥٢ ـ ٤٥٤).

(٥) **بقعاء**: إما أنها بئر عُشَيْرَة القديمة، أو أنها كانت في أصل جبل بُسّ ـ (موقع عكاظ: ٦٦).

كثيرةُ الماء، ليس عليها زرعٌ. وحِذاءَها أُخرى يقال لها: الخُدود[(١)]، وعكاظٌ منها على دَعْوة[(٢)]. وعكاظ صحراءُ مُسْتَوِيةٌ، ليس بها جبلٌ ولا عَلَمٌ، إلا ما كان من الأَنْصَابِ التي كانت في الجاهلية، وبها الدِمَاءُ من دِمَاءِ البُدْنِ[(٣)]، كالأرْحَاءِ العِظَام[(٤)]، وحِذاءَها عَيْنٌ يُقال لها خُلَيْصٌ[(٥)]، وهو رجلٌ من بلاد رُكبة...»[(٦)]. ورُكْبَةُ سهلٌ فسيحٌ في نَجْدٍ، يقعُ عكاظٌ في طرفه الجنوبيّ الغربيّ[(٧)]، وتصبُّ فيه الوِدْيَان التي تمرُّ بعكاظ.

* * *

ونعودُ إلى حديثنا عن أقوال القدماء في موقع عكاظ، وما حقَّقَهُ المتأخِّرون فيها... ومنها قولُهم إن «الفُتُق» كانت قريةً من نواحي الطائف، قريبةً من عكاظ[(٨)]، بينها وبين «المناقِبِ»[(٩)] إثنا عشر ميلاً، وبين المناقب

---

(١) **الخُدود**: أو الخُدَد، قريةٌ أو صَقْعٌ من قُرى الطائف، كانت تقعُ شمال عكاظ (موقع عكاظ: ٦٦، وتاج العروس: ٨/ ٥٤ (خدد)، ومعجم البلدان: ٢/ ٣٤٨.

(٢) **دَعْوة**: تُفيد هنا معنى القُرْب، يُقال: هو مني دَعْوةَ الرجُل، أي قريبٌ مني، وهي منصوبةٌ على الظرفية. وهي في نسخة الجاسر: **غَلْوَة**، بمعنى رَمْيَة السهم أبعد ما يكون الرَّمْيُ.

(٣) **البُدْن**: الإبِلُ المُسَمَّنةُ، مفردها: بَدَنَة.

(٤) **الأرْحَاءُ**: مُفردُها رَحًى، وهي حَجَر الطاحون، شبَّه آثار الدماء على الأرض بأشكال حجارة الطواحين. وفي نسخة الجاسر: **الأَرْجَام**، بمعنى الحجارة، تُسَنَّمُ بها القُبور...

(٥) **عين خُلَيْص**: لعلها كانت قريبةً من حَرَّة الخَلَص.

(٦) عَرّام بن الأصبغ السلميّ ـ أسماء جبال تهامة: ٤٢ ـ ٤٣.

(٧) موقع عكاظ: ٥٠، ٦١، ٦٣.

(٨) معجم البلدان: ٤/ ٢٣٥، ومحمد مرتضَى الزبيدي ـ تاج العروس: ٥/ ٢٥٤ (عكظ)، طبعة مصر، وموقع عكاظ: ٤٤، ٤٦، ٦٧.

(٩) **المناقب**: جبلٌ مُعْترِضٌ بين قرن المنازل والسيل الصغير، على طريق مكة ـ الطائف، سُمِّي بذلك لأن فيه طُرُقاً إلى اليمن واليمامة ونجد والطائف.

الحرم المكّي مع الليل، فكَفَّتْ عنهم هوازنُ، ويومئذٍ قال شاعرُ هوازِنَ خِدَاشُ بنُ زهير العامريُّ[١]:

فإن سَمعتُم بجيشٍ سَالِكٍ «شَرِباً» أو «بَطْنَ مَرٍّ» فأَخْفُوا الجَرْسَ واكْتَتِمُوا
يـا شَـدَّةً مـا شَـدَدْنـا غيـرَ كـاذبـةٍ على سَخِينَةَ لولا الليلُ والحَرَمُ[٢]

ومنه يتَّضِحُ أن المعركة كانت في «بَطن مَرٍّ»، وهو موضعٌ يجتمع عنده وادِيَا النخلتين: اليمانيَّةِ والشامِيَّةِ، فيصيران وادياً واحداً هو وادي نخلة[٣]، وهو المرحلةُ الأولى للمسافر من مكة، أي على أربعة وعشرين ميلاً تقريباً، أو مسيرة ليلة[٤]. وقد ذكر ابنُ بُلَيْهد في تحقيقه موقعَ عكاظ[٥]، أن تلك الوقعة كانت في بطن نَخْلة، بين الزَّيْمَةِ والبُهَيْتَة[٦].

ويُلاحَظُ هنا أن الشاعر أشار في البيت الأول إلى ارتحال قريش عن عكاظ بالخديعة، وفي البيت الثاني سمَّىٰ قريشاً: سخِينَةً، والسخينةُ طعامٌ

---

(١) خِدَاشُ بنُ زهير بن ربيعة: شاعر جاهلي من أشراف بني عامر بن صعصعة من هوازن. غلب على شعره الفخرُ والحماسةُ، وكان يهجو عبدَ الله بنَ جُدْعان التيْميَّ، ولم يكن رآهُ، فلما رآه ندم على هجائه. وقد غلط الزِركليُّ صاحبُ الأعلام (٢/ ٣٠٢) إذ قال إنه كان يُلقَّبُ فارسَ الضَّحْيَاء، وإنما فارس الضحياء أخو جَدِّهِ: عمرو بن عامر! (الشعر والشعراء: ٦٤٦).

(٢) الأغاني: ٢٢/ ٦٧.

(٣) معجم البلدان: ١/ ٤٤٩.

(٤) المرجع نفسه: ٥/ ٢٧٧.

(٥) موقع عكاظ: ٣٩.

(٦) **البُهَيْتَة**: موضع قرب السيل الكبير بوادي نخلة اليمانية، يسكنه بنو سعد بن بكر بن هوازن، الذين استرضع فيهم رسولُ الله عليه السلام. **والزَّيْمَة**: قريةٌ من أرض مكة، بوادي نخلة، وهي أولُ دربِ اليمانية. (معجم البلدان: ١/ ٥٠٦، ٣/ ١٦٥).

الشيخُ أحمد الغزّاوي، شاعرُ جلالة الملك عبد العزيز، أن سُموَّ الأمير فيصل أخبرهُ أنه ذهب إلى موضع عكاظ، وليس هو بالسَّيْل الكبير، ولا بالسَّيْل الصغير، وأنه اجتمعت أدِلَّةٌ كثيرةٌ على أن في هذا الموضع، لا غيره، كانت سوقُ عكاظ. وكان ذَهابُ سُموِّ الأمير إليه في رُجوعِهِ من الصَّيْد إلى الطائف، وكان معه الشيخُ محمدُ بن بُليهد، وهو عالم نَجْديٌّ واسعُ المعرفة بأخبار العرب... عارفٌ بكثير من الأمكنة، التي ذُكرتْ في الأشعار والأخبار، ذهب إليها، ورآها رأْيَ العَيْن. وقد اجتمع لهذا الشيخ البحَّاثة نُقُولٌ وأَدِلَّةٌ، لا تَدَعُ شكّاً في أن هذا الموضعَ كان هو مجتمعَ العرب في السوق، التي ذاع ذِكْرُها، وطار صِيتُها: سُوقِ عكاظ»[١].

فأمّا ابنُ بُلَيهد، فقد استند في تحقيقه الموضعَ، كما رآهُ، إلى خمسة أدِلَّة، **أوَّلُها**: ما جاء في أُرجوزة الرِدَاعيّ اليمانيّ التي رسم فيها طريق مكة من صنعاء، **وثانيها**: نصٌّ عَزاهُ إلى عَرَّام السُّلَميّ، وهو مُصَحَّفٌ كما رأينا. **وثالثُها**: قولُ الأصمعي في تعيين موقع عكاظ، **ورابعُها**: ما ذكرهُ سعيد الأفغانيُّ، في كتابه «أسواق العرب»[٢]، عن وقائع الفِجَار التي جرت على مواضِعَ من عكاظ، مع أن الأفغاني لم يكن أكثرَ من ناقلٍ، لم يُحقِّق فيها شيئاً، ولم يأتِ بجديد. **وخامِسُها**: بيتُ شعرٍ قاله الكُمَيْتُ بن زيد الأسدي[٣]، في قصائده

---

(١) موقع عكاظ: ١٧ ـ ١٨.

(٢) سَمّاهُ ابنُ بُليهد «أيامَ العرب»، وهو غلط، وليس للأفغاني كتابٌ بهذا الإسم، وإنما هو أسواق العرب في الجاهلية والإسلام.

(٣) **الكُمَيْتُ بن زيد بن خُنَيْس الأسدي**: (٦٠ ـ ١٢٦ هـ = ٦٨٠ ـ ٧٤٤ م). شاعر الهاشميين في العصر الأموي، اشتُهر بانحيازِهِ إليهم، ومَدائِحه فيهم، وكان فارساً شجاعاً سَخِيّاً. وهو من أصحاب الملحمات.

جلدان، ثم نظر إلى الجنوب والغرب، فرأى العبلاءَ، وهي أَكَمةٌ بيضاءُ، تقع وراءَها العُبَيلاءُ قريةُ بني عَدْوان، ورأى هنالك وادي شَرِبٍ ينحدر إلى الشرق والشمال، وتلتقي به أوديةٌ، منها وادي الأُخَيْضر يُلاقيه في سهل عكاظ، وتأكَّد له أن عكاظاً يقع في طريق اليمن إلى مكة، قبل قرن المنازل، أي السَّيْل الكبير الذي ظن بعضُ الناس أنه موقعُ عكاظ، واستدلَّ على ذلك بقول الأزرقي[1]. ثم نظر إلى الشمال والغرب من مُقامِهِ فوق الحَرَّة، فإذا جُبَيْلٌ أَدْكَنُ، قيل له إنه العُرْفُ[2]، ووراءَهُ وادي قُرَّان، ثم رأى من بعيدٍ جبالَ عُشَيْرة، أي وراء العُرْفِ وقُرَّان[3].

ثم زادَهُ وثوقاً من سلامة هذا التحديد لموقع عكاظ، أنه نظر حيث أُشِير له في سهل عكاظ، فرأى آثارَ آبَارٍ كثيرةٍ، طُمَّتْ بالحجارة، أو طَمَّها الوادي، وهذا دليلٌ على أن الماء كان مُتوافراً في هذا الموضع لسِقَاية الناس والأنعام[4]. ثم نزل من الحُرَيْرة، فجال في سهل عكاظ، وقال: «. . . وعَبَرنا وادي الأُخيضِر، فارتفعنا عن سهل عكاظ، نَؤُمُّ الحَوِيَّةَ فالطائف . . . وقد بلغتُ أَرَباً من عكاظ، وأيقنتُ أنه بهذا الموضع لا ريب، وأن قولنا فيه قولٌ فَصْلٌ»[5].

وأخيراً، لا بدَّ من الإشارة إلى أنني أخذتُ عليه ما عَزَاهُ إلى ياقوت من

---

(١) موقع عكاظ: ٢١ ـ ٢٣، ٢٨.

(٢) **العُرْفُ**: موضع عالٍ مرتفعٌ في نجْدٍ، لبني عمرو بن كلاب، به مُلَيحةُ ماءةٍ من أطيب مياه نجد، وهو عُرْفَان: الأعلىٰ والأسفل. أنظر معجم البلدان: ٤/ ١٠٦. (والعُرْفُ: كلُّ عالٍ مرتفع، وعُرْف الأرض والعَرْفاءُ: ما ارتفع منها، والعَرْفاءُ: قريةٌ ومزارع شَرْقَ مطارِ الحَوِيّة ودون سوق عكاظ).

(٣) موقع عكاظ: ٢١.

(٤) المرجع نفسه: ٢٩.

(٥) المرجع نفسه: ٣٠.

طريقُ الإبِلِ لم يكن ينحرفُ بعد المناقب، بل كان يتجه شرقاً، فيجوز الجبالَ، ويمرُّ بعكاظ، ثم ينتهي إلى الطائف[١]. والأزرقيُّ قدَّر أن بين قرن المنازل وعكاظٍ ليلةً، وأن بين عكاظٍ والطائف بريداً، ونحن نعلم أن بين مكة وقرن المنازل ليلتيْن، ومجموعُ هذا يساوي أربعةً وثمانين ميلاً[٢].
والأصمعيُّ قَدَّر ما بين مكة وعكاظ بثلاث ليالٍ، وما بين عكاظٍ والطائف بليلةٍ واحدة، وهذا يُساوي ستةً وتسعين مِيلاً. وياقوتُ ذكر أن بين مكة وقرنِ المنازل واحداً وخمسين ميلاً، وبين قرنِ المنازل والطائف ستةً وثلاثين ميلاً، وهو يساوي سبعةً وثمانين ميلاً.

وأعتقد أن من شأن ذلك كله، أن يزيدَ الأَدِلَّةَ ثُبوتاً على صَوابِ ما اتَّبعناهُ في تحديد مَوقع عكاظ، على طريق مكة من صنعاء، بين جلدان والمناقب، في مكانٍ مُتَّصلٍ بالطرَفِ الجنوبي الغربي من سهل رُكْبة، ومُتَّصِلٍ بالطائف في نواحيها الشرقية الشمالية، ويقعُ قبلَ السَّيْل الكبير بنحو أربعة وعشرين ميلاً، وهو مَجْمَعُ الواديين: شَرِبٍ والأُخَيضِر، عندما يخرجان من الجبال، ويَفيضان في الصحراء.

* * *

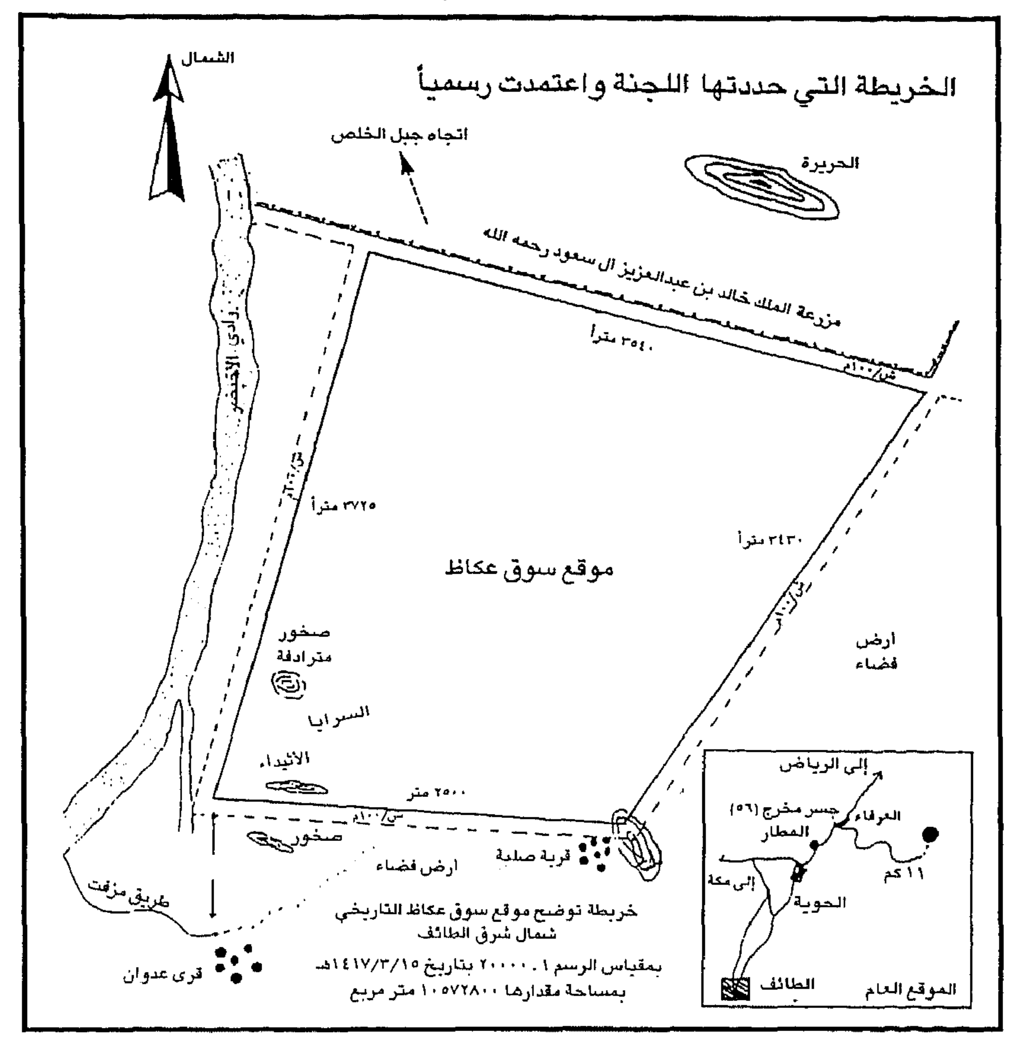
ولكن طائفةً من الباحثين، في المملكة العربيّة السعوديّة، ذهبت في تعيين موقع عكاظ مذاهبَ مُخالفةً، ولم تتَّفق على موقع مُحدَّد له، ومنها الدكتور ناصر الرشيد، والأستاذ فهد المعطانيّ الهُذَليّ..

---

(١) موقع عكاظ: ٤٥.

(٢) سبق أن ذكرنا أن الليلةَ مَرْحلةٌ أي أربعةٌ وعشرون ميلاً، وأن البريد إثنا عَشَرَ ميلاً، وإذا قيل: يومٌ وليلة فمعناهُ مرحلتان، أي يومٌ كامل بنهارِهِ وليلِهِ.

إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، في منطقة الطائف التعليمية[1]. .



وعلى الرغم من إطْباقِ المتقدّمين، وتوافُقِ جُلِّ المحدَثين على أن «الحُريْرة» كانت تقع من عكاظ في مَهبِّ الجنوب، أي في حدِّه الجنوبي مع مَيْلٍ نحو الشرق، وأن «الأُثَيْداءَ» موضعَ قيام السوقْ، باتت مجهولةً مُنْدَرِسةً. . فإن العجيب أن تجعلَ اللجنةُ موقعَ الحُرَيْرةِ في الشمال الشرقي

---

(١) مجلة أهلاً وسهلاً السعودية: (٤٨ ـ ٤٩) من العدد رقم (٩)، جمادى الآخرة ١٤١٩ هـ= أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٨ م.

قولُه بأن عكاظاً يقع على طريق القاصد من مكة إلى الطائف في نحو ثُلُثَيْ الطريق، فهو غلطٌ نَشَأَ عنده من غَلَطٍ آخر لمَّا زعم أن السوق تقع على مرحلتين من مكة، ومرحلةٍ من الطائف، فالحقيقةُ أن السوق، على ما في تعاريفِ القدماءِ كافةً، تقعُ على ثلاثِ مراحِلَ من مكة، ومرحلةٍ من الطائف، أي في نحو ثلاثة أرباع الطريق، ولو صحَّ كلامُه لكان معناهُ أن المسافة بين مكة والطائف، بطريق عكاظ، تساوي اثنين وسبعين ميلاً، وهو غير صحيح! ولو صحَّ كلامُه أيضاً لكان السيلُ الكبير موضعَ السوق، وهو ما ثبتَ بُطْلانُه، وقد أنكره بنفسه على هيكل. وأمّا قولُه بأن السوق كانت مُتنقِّلةً، لا تُلازِمُ بقعةً واحدةً، لا تحيدُ عنها يميناً ولا شمالاً، وأنها تمتدُّ من جنوب العُشَيْرة إلى السَّيْل الصغير والحَوِيَّة، زاعماً أن هذا ما استقرَّ عليه رأيُ الأمير فيصل وابنِ بُليهد ورشدي ملحس، فأمرٌ بعيدٌ جداً من الحقّ، وقد مرَّ بنا قبل قليلٍ ما كان عليه هؤلاء من رأي فَصَّلناهُ، ولا مُبرِّرَ لتكراره.

* * *

وقد ذكر الدكتور عزام أنه نظر في كتاب الأفغاني، فوجد فيه وفاءً بأخبار عكاظ، ولكنه اتَّبعَ أقوالاً في تعيين مكان عكاظ ليست صواباً[١]. وعلَّق في موضعٍ آخَر بأن آراء الزِرْكليّ وهيكل لا يؤيِّدُها التحقيق، وأن الرأيَ الحقَّ ما رآهُ هو والشيخُ الجاسِرُ وابنُ بُلَيْهد[٢]. ويقتضيني الإنصافُ أن أُضيف إليهم رشدي ملحس. وبذلك نكون قد استوفينا الكلام على موضع عكاظ.

* * *

(١) موقع عكاظ: ٥.

(٢) المرجع نفسه: ٧٢.

يُقام عليها موسمُ عكاظ. . . ومثلُ هذه الأرضِ يكون عادةً مَوْضعاً لِمُتَنَزَّهاتٍ ومَلاذٍّ ومَلاهٍ، كان يحفلُ بها سوقُ عكاظ، ومن ذلك قولُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «لأَنْ أُخْطىءَ سبعين خطيئةً برُكْبَة، أحبُّ إليَّ من أن أُخطىء واحدةً بمكة»[1]، والمعروفُ عنه أنه كان في جاهليَّته يرتادُ سوقَ عكاظ في مواسمها، ولعلَّ الملاهي كانت، من بلادِ رُكْبَة، حيث كان بعضُ أرضِ عكاظ. . .

يبقى الإشارةُ إلى ما كان بأرض عكاظ من الأنْصَابِ، وهي تماثيلُ رجَالٍ كانوا صالحين، جُعلت في الجاهلية أعلاماً، ونُصِبتْ في السوق، فكانوا يتقرَّبُون بها إلى الله، ويذبحون عندها القَرابين. وكانت هنالك أيضاً حِجَارةٌ، قيل إنها من المرمر[2]، كانوا يُقدِّسونها، ويطوفون حولها ويحجُّون إليها[3]. وتبيَّن، بالتحقيق في موضع عكاظ، إلى الشمال والشرق من الحُرَيْرة، وجودُ آثارِ بناءٍ مُنيفٍ، قائمٍ على رَبْوَةٍ، فيه بَهْوٌ، وحُجُراتٌ، وعُقودٌ مُحْكَمةٌ، قال ابنُ بُليهد إنه جاهليٌّ، أي من أطلال عكاظ[4]. وتقع غيرَ بعيدٍ من الحُرَيرة آثارُ بناءٍ آخَر، وجُدُرٍ من الحجارة مُسَوَّاةٍ بالأرض[5]، ولعلَّها أيضاً من أطلال عكاظ، كانت مركزاً لسادة السوق، أو قُضَاتِهِ وأَئمَّتِهِ.

* * *

(١) أخبار مكة: ٢/ ١٣٧.
(٢) موقع عكاظ: ٢١.
(٣) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.
(٤) موقع عكاظ: ٢٠.
(٥) المرجع نفسه: ٢٩.

(*) **المراجع** ـ جمهرة أنساب العرب: ٢٤٣، ٢٥١، ٢٧٢، ٢٨٢، ٢٨٥، ٣٠٨. الأغاني: ٣/ ٨٥، ٢١/ ١٤٤، السيرة: ١٢٢. المحبَّر: ١٣٥، ١٨١. الكامل: ٢/ ٤٣. العقد الفريد: ٣/ ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٤ ـ ٣٥٥. الأعلام: ٢/ ١٧٣.

(١) **زيد بن عدوان**: كانت فيهم الإفاضة بالحاجِّ من المزدلفة إلى مِنى. وآخِرُ من تَولاَّها منهم عُميْلة بن الأعْزل (أبو سيارة) ٥٢٥ ـ ٦٢٠ م.

(٢) **بنو سعد**: أظآرُ النبيّ عليه السلام، استرضع فيهم واكتسب فصاحتهم.

(٣) **زهير بن جذيمة العبسيّ**: سيدُ قبائل قيس بن عيلان في عصره، ورئيسُ غَطفان ويقدَّر وجودُه نحو (٤٧٥ ـ ٥٥٠ م).

(٤) **عامر بن الطُفَيْل**: قيل إن عامراً ولدتْه أمه بعدما فَرغ الناسُ من القتال يومَ جَبَلة، وكانت حاملاً به وقتئذٍ. (الأغاني: ١١/ ١٣١)، وكان يوم جَبَلة قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة، وقبل مولد النبيّ بسبع عشرة سنة. (معجم البلدان: ٢/ ١٠٤)، وكان عامر في الثمانين من عمره لمّا قَدِم على النبيّ في السنة التي قُبِضَ فيها، ثم هلك في عودته من المدينة. (الأغاني: ١١/ ١٤٩ ـ ١٥٠)، ومن شأن هذا كله أن يجعل مولدَ عامر بن الطفيل نحو (٥٥٢ م)، ووفاتَه سنة (٦٣٢ م). فإذا أجْرَيْنا على عمود نَسَبه قاعدةَ الأجيال الثلاثة في مئة سنة، تبيَّن أن قيس بن عيلان كان من أبناء القرن الميلادي الأول، وأن عامرَ بنَ الظرِب العَدْوانيِّ، الذي جاء ذكره في أحداث عكاظ، وهو من المُعَمَّرين، كان وجودُه نحو (٢٧٥ ـ ٤٢٥ م)، وهذا يرتفع بزمن عكاظ إلى القرن الرابع للميلاد، ويجعلُ تقديرَنا لزمن زهير بن جذيمة العبسي نحو (٤٧٥ ـ ٥٥٠ م) أقرب إلى الصواب، ويؤكِّدُه أن المُسَاوِرَ بن هند بن قيس بن زهير، وكان شاعراً مُعَمَّراً، من أشراف بني عبس، وُلد في حرب داحِس والغبراء قبل الإسلام بنحو خمسين سنة. (الأعلام: ٧/ ٢١٤)، أي أن مولده كان سنة (٥٦٠ م)، وقد توفي سنة (٦٩٥ م)، وكان زهيرٌ والدَ جَدِّه قيسِ بن زهير. ومِثْلُه قُرَّةُ بنُ حُصَيْن بن فضالة بن الحارث بن زهير، كانت له صُحْبة، وبعثه النبيُّ إلى بني هلال بن عامر داعياً إلى الإسلام، فقتلوه نحو (٦٣٠ م)، وتُقدَّر ولادتُه نحو (٥٩٠ م)، وبينه وبين زهير ثلاثةُ آباء، فيكون وجودُ زهير نحو (٤٧٥ م) صحيحاً ومُؤكَّداً، ووجودُ عكاظ في القرنين الرابع والخامس للميلاد ثابتاً.

* * *

المطلب الرابع ـ قيام موسم عكاظ:

يتبيَّنُ من تقليبِ مختلف الأخبار والروايات التاريخيّة الخاصَّةِ بمواسم العرب، أن سوق عكاظٍ كانت تقومُ باتفاق الجميع في شهر ذي القعدة، وهو من الأشهُر الحُرُم، وذلك على خلافٍ في يوم افتتاحها، وقد أخذنا فيه بقولِ الأزرقيّ، إذ هو أقربُ إلى المنطق، وأَوْثَقُ روايةً، وبه أخذ معظمُ الباحثين، فيكون موعدُ قيامها يومَ هلال ذي القَعْدةِ، حتى العشرين منه.

غير أن ياقوت الحموي نقل روايةً غريبةً عن الواقدي في أيام قيامها، فقال: «وكانت العربُ تُقيم بسوق عكاظ شهرَ شَوَّال، ثم تنتقلُ إلى سوق مجنَّة، فتُقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم تنتقلُ إلى سوق ذي المجاز، فتُقيم فيه إلى أيام الحجّ[1]...»!، ولعله حَسِب توارُدَ الناس إلى موضع السوق، قبل قيامها، قِياماً! إذ لم يكن لهم بُدٌّ يومئذٍ من أن يصلوا إليها في شهر شوَّال، لِيَنْصُبوا منازلَهم، ويُنَظِّموا مَجالِسَهم، ويُخْرِجُوا بَضائعَهم لِتُعرضَ في السوق حين انعقاده، ويترقَّبوا هلالَ ذي القعدة، موعدَ قيام السوق... ومن السُّخْفِ التصوُّرُ أنهم كانوا وقتئذٍ يصلون إلى السوق يومَ افتتاحها بالضبط!

وفي الوقت نفسه جعل الأصفهانيُّ قيامَ سوق عكاظ مُدَّةً أطول، فقال: «وكانت سوقُ عكاظ في أول ذي القعدة، فلا تزال قائمةً، يُباع فيها ويُشترى، إلى حُضُور الحج[2]»... ومثلُه فعل ابن عبد ربه فقال: «وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة، والتهيُّىءِ للحجّ، من أول ذي القعدة إلى وقت

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٢) الأغاني: ٢٢/ ٦٤.

الحجّ»[1].

ولا أرى في هذا المذهب غرابةً، فربما تخلَّفَ الكثيرون في السوق، من التجَّار وأصحابِ المصالح، اسْتكمالاً لبعض شؤونهم! إذ لا يمكن أن يستكمل كلُّ الناسِ جميعَ حاجاتهم من سوق كبرى، كسوق عكاظ، في الأيام المحدودة لقيامها، ولا سيما إذا لم يكن لهم أَرَبٌ في سوقَيْ مجنَّة وذي المجاز بعدَها، فليس عليهم أن يَشْهَدوهما، فيَظلُّون بعكاظ حتى اقترابِ موسم الحجّ في غُرَّة ذي الحجَّة. ولكن هذا لا يعني أن الموسم يظلُّ مُنعقداً كلَّ هذه المدَّة، فأئمَّةُ الموسم يُعْلنون انفضاضَه بانقضاء عشرين يوماً من شهر ذي القَعْدة كما هو مرسومٌ له.

ولمّا كانت العربُ إذ ذاك تعتمدُ منازلَ القمرِ في معرفةِ السنين والحِسَاب، والأَهِلَّةَ في افتتاح الشهور وانقضائها، فإني أُرجِّح أن موعدَ انعقاد موسم عكاظ كان في أواخر شهر تموز (يوليه)، على فرض أن الأوَّل من شهر المحرَّم (صَفَر الأول) كان يقع يوم ابتداءِ الخريف. وأرى افتتاحَ الموسم كان مَنُوطاً برؤية الهلال، الذي يطلعُ مباشرةً قُبَيْل أو بعد طلوع كوكب الشِعْرى العَبُور[2]، وهي تطلعُ في التاسع عَشَرَ من تموز، عندما يبلغُ الحرُّ مُنْتَهاهُ، وتأخُذُ شِدَّتُه بالتراجُع، ويَعْقُبه أوّلُ موسم التربُّع، أو التبدِّي، وأرضُ عكاظٍ، كما لاحظنا، في موقعٍ طيّبٍ للتربُّع أو التبدِّي. وربما كانوا يلتمسون هلالَ ذي القعدة قُبَيل أو بعد طلوع منزل النَّثْرة[3]، في السابع عشر من

---

(١) العقد الفريد: ٥/ ٢٥٣.

(٢) الشِعْرى العَبُور: كوكبٌ نَيِّرٌ، يطلع بعد الجوزاء، في شِدَّة الحرِّ، عَبَدتْه طائفةٌ من العرب في الجاهلية، إذ رأتْه عَبَرَ السماءَ عَرْضاً، ولم يَعْبُرْها كذلك غيرُه، فأنزل الله: ﴿وأنه هو ربُّ الشعرى﴾، أي ربُّ الشعرى التي تعبدونها.

(٣) النَّثْرة: كوكب في السماء، من منازل القمر، تُسميه العربُ نثرةَ الأسد.

حرامٌ. هذا من جانبٍ، ومن جانب آخَر، فالنصُّ يعني أيضاً أن على التجار، ممَّن أراد التجارةَ، أن يحضروا افتتاحَ السوق، يومَ قيام موسمها، حتى تَصِحَّ صفقاتُ البيع والشراء بينهم، بعدما يَأذَنُ إمامُ السوق بابتدائها. أما أولئك الذين لا يريدون المتاجرةَ، فبِوُسْعِهم إن كانت لهم في السوق حاجاتٌ، أن يحضروها متى شاؤوا، أو أن يقصدوا الحجَّ رأساً من منازلهم، فشُهُودُ مَواسم الأسواق ليس واجباً لِشُهود موسم الحجِّ.

وفي هذا كتبَ هيكلُ يقول: «. . . إن العرب كانوا إذا أزْمَعُوا الحجَّ إلى مكة، من أَصْقاعِ شبه الجزيرة، جعلوا عكاظاً مَوْعدَهم في هلال ذي القعدة، فأقاموا بها عشرين يوماً، ثم انصرفوا إلى مجنَّة، فأقاموا بها عشراً، فإذا رأوا هلال ذي الحَجَّة، انصرفوا إلى ذي المجاز، فأقاموا أسواقهم به ثماني ليالٍ، ثم تَرَوَّوْا من مائِهِ في اليوم الثامن، وخرجوا إلى عَرَفة. وبَدَهيٌّ أن الذين كانوا يحضرون هذه الأسواق هم الذين كانوا يريدون التجارة، فأمَّا من لم يكن له تجارةٌ ولا بَيْعٌ، فإنه يخرجُ من أهله متى أراد. وكان من لا يريدُ التجارة من أهل مكة، يخرجُ مِن مكة يومَ التَرْوِيَة. وظلَّ الحالُ على ذلك، حتى جاء الإسلامُ، وخَلَعَ على الحجِّ من الجَلالِ ما تَضاءَلَ إزاءهُ جَلالُ هذا الفَرْضِ في الجاهلية. . .»، فأباح التجارةَ قبلَ الحجِّ، وأثناءَهُ، وبعْدهُ[1].

ويجب ألاَّ نفهمَ من كلام هيكل، أن شهودَ مواسم عكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجاز كان فَرْضاً واجباً على التجار، وإنما هو رخصةٌ تُبيحُ لهم التجارةَ قبل موسم الحجّ، لأن الجمع بين التجارة ومناسك الحجِّ كان حراماً. ولقد

(١) في منزل الوحي: ٣٦٥.

كان أهلُ مكة أشدَّ حِرصاً، على شُهود الأسواق، منهم على الخروج إلى عَرَفَة، فالكعبةُ في بلدهم، والطوافُ مَيْسورٌ لهم متى شاؤوا. . . ولذلك قلَّ من أهل مكة مَن لم يكن يخرج إلى عكاظ، فقد كانوا قوماً تُجَّاراً، وكانت التجارةُ عِمَادَ حياتهم، وكانت أسواقُ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز فُرصَتَهمُ الكبرى لتحقيق المنافع والأرباح. بل إن أشرافَ العرب كانوا «يَتَوافون بتلك الأسواق، مع التجار، من أجل أن الملوك كانت تَرْضخُ للأشراف، بسهمٍ من الأرباح، لكلِّ شريفٍ منهم، فكان شريفُ كلّ قومٍ يحضرُ سوقَ بَلَدِهِ، إلا عكاظاً، فإنهم كانوا يتوافَون بها من كل أَوْبٍ»[1].

أما إذا كان الغرضُ من قول الأزرقي، أن تلك المواسمَ، لم يكن يحضرها من العرب إلا التجَّارُ من الناس، فربما كان له نصيبٌ من الصحَّة لمّا أُنْشِئت أسواقُ عكاظٍ ومجنَّة وذي المجاز، دفعاً للجمع بين التجارة والحجِّ معاً، أما بعد ذلك، فإنها صارت مواسمَ قوميَّةً عامَّةً، يَحضرُها مختلفُ قبائل العرب[2]، بما كان لهم من شؤونٍ وشُجُونٍ، بدليل الأخبار الكثيرة المأثورةِ عن وقائع عكاظ، وما تُشير إليه من أَنْشِطَةٍ اجتماعيّة وأدبيّة ودينيّة، غيرِ التجارة! ذلك أنه «كانت فيها أشياءُ ليست في أسواق العرب. . .»[3]، فكان يأتيها التجَّارُ وغيرُ التجارِ مِن كلِّ ذي أَرَبٍ، لعله يجدُ فيها أَرَبهُ.

ولئن كنا لا نستطيع أن نعرفَ، على وجه الحصر، أعدادَ من كان ينزلُ عكاظاً من قبائل العرب، أو أسماءَ التجارِ وسائرِ النزلاء، لكننا نعلم من بعض الأخبار، أن أعدادهم كانت بالألوف، وأن السوق في بعض السنين

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٥.

وسُلَيم، وعَبْس، وبني نصر بن معاوية، وبني البَكَّاء بن عامر[1]. . . والأَوس، وهمدان[2]. . . ومَذْحج[3]. . . ولا شك في أن بني تميم كانوا يَشْهَدونها، إذ كانوا أئمَّةَ السوق وقُضَاته، أَضِفْ إلى ذلك بني إيَاد، وكان قسُّ بنُ ساعدة خطيبَهم بعكاظ، والخَزْرَجَ، وكان حسَّانُ بن ثابت شاعِرَهم فيها. . . وآخَرِينَ كُثْراً، تَسْتَبينُ أسماؤهم واضحةً في وقائع عكاظ. . . «فترى من هذا أن بلادَ العرب، من أقصاها إلى أقصاها، كانت تشترك في هذه السوق»[4].

* * *

أمّا المنازلُ في عكاظ، فيُمكِنُنا أن نَتَخيَّلَها وقد انْتَثَرتْ على أرضٍ واسعةِ الأَرجاء، مُتَرامِيَةِ الأطراف، أَنْبَتتْ حَشَائِشَ خُضْراً، فأَزْهَرتْ زَهراً مُختلفاً ألوانُه، وارتفعتْ فيها أشجارُ النخيل باسِقَاتٍ لها طَلْعٌ نَضِيدٌ، وأشجارُ الأَراكِ والسَّلَمِ مُلتَفَّةٌ أغصانُها لها ظِلٌّ مَدِيدٌ، وانبَسَطتْ حوَالَيْها مَراعٍ مُعْشَوشِبَةٌ، سَرَحَتْ فيها الأنعامُ تَرْعَىٰ كَلأَها وأَعْشَابَها، وانْبثَقَتْ من ينابيعها مِياهٌ عَذْبَةٌ، لَذَّةٌ للشاربين. . .

هذا في الخيال، أمّا في الحقيقة فكان لكل قومٍ في السوق منازلُ خاصَّةٌ بهم، بُنِيَتْ فيها مَضَارِبُهم، ورُفِعَتْ عليها راياتُهم تُميِّزُ بعضَهم من بعض في قبائل العرب، وتَحفظُ حقوق الجِوَار فيما بينهم، وتهدي الباحثين عن القبيلة إلى مَوْضِعها، كأنه وطنٌ صغيرٌ لها في أرض عكاظ. فإذا أرادوا بَيْعاً أو

---

(١) محمد بن سعد ـ الطبقات: ١/٢١٦ ـ ٢١٧، وابن جرير الطبري ـ تاريخ الطبري: ٢/٣٤٨ ـ ٣٥٠.

(٢) معجم البلدان: ١/١٠٦ (أُجَيرة) و ٤/١٣٤ (عقبة).

(٣) الأغاني: ١٢/٤، ٨، ١٥.

(٤) د. أحمد أمين ـ عكاظ والمربد: ٢٥.

القضاءُ والإمامةُ معاً. وهنالك أيضاً حاجبُ بنُ زُرَارة، من بني زيد بن عبد الله بن دارم، كان من قضاة بني تميم، وهو من البُلَغاءِ الفُصَحاءِ في زمانه، له كلامٌ جيّد مُسَدَّدٌ[1]، ولعله كان يقضي بعُكاظ. ثم لا بُدَّ أن نضيف إلى هؤلاء: أكثَمَ بنَ صَيْفيّ، من بني مُخَاشِن بن معاوية، وكان في زمنه «قاضِيَ العرب، لا يَرُدُّون له حُكماً»، وكان من أشهر حكماء العرب، وخطبائهم في الجاهلية، عُرِفَ بنزاهته، وحُبِّه الخيرَ، وكان مثَالَ الرصانةِ والتعقُّل، توفي نحو سنة (٦٣٠ م). وكان من المُعَمَّرين[2]، ومثله الأضْبَطُ بنُ قُرَيْع من بني سعد بن زيد مناة، كان مُعمَّراً، والمُعَمَّرُ عند العرب مَن عاش مئةً وعشرين سنةً فما فوق[3].

وعلى ذلك، فإن بني تميم كانوا مُخْتصِّينَ بشؤون القضاءِ، أو الحكومة في عكاظ، وكانوا فوق ذلك أئمَّةَ الموسم، أو رؤساءَهُ، يعودُ لِوَليِّ ذلك منهم، أن يُعِلنَ قيامَ الموسم في موعده، ويأذَنَ بافتتاح السوق للمُبَايَعات، فإذا انقضت مدَّةُ قيام الموسم، أعلن انفضاضَ السوق، ولعله كان بعدئذٍ يُفيضُ بالناس إلى مجنَّة وذي المجاز... وكان لا بُدَّ لمن تَؤُولُ إليه رتْبةُ القضاء، من أن يكون سيِّداً في قومه، كريماً، شجاعاً، عالماً بتقاليد العرب وعاداتهم، واقفاً على أنسَابهم وأحْسَابهم، وذلك ليكونَ قضاؤه بين الناس موضعَ تقدير، ومحلَّ طاعَةٍ.

وممّا يجدرُ ذِكرهُ في هذا المقام، أن شعراءَ العرب كانوا، كذلك،

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٥٤، والمحبَّر: ١٣٤، والمفصَّل: ٥/ ٦٤١.

(٢) الأغاني: ١٦/ ٢٥٥، والأعلام: ٢/ ٦، والجاحظ ـ البيان والتبيين: ١/ ٢٨٣، والمفصَّل: ٥/ ٦٤٠، والمحبَّر: ١٣٤.

(٣) الأَبْشيهي ـ المستطرَف في كل فنّ مُستظرف: ٢/ ١١.

للمُتَقاضِينَ[1]، وأنه كان أقربَ إلى التحكيم منه إلى القضاء. ولكنني أراهُ في قضايا السوق بعُكاظ كان مُلْزِماً، لأنه لم يكن تطوُّعاً، أو تبرُّعاً للحُكم بين المتنازعين، وإنما كان تكليفاً، تَوافَقَتِ العربُ عليه، وأَقَرَّتْهُ في بني تميم، يَتوارثُونَهُ في السَّادَةِ النابِهينَ الخُبَراءِ من أعْقَابهم... ويبدو أن الدكتور منير العجلاني ذهب مذهباً مختلفاً، فقرَّر أن عرب الجاهلية لم يكن عندهم منصبٌ مَخْصُوصٌ باسْم القضاء، وما تُحدِّثُنا أخبارُ الجاهليَّة به عن «قاضي السوق الذي كان يجلسُ للحُكم في سوق عكاظ»، لم يكن أكثرَ من مُحكَّم، اختارتْهُ جماعةُ السوق، ليقضيَ بينهم، في أغراضٍ مُعَيَّنَةٍ ومَوْسِمٍ محدود، ثم تنقضي مُهِمَّتُهُ. وحكومةُ هذا المحكَّم، بين الخصوم، لم تكن مُلْزِمةً لهم بالمُثُولِ بين يَديْه، والاحتكام إليه، ولم يكن حُكْمُه مُلزِماً بالتنفيذ، وربما تراضَوا على الاحتكام إلى مُحكَّم آخَر[2].

صفوةُ القول أن الأمور بعكاظ لم تكن فوضى، وإنما كانت تحكُمها قواعِدُ مَكِينةٌ، وإن كانت غير مكتوبة. فالنُّزَلاءُ بالسوق كانت تَضْبطُ كلَّ قبيلةٍ منهم رؤساؤُها وأشرافُها وحُكّامُها. والمنازعاتُ الناشئةُ في السوق، كُلِّفَ الحُكمَ فيها قضاةٌ نابِهُون من بني تميم.

* * *

● تعقيب على نظام التقاضي في الجاهلية:

كان في أسواق الجاهلية قُضَاةٌ أو مُحكَّمون، يَفُضُّون الخصومات، ويجلسون للنظر في مظالم الناس، وفيما قد يَشْجر بينهم من المنازعات، إذا

---

(١) المفصَّل: ٥/ ٦٣٥.

(٢) عبقرية الإسلام في أصول الحكم: ٤٣٠ ـ ٤٣١.

«أُم أيمن»، وكانت ممَّا وَرِثَهُ عن أبيه، وكان اسْمُها «بَرَكة»[1]. وذكر أيضاً أن «النابغةَ بنت عبد الله»، كانت سَبِيَّةً عند بعض قبائل العرب، فأبىٰ قومُها فِداءَها، فبِيعَتْ في عكاظ، فاشتراها عبدُ الله بنُ جُدْعان التَّيْميُّ، للعاص بن وائل السَّهْميّ، فولدتْ له ابنَه عمرو بنَ العاص، فاتحَ مصر[2].

هذه أمْثِلَةٌ لما كان يُعْرض في سوق عكاظ من البضائع، وليس سَرْداً لكل ما كان يُعْرضُ فيها، ولكننا نعتقدُ أن ما ذكرناه منها فيه وضُوحٌ كافٍ ومُغْنٍ عن التكرار.

* * *

المطلب الثاني ـ نظامُ المتاجرة:

إن استقراءَ ما تَيسَّرَ لنا من الأخبار، يُنْبِىءُ بوجود بعض القواعد العامَّة، التي كانت مُتَّبَعَةً في المتاجرة بسوق عكاظ. ولعل أكثَرها وضُوحاً: التحكيمُ التجاريُّ، والإعْفاءُ من الضرائب، والعلاماتُ التجارية.

١ ـ التَّحْكيمُ التجاري:

كان قضاةُ عكاظٍ غالباً يحكمون فيه بين المتنازعين، لِئَلاَّ يطغَىٰ أحَدٌ على أحَدٍ في بيع أو شراء، فكان خيرَ ضامنٍ لحقوق الضعفاء، والمظلومين، الّذين كانوا يقعون ضحايا للغِشِّ، أو التَّدْليس، والخِداع، أو الغُبْنِ بالأسعار، أو المَطْلِ بوفاء الدَّيْن، وغير ذلك من المظالم. وأعتقد أن منصبَ القضاءِ إنما أُحْدِثَ بِعُكاظٍ من أجل النظر في مثل هذه المظالم، قبل أيّ شيءٍ

(١) المعارف: ١٤٤، والطبقات: ١/ ٤٩٧، و ٣/ ٤٠، و البلاذري ـ أنساب الأشراف: ٤٦٧، ٤٧٦.

(٢) العقد الفريد: ١/ ٥٤.

بضاعةٍ[1]. فهل يكون السِّرارُ نوعاً من البُيوع، يُخمِّنُ فيه أحَدُ المُتَبايِعَيْن أن يحصل من بَيْعه ما معه من عُروضٍ، على بضاعةٍ أفضل؟

والثابتُ أن العرب كانوا يتعاملون، في مُبايَعاتِهم، بالنقودِ التي سُكَّتْ في اليمن، أو في الحبشة، أو في بلاد النبط، من ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ، أو من معادنَ أُخرى كالنحاس، وعَرفوا الدنانيرَ والدراهمَ والدَّوَانِقَ. وتعاملوا أيضاً بالمقايضة، أو المُبَادَلة، كما تعاملوا بوزن الذهب أو الفضة[2]. وكانوا يتعاملون بالدَّيْنِ إلى أَجَلٍ، ويبدو أن هذا الأَجَل كان يُعَيَّن بموسم عكاظ. وقد جاء في الحديث أن النبيَّ عليه السلامُ، كتب لثقيفٍ حين أسلموا كتاباً، فيه: «. . . إن ما كان لهم من دَيْنٍ في رَهْنٍ وراء عكاظ، فإنه يُقْضَى إلى رأسه، ويُلاطُ بعُكاظٍ، ولا يُؤخَّر»[3]، أي أن على المدين قضاءَ الدَّيْن فقط، من غير رِباً، وذلك في موسم عكاظ، لا يُؤَخِّرُهُ عن ذلك. وكلُّ شيءٍ أُلْصِقَ بشيءٍ، وأُضِيفَ إليه فقد أُلِيطَ به، والوفاءُ هنا أُلْصِق بعكاظ، وهو دليلٌ على أنه كان ينعقدُ، والثمارُ قد أدركت، والغَلاَّتُ جُمِعتْ، والناسُ أَيْسَرتْ.

* * *

المطلب الرابع ـ كَتَبَةُ الصُّكُوك بعكاظ:

جاء في أخبار عكاظ، أنه لمَّا دخلت سنةُ خمس وثلاثين من عام الفيل، أي (٦٠٥ م) كان فيمن حَضَر الموسمَ عمرو بنُ الحارث بن الشريد

---

(١) تاج العروس: ١٢/ ٢٣ (سرر).

(٢) المفصَّل: ٧/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨، ٤٩٥.

(٣) لسان العرب: ٧/ ٣٩٧ (لاط)، ود. محمد حميد الله ـ مجموعة الوثائق السياسية: ١٦٠.

الفصل الثالث

عكاظ مُجتمعُ قبائل العرب

لوحاتٌ تُصوِّرُ الحياةَ الاجتماعية كما كانت بعكاظ :

- مصدر الأمثال، منبر الوعظ والتبشير، ملتقى المحبين، منبر التفاخر والمنافرة، مفاداة الأسرى، أخبار المعمَّرين، مقارعة عن حسناء، المُعاظمة في الأحزان، عكاظ مُوحِيَةُ العجائب، سرحة التهاجي، زبيب عكاظ، العرَّافون، امتحان البديهة، رايات الغدر ورايات الوفاء، بنات للزواج، تأديب السفهاء، صواحب الرايات، التحرش بالكرام، إذاعة العرب، تأمين الخائفين، عقوبة الفتنة، صعلوك في عكاظ، أوسمة عكاظ، مُلقي القناع، مُلاعَنَةٌ بعكاظ، القناع بعكاظ، إطلاق الألقاب، عار الدهر، المصارعة والفروسية، الكشف عن جريمة. . .
- تعقيب.

الفصل الثالث

عكاظ المَجمَعُ العامُّ لقبائل العرب

مثلما كانت سوقُ عكاظٍ معرضاً عامّاً لمتَاجِر العرب، فقد كانت كذلك مَجْمَعاً واسعاً، يتلاقَى فيه أشرافُ العرب، ورؤساؤهم، وأبناءُ القبائل على اختلاف مَواطِنهم، فكأنهم في نَدْوةٍ اجتماعيَّة كبرى، شُيوخُهم يَتَشَاوَرُون، وكِبَارُهم يتسَامَرون، وأشرافُهم يتفاخرون، والشُّبَّانُ يتنافسون، والعُشَّاقُ منهم في كلِّ وادٍ يَهيمون، والشعراءُ يَتَبَارَون، والرُّوَاةُ يُنْصِتُون. . . ألوانٌ شَتَّى من حياة العرب في عكاظ، تَتَداوَلُ سمعَ المرءِ وبَصَرَهُ، منها ما يراهُ بِعَيْنيه، ومنها ما يسمعه بأُذُنَيْه، ومنها ما يَعيشُه بكل جَوارِحِهِ. مَنَابِرُ كثيرةٌ انتشرت في عكاظ، نِداءاتُ غَوْثٍ تُرْفَع، وقصائدُ فَخْرٍ تُنْشَد، وأشعارُ هَجْوٍ تُرْجَز. خُطَبٌ تُرْتَجَلُ، وأحكامٌ تُنْشَر، راياتٌ مَرْفُوعَة، وأَسْلِحَةٌ مَوْضُوعَة. رقيقٌ يُباع، وأخبارٌ تُذاع. قمارٌ ومُسَابَقات، مفاخرات ومُنَافَرات، جِوَارٌ ومعاهدات، وَعْظٌ وتَبْشِير، أَطِبَّاءُ وعَرَّافُون، خمْرٌ وخَمَّارون، قِيَانٌ وحانات. . . أصواتٌ مختلطةٌ، فيها معْمَعَةُ الفُرسان، وعَطْعَطَةُ المُجَّان، وأَطِيطُ الرُّهْبَان، وفيها بَعدُ من صُوَر الحياة ألوانٌ وألوان، لم تكن في الأسواق الأخرى، ولا يُمكن أن نُدْركها إلا إذا اطَّلعنا على ما أُثِرَ عنها من الروايات، فهُلَمَّ معي نطالع ما تَوَافَر لنا، بالتحقيق والبحث، من هذه الأخبار الكثيرة المختلفة، وهي تقعُ في ثلاثينَ حالةً اجتماعيَّةً، تُمثِّل أَوْجُهَ النشاط الاجتماعي في عكاظ. . .

* * *

١ ـ مَصْدرُ الأمثال:

١ ـ في أخبار الجاهلية أن ضَبَّةَ بنَ أَدٍّ بنِ طابخة[١]، وهو جدٌّ عربيٌّ قديم[٢]، نَفَرتْ له يوماً إبِلٌ تحت جُنْح الليل، فأرسل في طلبها وَلَدَيْه سَعْداً وسُعَيْداً، كلاًّ منهما في طريق، فوجدها سعدٌ، ورَجَعَ بها. ومضَى سُعَيدٌ في طلبها، ولكنه لم يَعُدْ، وفُقِدَ أَثَره. وكان لَقِيَهُ في الطريق رجلٌ يُدْعَى الحارثَ بنَ كعب، فقتله، وسَلَبَهُ بُرْدَيْن كانا عليه. فكان ضَبَّةُ، بعد ذلك، كلما أمسى فرأى تحت الليل سواداً، قال: أَسَعْدٌ أم سُعَيْد[٣]...؟ فذهب قَولُه مثلاً يُضْرب في النجاح والخيبة، أو في الاستخبار عن أيِّ الأمرين وقع: الخيرِ أَمِ الشرِّ.

ومكَثَ ضَبَّةُ على ذلك حزيناً ما شاءَ اللَّهُ له أن يمكثَ، حتى قصد الحجَّ، فوافَىٰ سوقَ عكاظ في موسمها، فلقيَ بها الحارثَ بنَ كعب، ولم يكن يعلم أنه قاتلُ ابنه، ولكنه رأى عليه بُرْدَيْهِ، فأدرك أنه المجرمُ، فاقترب منه وسأله: هل أنتَ مُخْبِري ماهذان البُرْدَانِ الجميلان؟ فقال: بلى... لقيتُ غُلاماً كانا عليه، فسألتُه إيّاهما، فأبَىٰ عَليَّ، فقتلتُه وأخَذْتُهما... فقال ضبَّة: لله دَرُّك، أَبِسَيْفِكَ هذا قَتلتَه؟ قال: نعم... قال: فأَعْطِنيه أَنْظُر إليه فإني أظنُّه صارِماً، وأظنُّكَ جَلْداً حتى قَدِرْتَ على ذلك! فأعطاهُ الحارثُ السيفَ، فأخذهُ من يده، فَهَزَّهُ، وقال: الحديث ذو شُجُون...! فذهب

---

(١) ضَبَّةُ بنُ أَدّ بن طابخة بن الياس بن مضر، وهو عَمُّ تميم بن مُرّ بن أَدّ. كانت منازلُهم شمالَ نَجْد.

(٢) الأعلام: ٣/ ٢١٣.

(٣) ومنه المَثَلُ: أَنْجُ سعدٌ فقد قُتِل سُعَيْد، قاله الحجّاجُ في إحدى خُطَبه.

قولُه هذا مَثَلاً يُضْربُ في الحديث يُذَكِّرُ بحديثٍ آخر[١]، ثم إنه أَهْوَى له بالسيف فقتله، فلامُوهُ في ذلك وقالوا: أَفِي الشهرِ الحَرَام يا ضبَّة؟ فقال: سَبَقَ السيفُ العَذَل[٢]. . . فذهب قولُه هذا مثلاً يُضْرب لما قد فات[٣]، فهو أوَّلُ من سارت عنه هذه الأمثال، وقد قال اثنين منها في سوق عكاظ، فصَدَرا عنها، وكان موسمُ عكاظ في ذلك فرصةً للكشف عن قاتل مُجرم.

وإذا نظرنا في هذا الخبر نظرةً أخرى، وجدنا أنه يرتفع بزَمنِ وُجود عكاظ، إلى أواسط القرن الثاني للميلاد. إذ يُقَدَّرُ ما بين ضَبَّة وسعدِ بن زيد مناة، أوَّلِ من اجتمع له الموسمُ والقضاءُ بعكاظ، بنحو مئة سنة[٤].

* * *

٢ ـ وفي أخبار الجاهلية أيضاً، أن سَعْدَ بنَ زيد مناة بن تميم، وكان يُلقَّبُ بالفِزْرِ، وهو اسْمٌ لابْنِ النَّمِر، وافَى الموسمَ في عكاظٍ بمِعْزَى، فنادى في الناس أنِ اجتمِعُوا، فاجْتَمَعوا، فقال: ألاَ إن مِعْزَى الفِزْرِ نَهْبٌ،

---

(١) **الحديث ذو شجون**: أي ذو طُرُقٍ مُتعدِّدة، واحدُها يُؤَدِّي إلى الآخر، ومنه قولُ الفَرزدق الشاعر:

لا تَأْمَنَنَّ الحربَ، إن اسْتَعَارَها ... كضَبَّةَ إذ قال الحديثُ شُجُونُ

ومنه أيضاً قولُ الشاعر:

تَذكَّرَ نَجْداً، والحديثُ شُجُونُ ... فَجُنَّ اشْتِياقاً والجنونُ فُنونُ

(٢) أي سبق القتلُ لومَ اللائم. ومنه أن الحارثَ بن ظالم المُرِّي ضرب رجُلاً فقتله، فأُخْبِرَ بعدُ بعُذْره، فقال: سبق السيفُ العَذَل.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٢٧٥، والعقد الفريد: ٣/ ٨٥، وجمهرة أنساب العرب: ٢٠٣، ولسان العرب: ١٣/ ٢٣٣ (شجن)، و ١١/ ٤٣٨ (عذل)، وتاج العروس: ٨/ ١٩٦ (سعد)، وأدبيات اللغة العربية: ١٥٤ ـ ١٥٥، والمفصَّل: ٤/ ٥٢٣.

(٤) أنظر جدول أنساب بني تميم، واذكرْ أن ضبَّةَ هو ابنُ أُدٍّ، الجدُّ الثالث لِسَعْد.

الرجُلان؟ فقال أُميَّةُ: هذا يزيدُ بنُ عبد المدان بنِ الديَّان، وهذا عامِرُ بنُ الطفيْل بنِ مالك! فقالت: أعرفُ بني الديَّان[1]، ولا أعرفُ عامِراً. فقال: هل سَمِعتِ بمُلاعِبِ الأَسِنَّة[2]. . .؟ فقالت: نعم. قال: فهذا ابنُ أخيه. وأَقْبل يزيد فقال: يا أُميَّة، أنا ابنُ الديَّان صاحِبُ الكتيبة، ورئيسُ مَذْحج، ومُكلِّمُ العُقَاب[3]، ومَن كان يُصَوِّبُ أصابعَهُ فتَنْطُفُ دماً[4]، ويَدْلُكُ راحتيْهِ فتُخرجان ذَهباً. . . ثم قال: يا عامِرُ، هل تعلم شاعراً من قومي رحَلَ بمِدْحَةٍ إلى رجُل من قومك؟ فقال: اللهمَّ لا. . . قال: فهل تعلمُ أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي؟ فقال: اللهمَّ نعم. . . قال: فهل لكم نجمٌ يمانيٌّ[5]، أو بُرْدٌ يمانيٌّ، أو سيفٌ يمانيٌّ، أو رُكنٌ يمانيٌّ؟ فقال: لا. . . فقال: فهل مَلَكْناكُم ولم تملكونا؟ فقال: نعم! . فنهض يزيدُ وأنشأ يقول:

أُمَيَّ يابْنَ الأسْكَرِ بنِ مُدْلِجِ ... لا تَجْعَلَنْ هَوازِناً كمذْحِجِ
إنك إن تَلْهَجْ بأمْرٍ تَلْجِجِ ... ما النَّبْعُ في مَغْرِسِهِ كالعوْسَجِ
ولا الصَّريحُ المحْضُ كالمُمَزَّجِ[6]

---

(١) بنو الديَّان: كانت لهم الرئاسة بنجران، وكان المُلْكُ منهم في بني عبد المدان، وكانوا مَضْرب المثَل في الشرف والكرم، وهم أصحابُ القبَّة بنجران.

(٢) مُلاعِبُ الأَسِنَّة: أبو البراء عامر بنُ مالك بن جعفر، سُمِّي مُلاعب الأسِنَّة بقول أوس بن حجر التميمي الشاعر:

فلاعَبَ أطرافَ الأَسِنَّةِ عامِرٌ ... فراح له حَظُّ الكتيبةِ أجمعُ

(٣) العُقَاب: كوكب، وطائرٌ من الجوارح.

(٤) تَنْطُفُ: تَقْطُرُ.

(٥) النجم اليمانيُّ: سهيلٌ، لأنه يُرى في نجد والحجاز من ناحية اليمن، وهي إشارةٌ إلى أن أهل نجد والحجاز يهتدون بالنجم اليمانيّ، ويسمُّون أحد أركان الكعبة: الركنَ اليماني، وليس فيها ركن حجازيّ أو نجديّ، وهم يفاخرون بالثياب والسيوف المصنوعة في اليمن.

(٦) لَهَجَ بالشيء: أُغْرِيَ به فثابر عليه. لجَّ: تمادى في العِنَاد.

وكان الذي جَرَّ المنافرةَ، بين جرير وخالد، أن بني كلب أصابوا رجُلاً من بني بجيلةَ، اسْمُهُ: مالكُ بنُ عتبة، فَوافَوْا به عكاظ، فمرَّ مالكٌ بابن عمٍّ له هو القاسمُ بنُ عقيل، وكان يأكلُ تمراً، فتناول من ذلك التمر شيئاً، فجذَبَهُ الكلبيُّ المُوكَلُ به، فقال له مالِكٌ: إنه رجُلٌ من عشيرتي! فقال الكلبيُّ: لو كانت لك عشيرةٌ لَمَنَعَتْكَ! فانطلق القاسمُ بن عقيل إلى بعض بني بجيلة وسألهم أن يَسْتنقِذُوا أسيرهم، فأبَوْا، إلا جريراً فقد ذهب بقومه واستنقذَهُ، فقامت بنو كلب دونَهُ، فقال جرير: زعمتم أن قومه لا يمنعونه! فقالوا: جماعتُنا خُلُوفٌ عنا. . . فقام جرير وقال: لو كانوا حُضُوراً لم يدفعوا عنكم شيئاً. فقالوا: كأنك تَسْتَطِيلُ على قُضَاعَة كلِّها؟ وكلبٌ من قضاعة. فقال: إن شاؤوا قايَسْنَاهُم المجدَ! وزعيم كلب يومئذ خالد بنُ أرطاة. فقالوا له: ميعادُك من قابلٍ سوقُ عكاظ. . . فجمعت كلبٌ، وجمعت بَجيلة، ووافَوْا عكاظ، وتحاكموا إلى الأقرع بن حابس، ليحكم بينهما أيّهما أكثر مجداً، فحكم لجرير، وقال له: لو فاخرتَ قيصر ملكَ الروم، وكسرى عظيمَ الفُرس، والنعمانَ ملكَ العرب، لنَفَّرتُكَ عليهم!

ومن الواضح أن الأقرع إنما نفَّر بني بَجيلةَ على بني كلب، لأن بَجِيلةَ بقرابتها من مُضَر ونزار أفضلُ وأكثَرُ عَدداً من كلبٍ وقضاعة. وذلك أن خَثْعَمَ وبجيلةَ من بني أنْمار، وأنمارُ أخو مضر وربيعة[1].

* * *

(٥) ـ مُفَادَاةُ الأَسْرى:

ومن كان له أسيرٌ مضى إلى عكاظ في الشهر الحرام، يسعى إلى فدائه،

---

(١) نقائض جرير والفرزدق: مصور عن طبعة ليدن (١٩٠٥ م): ١٤١ ـ ١٤٢.

ثابتَ بنَ المنذر، ثم بيعَهُ إياهُ بعُكاظ علانِيَةً في مجمع العرب:

هــلاَّ ســألــتِ، وأنــتِ غيــرُ عَيِّيَــةٍ ... وشفاءُ ذي العِيِّ السؤالُ عن العَمَى
عــن مشهــدٍ ببُعَــاثَ إذ دَلَفَــتْ لــه ... غسَّــانُ بــالبِيــض القــواطــع والقَنَــا
وعــن اعتنــاقــي ثــابتــاً فــي مَشْهــدٍ ... مُتَنــافــسٍ فيــه الشجــاعــة للفَتَــى
فشَــرَيْتُــهُ بــأَجَــمَّ أسْــودَ حــالــكٍ ... بعُكاظَ، موقوفاً بمَجْمَعِها، ضُحَى[1]

* * *

٢ ـ رَدُّ سَبِيَّةٍ إلى أبيها:

جاء في موارد أهل الأخبار، أن مروان بنَ زِنْباعٍ العبسيَّ[2]، كانت له يَدٌ لا تُنْسَى عند عوف بن أبي عمرو الشيباني[3]، صاحب القُبَّة التي عُدَّتْ من مَآثِرِ العرب في الجاهلية، إذ لم يكن يدخلُها جائعٌ إلا أُشْبع، ولا خائفٌ إلا أُمِّن[4]. وذلك أنَّ إبنتَه جُمَاعةَ بنتَ عوف، زوجةَ ابن عمها سِنان بن مالك بن أبي عمرو[5]، وقعت أسيرةً في إحدى الوقائع عند بعض بني عبس، فسألها مروانُ: مَن أنتِ؟ قالت: جُمَاعَةُ بنت عوف، فانتزعها مروانُ منهم، وكان رئيسَهم، وأعطاهم فيها مئةً من الإبل، وقال لها: غَطّي وَجْهَكِ، فواللَّهِ لا

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير: ٢٣٢.

(٢) مروان بن زنباع بن جذيمة: ابنُ أخي زهير بن جذيمة سيد بني عبس وجميع قبائل غطفان. وكان يُسمَّى مروانَ القَرَظِ، وكان يُغيرُ على أهل القَرَظ، وهو ورق شجر السَّلَم يُدْبَغُ به الأَدَمُ.

(٣) هو عوفُ بن أبي عمرو بن عوف بن مُحَلِّم بن ذُهْل بن شيبان، وليس عوفَ بنَ مُحلِّم كما ذكر صاحبُ الأعلام (٥/٩٦)، وصاحبُ المحبَّر: ٣٤٩ ـ ٣٥١. وتُقَدَّرُ وفاته نحو (٥٨٠ م)، وهو مُعَاصِرُ الملكَ عمرو بن هند اللخميِّ، المتوفى نحو (٥٦٩ م).

(٤) المحبَّر: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٥) مجمع الأمثال: ١/٤١١.

٣ ـ رجلٌ يستغيث لإطلاق أخيه بعُكاظ:

أغار قيسُ بن عاصم المنقريُّ[١]، على بني مُرَّة بن عوف بن ذبيان، فأصاب منهم أُسَارَىٰ، فيهم رجُلٌ من بني جُشَم، من هوازن، مُجَاوِرٌ فيهم، ثم فَدَىٰ بنو مرَّة أَسْراهُم من قيس بن عاصم، وظلَّ الجُشَمِيُّ مأسوراً. لم يَفُكَّهُ أَحَدٌ. . . فجاءَ أخوه، فاستغاث بوجوه بني مُرَّة ليَفْدوه، فلم يفعلوا، فلما كان موسم عكاظ، ركب إلى السوق، وأتى منازلَ بني مَذْحج ليلاً، فنادى يُعَيِّر بني مُرَّة لتركهم أخاه أسيراً وهو جارٌ لهم، فقال:

أَعَيِّـرُهـم فـي كـلِّ يـوم وليلـةٍ ... بتَركِ أسيرٍ عند قيس بن عاصمِ
حليفِهـمُ الأدنـى وجـارِ بيـوتهـم ... ومـن كـان عمَّا سرَّهـم غيرَ نـائـمِ
فيـا ليت شِعري مَـن لإطـلاق غُلّـهِ ... ومن ذا الذي يحظى به في المواسمِ

ثم أتى يزيدَ بنَ عبد المدان، فذكر له قِصَّتَه، فقال له: مَرْحباً بك وأهلاً، ثم أرسل إلى قيس يقول:

يا قيسُ أَرسلْ أسيراً من بني جُشَمٍ ... إنـي بكـلِّ الـذي تـأتـي بـه جَـازِي
لا تَـأمَـنِ الـدهـرَ أن تَشْجَـىٰ بغُصَّتِـهِ ... فـاختَـرْ لنفْسِـك إحْمـادي وإعْـزازي
فافكُكْ، أخا مِنْقَرٍ، عنه وقل حَسَناً ... فيمـا سُئِلْـتَ، وعَقِّبْـهُ بـإنجَـازِ

فأعْلَمه قيسٌ أن الأسير في يد رجُلٍ من بني سعد، ولو كان في يده، أو في بني مِنْقَرٍ[٢]، لبَعَثَ به إليه. فأرسل يزيد إلى السَّعْديّ أن سِرْ إليَّ بأسيرك، ولكَ فيه حُكْمُك، فأتى به السعديُّ، وطلب فِدْيَتَهُ مئةَ ناقةٍ ورِعاءَها، فأعطاه

---

(١) هو قيسُ بن عاصم بن سنان: من بني منقر بن عبيد، من سعد بن زيد مناة بن تميم.

(٢) مِنْقَرُ بن عبيد: من بني تميم، بنوه بطونٌ كان أكثرها بنَجْد، من نَسْله: قيسُ بن عاصم الصحابيّ، وعمرو بنُ الأهتم من السادة المقدَّمين في الجاهلية والإسلام.

تقول:

أُبكّـي أبـي عَمْـراً بعيـنٍ غـزيـرةٍ ... قليـلٌ، إذا نـام الخَلِـيُّ، هُجـودُهـا

وصِنْـويَّ لا أَنْسَـى معـاويـةَ الـذي ... لـه مـن سَرَاةِ الحَرَّتيْن وُفُـودُهـا[١]

وصخراً، ومن ذا مثلُ صخرٍ إذا غدا ... بسَـاهِمَـةِ الآطـالِ قُبّـاً يقـودُهـا[٢]

فـذلـك يـا هنـدُ الـرزيَّـةُ فـاعْلَمـي ... ونيـرانُ حـربٍ حيـن شـبَّ وَقُـودُهـا

فقالت هند تُجيبها:

أُبكّـي عميـدَ الأبْطحَيْـنِ كليهمـا ... وحامِيهما من كل باغٍ يُريدُها[٣]

أبي عُتبةُ الخيرات، ويحكِ فاعْلمي ... وشَيبةُ، والحامي الذِّمَارِ وليدُها

أولئـك آلُ المجـدِ مـن آل غـالـبٍ ... وفي العِزِّ منها، حين يَنْمي عَدِيدُها[٤]

ومُذْ مات صَخْرٌ، لم تَعِشِ الخنساءُ إلا للبُكاء، والرثاء. وكانت الدهرَ تَلبَسُ صِداراً[٥]، حُزناً عليه. وقد رأتها أمُّ المؤمنين عائشة، حَلِيقَةَ الرأسِ، مُرْتَديةً ذلك الصِّدَارَ، فعاتَبتْها، وقالت لها: أتلبسينَ صِدارَ الحزنِ وقد نَهى الإسلامُ عنه؟ فما زادها ذلك إلا حُزْناً[٦]... ! فإن لم تكن أعظمَ العرب

---

(١) الحَرَّة: الأرض ذاتُ الحجارة السُّودِ النخِرة. والحرَّتان: إحداهما لبني سُلَيم، والأُخرى لبني هلال. والمعنى أنه مَقْصدُ الأشراف من القبائل، تأتيه وفودُها فيما يُلمُّ بها.

(٢) السَّاهِمةُ: الدقيقة. الآطال: ج إطْل وهو الخاصِرة الضامرة. القُبُّ: ج أَقَب وقباء، وهي الفرسُ الدقيقة الخَصْر، الضامرة البطن، وذلك كناية عن قيادته الخيلَ الجيدةَ الأصيلةَ.

(٣) عميدُ القوم: سيِّدُهم وسَنَدُهم. الأبطحان: أبطح مكة وسهل تهامة. وأصلُ الأبطح المَسِيلُ الواسِعُ فيه دِقَاقُ الحصى.

(٤) الأغاني: ٤/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٥) الصِّدَارُ: ثوبٌ من شَعر أو صوف، كانت المرأة الثَّكْلَىٰ تلبسُه إذا حزنت، رأسُه كالقِناع، يَغْشَى الصدر والمنكبين.

(٦) الشعر والشعراء: ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

قالت: إن آمِنةَ بنتَ وهبٍ، أمَّ الرسول، لمّا أعطتْها إبنَها لتُرضِعَه، أمرتْها أن تسألَ عنه، فرجعتْ به إلى بلادها، فأقامت حتى دخل موسمُ عكاظ، فانطلقت به حتى حضرتِ السوقَ، وأتَتْ عَرَّافاً من بني هُذَيْل، يَعْرِضُ الناسُ عليه صِبْيَانَهم، فلما نظر إليه صاح: يا معشرَ هُذَيْل، يا مَعْشرَ العرب! فاجتمع إليه مَن كان مِن أهل الموسم، فقال: إنني أرى غلاماً ليُكسِّرَنَّ آلِهتكم، وليَظْهرنَّ أمرُهُ عليكم... فانْسَلَّتْ به حليمةُ، فجعل الناسُ يقولون: أيُّ صبيّ؟ ولا يَرَوْنَ شيئاً، وطُلب في عكاظ، فلم يجده أحدٌ، ورجعت به حليمة إلى ديارها، فكانت بعد ذلك لا تَعرضُهُ لِعرَّافٍ، ولا لأحدٍ من الناس[١].

* * *

(١٣)ـ امتحانُ البَديهة:

وعلى نحو ما نَشهَدُهُ اليوم من ندواتٍ، يجري فيها اختبارُ البَديهة، وسرعةِ الجواب، والمُغَالبة في الفطنة والعقل، كان العربُ يتلاقون في حلقات للسَّمَرِ، يمارسون فيها مثل هذه الأمور، ولا سيما في مواسمهم، كموسم سوق عكاظ... ومن أهل الدَّهاءِ والفِطْنة، ومن أهل اللسَنِ واللقَنِ، والجواب العجيب، والكلام الصحيح، والأمثال السائرة، والمخارج العجيبة: هندُ بنتُ الخُسِّ الإياديَّة، وكانت من حكيمات العرب، معروفةً بالفصاحة، وضرب الأمثال[٢]. وكانت تحضر عكاظاً، ولها فيه أخبارٌ كثيرة[٣]. وقد أَتتِ الموسم في إحدى السنين، فالتقَتْ رجُلاً أراد أن يمتحن عقلها، ويمتحنَ جوابَها، فقال لها: إني أريدُ أن أسألك. قالت: هاتِ! قال:

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ١٥، ولسان العرب: ٩/ ٢٣٨ (عرف)، و١٤/ ١٧٤ (حزا) و٧/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ (خطط).

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٤٩، و٣/ ٢٧، ولسان العرب: ٦/ ٦٤، والمفصَّل: ٨/ ٧٩٠.

(٣) الأعلام: ٨/ ٩٧، ومجالس ثعلب: ٣٤٣، ٣٦٩.

كاد . . . فقالت : المُنْتَعِلُ يكون راكباً . قال : كاد . . . فقالت : الفقرُ يكونُ كُفْراً . قال : كاد . . . قالت : العروس تكون ملكاً . قال : كاد . . . قالت : النعامةُ تكونُ طائراً . قال : كاد . . . قالت : السِّرَارُ يكون سَحَراً . . . ثم قالت للرجل : أسألك؟ قال : هاتي . . . قالت : عَجبتُ . . . قال : للسِّبَاخِ لا ينبتُ كَلَؤُها ، ولا يجفُّ ثَراها . قالت : عَجبتُ . . . قال : للحجارة لا يَكْبَرُ صغيرُها ، ولا يَهْرَمُ كبيرها[1] .

وذكر ابنُ منظور عن الأزهري أنه كانت في الجاهلية امرأةٌ ، تقوم بسوق عكاظ ، فتنشِدُ الأقوالَ ، وتضربُ الأمثالَ ، وتُخجِلُ الرجال ، فانتدب لها رجلٌ يوماً ، فقالت المرأة ما قالت ، فردَّ عليها ردّاً قبيحاً أخْجَلها فهربت[2] .

(١٤) ـ راياتُ الغَدْر وراياتُ الوفاء :

كان العربُ يُعظِّمُونَ الوفاءَ ، ويحضُّون عليه ، فإذا أعطى أحدُهم عهداً ، كان من أكبر العار والشَّيْنِ ألاَّ يفيَ به ، وكثيراً ما كان يُضَحِّي بنفسه وماله وأهله ، ليَفيَ بعهده ، فيُعَدَّ في الوافين ، ولئلاَّ يُوصفَ بالغَدْر ، ويُحشَرَ مع الغادرين . وقلما كان العربُ يحتاجون إلى من يفصِلُ بينهم في خصوماتهم ، لما فُطِروا عليه من جُنوحٍ إلى الوفاء ، فالوفاء إذا كان في أمَّةٍ ، أغناها عن الحكومة والقضاء ، والحكومةُ إنما تكون بين من ينكرون الوفاء[3] .

وكان من سنَنِهم في الجاهلية ، إذا غَدَرَ الرجلُ منهم ، أن يرفعوا له لواءً في المواسم الكبرى ، ولا سيما في مَجْمَعِهم العامّ بسوق عكاظ ، ليَفْضَحوهُ

---

(١) عيون الأخبار : ٢/ ٢١٤ .

(٢) لسان العرب : ٢/ ٤٩١ (سنح) .

(٣) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامي : ٢/ ٣٠٨ .

بقصيدةٍ قال فيها:

رحلــــتُ البـــلادَ فمـــا إن أَرَىٰ   شَبيهَ ابنِ جُدْعانَ وسْطَ العَرَبْ[1]

* * *

(١٩) ـ إذاعةُ العرب:

وكانت عكاظ كذلك إذاعةً للعرب، ومِنْبراً لإعلاناتهم، يُطْلق فيها كلُّ نَبَـإٍ[2] يُراد منه أن يكون عامّاً، أو أن ينتشِرَ، فتعرفَهُ العربُ جميعاً. فمن أراد أن يَسْتَلحِق أحداً بنَسَبِهِ، أي أن يمنحَهُ «جنسيَّةَ» قبيلته، وهُوِّيَّتَها، قام بعُكاظٍ، فأعلن ذلك في قبائل العرب، للعِلْم به، والشهادةِ عليه، والتعامُلُ معه... ومن أراد كذلك أن يُجِيرَ أحداً من غير قبيلته، أي أن يمنحَهُ حقَّ «اللجوءِ» إليها وحمايتِها له، أو أراد أن يخلعَ أحداً من القبيلة، أو من جِوارها، فعليه أن يُعلنَ ذلك في مجامع العرب الكبرى، كي تعرفَه الناس، وتتعامَلَ معه على أساسه. ولم يكن هنالك مجمَعٌ للعرب أكبرُ من مَجمَعِهم في عكاظٍ، ومواسم الحجِّ. وكانت معاهداتُ الأمن، المعقودةُ بين قبائل العرب، لا تصِيرُ نافذةً غالباً، ما لم تُعلن في سوق عكاظ! ومن ذلك ما ذكره الأصفهانيُّ عن أحياءٍ من العرب، اجتمعت بعكاظ، في سنينٍ تتابعت بالقَحْطِ على الناس، «فتَواعَدوا وتوافَقُوا أن لا يَتَغَاوَرُوا حتى يُخصَبَ الناس»[3].

١ ـ ومَن أراد أن يُعلنَ حرباً على قومٍ أَعْلَنَها في عكاظ، ومَن أَحَبَّ أن

---

(١) الأغاني: ١٠/ ٢٠ ـ ٢١.

(٢) لم أكتب الهمزةَ المتطرِّفةَ على السطر جهلاً، بل لأنه أقرَبُ إلى المنطق.

(٣) الأغاني: ١٥/ ١٨٧.

يُخلِّدَ نصراً لقومه، صَنَعَ ما صنَعهُ عمرو بن كلثوم التغلبيُّ[1]، لمَّا قام خطيباً بعُكاظ، فأعلن أن ملكَ الحيرة عمرو بنَ هند، تعمَّد إلحاقَ الذُّلِّ به وبأُمِّه، فقتله... ثم أنْشَأَ في ذلك مُعَلَّقتهُ الشَّهيرةَ فتَلقَّاها الرواةُ عن عكاظ، وأذاعوها في العرب، حتى صارت حديثَ الأجيال. وقد قيل إنه «قام بها خطيباً في سوق عُكاظ، وقام بها في موسم مكة، وبنو تَغْلب تُعظِّمُها جدّاً، ويرويها صِغَارُهم وكبَارهم، حتى هُجُوا بذلك، فقال بعضُ شعراء بني بكر بن وائل:

أَلْهَىٰ بني تَغْلبٍ عن كلِّ مَكْرُمَةٍ   قَصيدةٌ قالها عمرو بنُ كلثومِ»[2]

* * *

٢ ـ ومَن أَحبَّ أن يُخلَّدَ في العرب ذِكْرُه، وأن يتحدَّثَ الناسُ بكرمه وفَضْله، فَعَلَ ما فَعلَهُ «نَهِيكُ بنُ مالك القُشَيريُّ»، من بني عامر بن صَعْصَعة،

---

(١) عمرو بن كلثوم: شاعر جاهلي قديم، من بني تغلب، وُلِد في شمال جزيرة العرب، في ديار ربيعة. وتجوّل فيها وفي بلاد الشام ونجد. كان من أعَزِّ الناس نَفْساً، وهو من الفُتَّاك الشجعان. وقد قتل عمرو بن هند لأنه قال ذات يوم لنُدمائه: هل تعلمون أحداً من العرب تأْنَفُ أُمُّهُ من خدمة أمي؟ فقالوا: نعم، عمرو بنُ كلثوم، لأنّ أباها مُهَلْهلُ بن ربيعة، وعمَّها كُلَيبُ وائل أعزُّ العرب، وزوجَها كلثومُ بن مالك أَفْرَس العرب. وابنَها عمرو بن كلثوم سيّدُ قومه. فأرسل ابنُ هند إلى ابن كلثومٍ وأمّه يستزيرُهما، فأقبلا إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، ودخل ابن كلثوم في رُواق عمرو بن هند، ودخلت أمُّه ليلى في قُبَّة هند بجانب الرواق، وبعد الطعام، حاولت هند إذلال ليلى، فقالت لها: ناوليني ذلك الطَّبَق! فقالت ليلى: لتَقُمْ صاحبةُ الحاجة إلى حاجتها!. فألَحَّت هندٌ عليها، فصاحت ليلى: وَاذُلاَّهْ! يا لَتَغْلِبَ! فسمعها ابنُها، فنظر إلى عمرو بن هند، فعرف في وجهه أن الذُّلَّ لأُمِّه مُتَعمَّد، فقام إلى سيف معلَّق بالرُّواق، فضرب به رأسَ عمرو بن هند، فقتله. توفي بالجزيرة الفراتية نحو (٥٨٤ م).

(٢) الأغاني: ١١/٤٨.

خَلْعَانِ، أحدهما: خلعُ فَرْدٍ من أبناء القبيلة، والآخَرُ: خَلْعُ رجُلٍ أَعْطَتْهُ حقَّ مُجاورتها، والتمتّع بحمايتها، وهو ليس منها. وللخَلْع قواعِدُ لا بدَّ منها ليَصِيرَ حكمُهُ نافذاً، وأوَّلُ هذه القواعد إعلانُه في عكاظ، ومواسم الحجّ، ليكونَ الناسُ على علمٍ به. وذلك أن الرجلَ كان يجني الجنايات فيُؤخَذُ بها أوْلياؤهُ، وقد لا تكون لهم طاقةٌ أن يحملوا عنه أكثر مما فعلوا، فيتبرَّؤونَ منه، ويُعلنون أنهم لا يُؤاخَذون بجناياته على الناس بعد اليوم، ولا يضمنون شيئاً لمن جنى عليهم، ولا يُؤاخِذُون أحداً جَنَى عليه، ولا يطالبونه بشيء! فالعربُ في قبائلهم كانوا يتعاهدون، ويتعاقدون على النُّصْرةِ، والنجْدَة، وأن يُؤخَذَ كلٌّ منهم بالآخَر[1]. . وعَقْدُ المُجَاوِرِ فيهم كعقد أبناء القبيلة، فحُكْمهُ كحُكْمِهم في التناصُر والتعاضُد، فإذا أرادوا فَسْخَ هذا التعاقُدِ، أعلنوهُ على الناس في المواسم، وخيرُ المواسم صَلاحَاً لمثل هذا الإعلان، موسمُ عكاظ[2]. ويدخُلُ في أسباب الخَلْعِ من القبيلة، أو من حِلْفِها وجوارِها، خروجُ الرجل على وحدة القبيلة، وتصرُّفُه تصرُّفاً فَرديّاً دون الرجوع إليها، أو دون موافقتها، فتكون القبيلةُ عندئذٍ في حِلٍّ من تضامُنها معه، ومسؤوليتها عنه، فتُعلن خَلْعَهُ في عكاظ[3]. وقد خَلَعتْ قبيلةُ خُزَاعَة قيسَ بنَ الحدادية منها، ونَفَتْه عنها، وأعلنت ذلك بسوق عكاظ، وأَشْهَدتِ العربَ عليه، وكان قيسٌ صُعْلوكاً فاتكاً، وشاعراً شُجاعاً، يشترك مع الصعاليك في الفتك والغزو، ويجرُّ على أوليائه الجرائر[4]. . . وربما ساءَ سلوكُ أحَدِ أبناءِ القبيلة، وصار وجودُهُ فيها حَطّاً من قدرها بين القبائل، فتعلن خلعَهُ بعُكاظ،

---

(١) لسان العرب: ٨/ ٧٧ (خلع).

(٢) الأغاني: ١٤/ ١٣٧.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٢٩٩.

(٤) الأغاني: ١٤/ ١٣٧.

الجِوارَ والحمايةَ، فقام ابنُ جُدْعان، ورفَعَ الرُّمْحَ، إشارةً إلى أنه قَبِلَ إجارتَهُ، فأَمِنَ الحارثُ في حِمَاهُ، ثم لبِثَ بمكَّةَ[١]، حتى اشتدَّ ملكُ الحيرة في طلبه، وكان أكثَرَ المَوْتُورينَ منه طَلباً له، فانطلق من مكّة يتنقَّلُ في أحْياءِ العرب مُسْتجيراً بهم[٢]، وقيل إنه لحق أخيراً بأحَدِ ملوك غسَّان في مشارف الشام[٣].

* * *

(٢١)ـ عُقوبَةُ الفِتْنَة:

جاء في أخبار الجاهلية، أن زُرْعَةَ، ابنَ الصَّعِقِ الكلابي[٤]، لقيَ النابغةَ الذبيانيَّ في سوق عكاظ، فذكرَ بالسُّوءِ بني أسَدٍ، حلفاءَ بني ذبيانَ قومِ النابغة، وأشار عليه أن ينصحَ لقَوْمِهِ بنَقْضِ حِلْفِهم. ولكن النابغة رأى في كلام زُرْعَةَ فتنةً، فطردَهُ من مجلسه. ثم بلغَهُ بعد ذلك أن زُرْعَةَ يَتوعَّدُهُ، ويُهدِّدُهُ، فلم يجدْ لنفسه نُدْحَةً من عقاب زُرْعَة على فعلتِهِ، وكانت أقسى عقوبة يُنزِلُها به يومئذٍ، أن يقول فيه قصيدةً بسوق عكاظ، يفضحُ فيها أمْرهُ، ويَهْجُوهُ، ويُحذِّرُ الناسَ من فتنته، ويَحُضُّه على الانصياع إلى حُكم المجتمع. وحينما يَهجُو النابغةُ رَجُلاً مثلَ زُرعة، فهو لا يدفَعُ عن نفسه قَدْحاً، ولا ذَمّاً، وإنما يَرُدُّ واشِياً، أراد أن يُؤَجِّجَ فتنةً بين الحُلَفَاءِ. فقد كان هذا النوعُ من الشِّعْر دفاعاً عن سياسةٍ اجتماعِيَّةٍ مُعيَّنةٍ، وإن كان في ظاهره

---

(١) المحبَّر: ١٩٤ ـ ١٩٥، وأنساب الأشراف: ٤٢ ـ ٤٣، والمفضَّل: ٤/ ٣٦٤، والأغاني: ١١/ ١١٩.

(٢) الأعلام: ٢/ ١٥٦.

(٣) المفضَّل: ٣/ ٢١١، والأغاني: ١١/ ١١١.

(٤) هو زُرْعَة بن عمرو بن خُوَيْلد الصَّعِق، من بني كلاب، من عامر بن صعصعة.

خُذْ بين مطلع سُهَيْلٍ ويَدِ الجوزاءِ اليُسْرى، فثَمَّ منازِلُ قومي بني سعد بن زيد مناة...

ولا شك في أن السُّلَيْكَ كان كاذباً في وصْفِهِ، وأنه فعل ذلك ليعرفَ منازل قوم قيس، لِيَضَعَ خطَّتَهُ فيما بعد للإغارة عليهم. ثم انطلق قيسٌ بعدئذٍ إلى أهله، فأنْبَأَهم بما كان بينه وبين السُّلَيْك، فقال له أبوه، وكان خبيراً بأساليب الصعاليك وحِيَلهم: ثَكِلَتْكَ أُمُّك! هل تدري مَن لقيتَ؟ قال قيس: نعم، لقيتُ رجُلاً فُضُلا، وصَفَ لي نَفْسَه ومنازِلَ قومه، فكأنما أراه خارجاً من أهله بعَيْنيَّ... فقال له أبوه: هو واللَّهِ السُّلَيْكُ بنُ سعد، وهذه إحدىٰ حِيَلِهِ... ويقال إن السُّلَيْكَ اسْتنفَرَ أصحابَه بعد ذلك، ووضع خطَّتَهُ موضعَ التنفيذ، فأصاب من القوم غِرَّةً، فأغار عليهم، وغنم من أموالهم ونعمهم، ثم انصرف[1].

* * *

(٢٣)ـ أَوْسِمَة عكاظ:

ذكر الطبريُّ في رواية مُسْندةٍ إلى أبي بكر الهُذَليّ أنه قال: سِرتُ مع أمير المؤمنين المنصور إلى مكة، فعَرَضَ لنا رجلٌ على ناقةٍ حمراء، وعليه جُبَّةُ خَزٍّ، وعمامةٌ عَدَنيَّةٌ، وفي يَدِهِ سَوْطٌ يكاد يمسُّ الأرضَ، سَرِيُّ الهيْأَة، فلما رآه المنصورُ، أَمَرني أن أدْعوهُ، فدَعوْتُه له، فجاء، فسأله عن نَسبِهِ وبلاده وبادِيَةِ قومه، فأحْسَن الجوابَ، وأعْجبَ أميرَ المؤمنين، فقال له: أنْشِدْني مما تحفظ من الشِّعْر، وحَدِّثْني! فأنشدَهُ وحدَّثَهُ، حتى أتى على شعرٍ لطريف بن تميم العنبريّ، أحَدِ فُرْسَانِ بني تميم في الجاهلية، قال فيه:

---

(١) الأغاني: ٢٠/٣٤٦، ٣٥٠.

يتقنَّعُ، وكان يُسَمَّىٰ: «مُلْقي القِناع»، لأنه أوَّلُ من أَلْقَى القناعَ بعُكاظ، غيرَ مُبالٍ أن يُثْبِتَ عَيْنَه جميعُ فرسان العرب، وكانوا يكرهون أن يُعْرَفوا، فلا يكون لأعدائهم هَمٌّ غيرهم.

ولمَّا وافَى طريفٌ عُكاظاً في أحد مواسمها، وكان قد قتل شَراحيلَ الشيبانيَّ، فارسَ بني ذُهْل بن شيبان، جاء حَمَصِيصَةُ بنُ جندل الشيباني[١]، وكان شابّاً، قويّاً، شجاعاً، وشاعِراً من فصحاء الشعراء في الجاهلية، فقال: أَرُوني طريفاً! فأرَوْهُ إياهُ، فجعل كلما مرَّ به ينظر إليه، ويتأمَّلُه، فسأله طريفٌ: لم تَشُدُّ نَظَرَك إليَّ؟ فقال: أريد أن أُثْبِتَك[٢]، لعلِّي أَلْقاكَ في جيشٍ فأقتُلَكَ! فدَعا طريفٌ: اللهمَّ لا تُحِلِ الحَوْلَ حتى ألقاهُ، ودعا حَمَصِيصَةُ مثلَهُ، فقال طريف:

أَوَ كلَّمــا وردت عكــاظَ قبيلــةٌ	بعثــوا إلــيَّ عــريفَهــم يتــوسَّــمُ[٣]
فتــوسَّمــونــي، إننــي أنــا ذاكُــمُ	شاكٍ سلاحي في الحوادث مُعْلِمُ[٤]
تحتــي الأغــرُّ وفــوق جلــدي نَثْـرةٌ	زَغْـفٌ تــردُّ السيـفَ وهــو مُثَلَّــمُ[٥]

ثم قُتِل طريفٌ بعد ذلك في معركةٍ، كانت الغَلَبَةُ فيها لبني شيبان على

---

(١) الحَمصِيصَة: بَقْلةٌ طيِّبةُ الطعم، رَمْليَّة، حامِضَةٌ، تُجعَلُ في الأقِط وتُؤكل معه.

(٢) أثْبَتَهُ: نظر إليه ليعرفَه حقَّ المعرفة.

(٣) يتوسَّم: يتفرَّس ويطلب الوسم وهو العلامة.

(٤) شاك سلاحي: تامُّ السلاح. المُعْلِم: الذي شهر نفسه في الحرب بعلامة يُعرف بها. وكان هذا شأن الفرسان. وكان حمزة بن عبد المطلب يوم بدر مُعْلماً نفسه بريشة نعامة حمراء. وكان الزبير بن العوام يُعْلم نفسه بعمامة صفراء.

(٥) الأغرُّ: اسم فرسه. النثرة: الدرع الجيدة النسج. زغفٌ: واسعة لينة.

(٢٨)ـ أخذ عار الدَّهرِ بثَوْبَيْن:

جاء في قِصَّة المثَلِ العربيّ الجاهليّ: «أخْسَرُ صَفْقةً من شيخ مَهْوٍ»، أن بني مَهْو بطنٌ من قبيلة عبد القيس، وأن الشيخَ هو عبدُ الله بنُ بَيْدَرة، من بني مَهْوٍ، وفي أخبار عكاظ، أن قبيلة إيَادٍ كانت تُعَيَّر بالفَسْوِ[1]، وتُسَبُّ به. وربما كان ذلك ناشِئاً، كالعادة عند العرب، من هجاء شاعرٍ لأَحَدِ بني إيَاد، فصارتِ القبيلةُ كلُّها في ذلك سواء. فقام رجُلٌ من إيَاد في موسم عكاظ، ومعه بُرْدَا حَبَرَةٍ[2]، ونادى: يا قومُ، ألاَ إني من إيَاد، فمن يأخذُ عارَ الفَسْوِ منا ببُرْدَيَّ هذين؟. . . فقام عبدُ الله بنُ بَيْدَرة، وقال: أنا أفعلُ، فهاتِهما! فأخَذَهما، فاتَّزَرَ بأحدهما، وارْتَدَىٰ الآخَر. وأَشْهَدَ الإيَادِيُّ عليه أهل عكاظٍ، بأنه أخَذَ من إيَادٍ لعبد القيس عارَ الفَسْوِ بِذَيْنَكَ البُرْدَيْنِ، فشَهِدوا على ذلك!.
ولـمَّا رجعَ عبدُ الله إلى قومه، سُئِل عن البُرْدَيْن، فقال: أخذتُ لكم بهما عارَ الدَّهر! وفي هذا يقول شاعِرُ عبدِ القيس:

إنّ الفُسَـــاةَ قبلَنـــا إيَـــادُ ونحـــن لا نَفْسُـــو، ولا نكـــادُ

وذكر أحَدُ الشعراء هذه الحكاية، فقال:

يا مَن رأى كصَفْقَةِ ابن بَيْدَرَهْ من صفقةٍ خـاسِـرَةٍ ومُخْسِـرَهْ
المشتري العارَ بِبُرْدَيْ حَبَرَهْ شُلَّتْ يمينُ صافِقٍ ما أَخْسَرَهْ

وقد تفرَّقَتِ العربُ يومئذٍ، وعلى لسانهم هذا المثَلُ: «أخْسَرُ صَفْقَةً من

---

(١) كانت العربُ تهجو من يَفْسُو، وتُعَيِّرُ به، خلافاً للإنكليز! وقديماً قال الشاعر يهجو مُنافقاً:

لا تُسَبِّــحْ فمــا عليــكَ جُنَــاحٌ جَعَــلَ اللَّــهُ بيــن فكَّيْــكَ دُبْــرا
أنــتَ تَفسُــو إذا نطقــتَ ومَــن سَبَّــحَ بــالفَسْـوِ نـال إثْمـاً ووِزْرا

(٢) الحَبَرَةُ: ج حَبَرات، نوعٌ من ثياب اليمن مُوَشَّىً ومُنَمَّرٌ.

كلِّ أقْرانِهِ إذا صارعَهم[1]، فقد حَذِق من أوَّلِ فُتُوَّتِهِ المصارعةَ، وركوبَ الخيل، والفُروسيَّةَ، واعتاد غِشْيانَ عكاظ مُبكِّراً، يلعبُ مع أتْرابه، ويَزِعُ الصبيانَ بعَصَاهُ، وهو ما كان الناسُ لا يزالون يَذْكرونه له حتى صار أميراً للمؤمنين[2].

ومن شأن ما قَدَّمنا، في هذا الجانب، أن يُوضِحَ ما كان يكونُ بعُكاظٍ في مواسمها من فنون الرياضة والفُروسيَّة، لم تتأخَّرْ في ذلك عن سائر المواسم العالميَّةِ الكبرى.

* * *

(٣٠) ـ الكشفُ بعكاظ عن قاتلٍ يُشْعِلُ حَرْباً:

كان زهيرُ بنُ جذيمةَ العَبْسِيُّ أميرَ بني عَبْسٍ في زمانه، ورئيسَ قبائلِ غَطَفان[3]، وقد كانت تُؤدِّي الإتاوةَ كلَّ سنةٍ إلى بعض ملوك اليمن، فخرجتْ في أيامه عليهم، واستقلَّتْ عنهم. وكانت هوازِنُ[4]، في عِدادِ القبائل التي اعترفتْ بسيادة زهير عليها، وعَدَّتْهُ رَبّاً، فكانت تهابُه حتى العِبادة، ولم يكن معظمُها يومئذٍ أكثرَ من رُعَاةٍ في الجبال والبوادي، ولم يكن بنو عامر بن صَعْصَعَة قد كَثُروا فيها. وقيل إن زهيراً بلغ من السُّؤْدَدِ والشرف ما جعله كالمَلِك في تلك القبائل، فكانت تُخْرِجُ له من أموالها قدراً معلوماً، وتُؤَدِّيه إليه كلَّ سنةٍ، بعدما تُجْنَى الثمَارُ، وتُجْمَعُ الغَلَّات... فإذا كان موسمُ

---

(١) محمد حسين هيكل ـ الفاروق عمر: ٣١، ٣٨.

(٢) أسواق العرب في الجاهلية والأسلام: ٢٨٤، وخالد محمد خالد ـ خلفاء الرسول: ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٣) غطفان بن سعد: من قيس بن عيلان، وأشهر قبائلهم: عَبْسٌ وذُبْيان وفزارة...

(٤) هوازن بن منصور: من قيس بن عيلان، أشهر بطونها بنو عامر بن صعصعة، وجُشَم، ونصر، وثقيف.

بثأره، فخاف خالدٌ على نفسه القتلَ، ومكث على ذلك بُرْهةً من دَهْرِهِ[1]، ثم قَصَدَ الحيرةَ، واسْتَجار بملكها، فأجارَهُ، وأنْزَلَهُ في قُبَّةٍ بجواره... فتَعهَّدَ الحارثُ بن ظالم المُرِّيُّ بعدئذٍ لبني زهير بقتل خالد، على أن تكُفَّ غَطَفانُ عن حرب هوازن. وكان خالدٌ استحقَّ عداوةَ الحارث، لأنه أغَارَ على رَهْطِهِ بني مُرَّةَ بنِ عَوْفٍ، من ذبيان، فأصابتْ أباهُ في الغارة جِرَاحٌ، هَلَك منها، والحارثُ يومئذٍ غلام.

فسار الحارثُ في أثَرِ خالد، حتى أدْرَكَهُ بالحيرة وهو في جِوَار الملك، فجرى بينهما حِوَارٌ قال فيه خالد: أتُنَازِعُني يا حارثُ وقد قتلتُ حاضِرَتَك، وتركتُك يتيماً في حُجُورِ النساء! فقال الحارثُ: ذلك يومٌ لم أشْهَدْهُ، وأنا اليومَ مُغْنٍ بمكاني... قال خالد: فَهَلاَّ تشكرُ لي إذ قتلتُ زهير بنَ جذيمة، وجعلتُك سيِّد غطفان؟ قال: بلى، سوف أشكرك على ذلك! ثم خرج الحارثُ، ولمَّا هبط الليلُ، تسَلَّلَ إلى خيمة خالد، وقتله غيرَ مُبالٍ بحُرْمة الملك، فأصبح بين فريقين يطلبانه للثأر منه، ملك الحيرة يطلبه ليقتلهُ بجاره، وهوازنُ تطلبه لِتَقتلَهُ بسيِّدها، فانطلق هارباً، وتنقَّل في عدد من أحياء العرب، مُسْتجيراً بهم. ولمَّا أجارَهُ بنو دارمٍ، أرسل الملكُ لقتالهم، فاستعدُّوا له، وانضمَّ إليهم قيسُ بن زهير في جمع من بني عَبْس، وذبيان، فانضمَّ إلى أنصار الملك أحْياءٌ من هوازن، والْتَقَى الجَمْعانِ بوادي رَحْرَحَان، قربَ عكاظ، ودار القتالُ بينهما شديداً، فانهزم أنصار الملك ومعهم بنو هوازن، وسُمِّي ذلك اليومُ يومَ رَحْرَحَان[2].

---

(١) البرهة: المدَّةُ الطويلة.

(٢) الأغاني: ١١/٨٩ ـ ١٠٧، والعقد الفريد: ٥/١٣٩ ـ ١٤٠، والمحبَّر: ١٩٢ ـ ١٩٣، ومجمع الأمثال: ٢/٤٩، ٣٤٠، والكامل في التاريخ: ١/٥٥٩ ـ ٥٦٠، وأيام العرب في الجاهلية: ٢٤٢ ـ ٢٤٤، والعرب قبل الإسلام: ٣١٦ ـ ٣١٩.

ثم قيل للملك: إنك لن تُصِيبَهُ بِمُصَابٍ أشَدَّ عليه من سَبْيِ جاراتٍ له، فبعث الملكُ في طلبِهنَّ، فاسْتاقَهُنَّ وأموالَهُنَّ. فعلم الحارثُ بالأمر، فكَرَّ راجعاً من وَجْهِ مَهْرَبِه، وطَفِق يبحثُ عن مَوْضِعهنَّ حتى دُلَّ عليه، فأتاهُنَّ، واسْتَنْقَذَهُنَّ، وألْحَقَهُنَّ بقَوْمِهِنَّ[1]. ثم مضَىٰ إلى باديةٍ يُرَبَّىٰ فيها ولدٌ للملك، اختلف الرواةُ في اسْمِهِ، فاحتال حتى قَتَلَهُ[2]... وانطلق هارباً، يطوفُ في البلاد حتى أتى مَشَارِفَ الشام، فاسْتَجارَ بأحَدِ ملوك بني غسَّان[3]، فأجارَهُ، وأكْرَمهُ. وكانت للملك ناقةٌ، عليها علامةُ حمايةِ الملكِ لها، فلا يَقْرَبُها أحدٌ. فَوَحِمتِ امْرأَةُ الحارثِ، واشْتَهَتْ في وَحَمِهَا شحماً ولحماً، فعَمَد الحارثُ إلى تلك الناقة، فنَحَرَها، وحَمَل إلى امرأته من لحمِها وشَحْمِها ما أرادت... ثم فُقِدَتِ الناقةُ، فأرسل الملكُ إلى «الخِمْسِ التغلبيّ»، وكان كاهِناً يُسْألُ عن المُغَيَّباتِ، فسأله عن الناقة، فأخبره بأن الحارثَ هو صاحِبُها! فَهَمَّ به الملكُ، ثم تَذَمَّمَ من ذلك، فلم يفعلْ به شيئاً، فأوْجَسَ الحارثُ في نفسه شرّاً، وقيل إنه أَتَى الخِمْسَ ليلاً فقتلهُ، فما لبِثَ الملكُ حتى دعا به، وأمَرَ بقتْلِهِ، فقتَلَهُ ابنُ الخِمْسِ بثأر أبيه[4]... ولا أظنُّ الحارثَ كان ساذَجاً حتى يبقى قريباً من الملك، رُغْمَ قَتْلِهِ الخِمْسَ، والأَرْجَحُ عندي أنه انطلق وقتئذٍ إلى مكة، كما في بعض الروايات، ولحِق بأهلها، فأقام بينهم مُجاوِراً لهم، «حتى أتاهُ أمانُ ملكِ الحيرة، النعمانِ بن المنذر»[5]، فلما

---

(١) الأغاني: ١١/ ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) الكامل: ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

(٣) قيل: إنه يزيد بن عمرو، توفي سنة (٦٠٨ م).

(٤) العقد الفريد: ٥/ ١٤٦ ـ ١٥٠، والأغاني: ١١/ ١١٢ ـ ١١٣، والكامل: ١/ ٥٦٥، والمفضّل: ٣/ ٢١٠ ـ ٢١١.

(٥) أنساب الأشراف: ٤٣.

فدعوةُ الناس إلى الإيمان بالله، ووَعْظُهم بالحِكمة والمواعِظِ الحسنة، وإنْهابُ المالِ طلباً للمجْدِ، والكشفُ عن قاتل، ورَدُّ سَبِيَّةٍ إلى أهلها، ومُفَاداةُ الأسْرَى أو البحث عنهم، وتأمينُ الخائفين، وإغاثةُ الملْهُوفين، والتنافُسُ في ألعاب الفروسيَّةِ والمصارعةِ، وعُهودُ المحبِّينَ، ومجالسُ التفاخُرِ والتنافُرِ وامتحانِ البديهة، والعِرافَةُ، والمُعَاظَمةُ، والمُقَارَعَةُ عن الحَسْناوَات، وإذاعةُ المكْرمات، والخَلْعُ من القبيلة، ورفعُ راياتِ الوفاء وراياتِ الغَدْرِ، وحِيَلُ الصعاليك، وجِبَايَةُ الإتاواتِ المستحقَّةِ لزعماء العرب... هذه الأُمورُ، وأشياءُ أُخْرى غيرُها، مما كان يجري بعُكاظ، تدخُلُ كلُّها في وجوه الحياة الاجتماعية، وتُعطي هذه السوق بُعْداً، كان له أكبَرُ الأثَرِ في الوحدة اللغويّة، واتّجَاهِ العرب نحو الوحدة القومية، فالشعورُ بالعربية، كما قال العقاد: و«الفخرُ باللسان العربيّ مُقَدّمةٌ لا بُدَّ منها للدعوة، التي تُواجِهُ العربَ بآيةِ البلاغة في القرآن الكريم، وتَرُوعُهم بالمعجزة التي يَحْكُونَها إن استطاعوا أو يَحْسَبُونَها من قدرةِ الله. ومثلُ هذا التحدِّي بالبلاغةِ، لا يحدُثُ في أُمَّةٍ، لم تتأصَّلْ فيها مَفْخَرَةُ اللسانِ العربي، والوحدةِ العربية...»[1]. وسَيَتَأكَّدُ لنا هذا المذهبُ في كلامنا على المَجْمَعِ اللغويّ والأدبيّ، الذي كان يَنعقِدُ للعرب، في كل موسم من مَواسم عكاظ، زمَنَ الجاهلية المُتَأخِّرة.

(١) عباس محمود العقاد ـ مطلع النور: ٧٦.

الفصل الرابع

عكاظ المجْمَعُ اللغويُّ والأدبيُّ للعرب

عكاظُ التي كانت للعرب مَعْرِضاً تجاريّاً عامّاً، ومَحْفلاً اجتماعياً واسعاً، كانت كذلك مَجْمَعاً لُغَويّاً وأَدبيّاً، اهتَدىٰ العربُ بها إلى تهذيبِ لُغتهم في ألفاظها وعباراتها، وإلى جَعْلِ لغةِ الشعرِ والخطابة لغةً واحدةً بين معظم قبائلهم... بل كان لعُكاظِ والمواسم الأُخرى دورٌ أعظمُ من هذا، فهي تأتي على رأس الأسْبابِ التي أَفْضَتْ إلى الوحدة اللغويَّة بين قبائل العرب، قبل الإسلام.

وفي ذلك يقول الشيخ أحمد رضا: «... ولَعَلِّي إذا قلتُ، إنَّ أكبرَ هَمٍّ لهم في هذه الأسواق، يكادُ يَنحصِرُ في تَخَيُّرِ اللغة، وتَهْذيبِها عَمَلاً لا قَوْلاً، لم أَجِئْ بالغريب من القول، وعلى الأخَصِّ منذ كانت هذه الأسواقُ مجالسَ للتحدُّثِ بأيّامهم، وحُروبهم، ونوادِيَ يَتبارَىٰ فيها خُطَباؤُهم وشُعَراؤُهم... وقد كان في عكاظٍ إجْماعٌ على أن كلَّ كلمةٍ تُقالُ، أو خُطْبةٍ تُلْقَى، أو قصيدةٍ تُنْشَدُ، لا تَتَّصِلُ بالفصاحة بسببٍ، لا ينقلُها أحدٌ، ولا يَرْويها راوٍ، ولا يَحْفَظُها حافِظٌ»[1].

وفي مثل ذلك قال بروكلمان: «... وإلى هذه الأسواق، وبالتالي إلى الدِّين بشكلٍ غير مباشر، يعودُ معظمُ الفَضْلِ في تَوْحيدِ نظرة العرب

---

(١) معجم مَتْن اللغة: ١/ ٤٢.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1]، كما قال تعالى، واللسانُ العربيُّ لغةُ كلِّ العرب، لا لغةَ بعضِهم فقط، أو لسانَ قريشٍ خاصَّةً... ولو كان القرآنُ نزلَ بلسَانِ قريشٍ فقط، لما احتاج الفقهاءُ إلى شِعْرِ كلِّ قبائل العرب، وما أُثِر من أقوالهم، للاسْتِعَانَةِ به على فَهْم المُشْكِل والغريبِ من مُفْردات القرآن، وإنما كان حَسْبُهمُ الرجوعَ إلى شِعْرِ قريشٍ وكلامِهم دون غيرهم! ولا بُدَّ أن يُذكرَ في هذا المقام أن الفصاحةَ في بني سعد، من هوازن، كانت أَعْلا مما هي عليه في قريشٍ، وهم الذين استرضَعَ فيهم رسولُ الله، ونشأ بينهم، وكان كثيرون من غِلْمانِ قريش يُرسَلُون إليهم لتعلُّم الفَصاحةِ واللغةِ السَّليمة، إذ كانوا أهلَ بادِيَةٍ، وأبْعَدَ عن الاختلاط بالغرباء[2].

إن توحيدَ اللغة العربية، قبل الإسلام، كان أكبَرَ من أن تَختصَّ به قريشٌ دون سائرِ جيرانها، لأنه ثمرةُ جُهدٍ مُشْتَرِكٍ، بَذَلَتْهُ في المجامع العامَّة الكبرى، كموسم عكاظ، قبائلُ اشتُهِرتْ بالفصَاحةِ والبيان، كبني تميم... ذلك أن «لهجةَ تميمٍ قد أمَدَّتِ العربيةَ الفُصْحَى، برَوافِدَ غنيَّةٍ غزيرة، ساعدتْ على استقرارِ نَحْوِها وصَرْفِها، وسعةِ اشتقاقها، وبُعْدِ دَلاَلاتها، وانْبِسَاطِ مَدْرَجِها الصَّوْتيّ، وحياةِ عددٍ كبيرٍ من مُفْرداتها... وإن تميماً تُشَارِكُ قريشاً بنصيبٍ كبير من خصائص العربية، ومُميِّزاتها، وإن إغْفَالَ دوْرِ تميم في هذا، إنما هو تهاوُنٌ بجُزءٍ لا يَتَجزَّءُ من لغتنا العربيّة الفُصْحَى»[3].

ومع اعترافِ الرافعيّ، بأن «الدَّوْرَ العُكاظيَّ» في تهذيب اللغة كان من أحوال الحضارة، فاقْتضَى الصناعةَ اللسانيَّةَ، وبلغتْ به العربيَّةُ درجةً عاليَةً من

---

(١) سورة الشعراء: ١٩٥.

(٢) المفصَّل: ٨/٦٦٩.

(٣) دراسات في فقه اللغة: ١٠٣ ـ ١٠٤.

المنطق الفصيح، لكنه، من طرَفٍ آخرَ، عَدَّهُ آخِرَ أدوار التهذيب اللغويِّ، التي اضْطَلَعتْ بها قريشٌ، من حيث كانت تُبَالِغُ في انتقادِ اللهجات، وانتقاءِ الأَفْصَح من مُفْرداتها[1]. . . وإذا كان الدورُ الأخير في تهذيب اللغة دَوْرَ عكاظ، فكيف تسَنَّىٰ لقُرَيْشٍ فيه، أن تقفَ وحدَها بوجه العرب جميعاً، تنتقدُ لهجاتهم، وتنتقي منها الأَفْصَحَ، ثم تُذيعُه في الناس، فيستعملوهُ في أحاديثهم وخُطَبِهم وأشعارهم؟ مع أن قريشاً، كما ثبت لنا بالتحقيق، لم تكن تملكُ من أمور عكاظ شيئاً، بل كانت مِمَّن يَؤُمُّونها في مواسمها، كسائر القبائل والتجّار. والسوقُ تقعُ في ديار هوازِنَ بِعَاليَةِ نَجْدٍ، في جِوارِ ثَقيفٍ بالطائف، فلم يكن لقريش فيها سلطانٌ، بل منافِعُ تسعى إلى تحصيلها! ورئاسةُ الموسم، والقضاءُ فيه بين الناس، حتى الإمَامَةُ في مواسم الحجِّ، كانت كلُّها بأيدي بني تميم، وبعضُها في بني عَدْوان. والحكومَةُ في الشِعْر بين الشعراء كانت، في هذا الدوْرِ الأخير، للنابغة الذبْيانيِّ، ولم تكن لقريش. . . ويُرْوَى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب قال للوفد الذي قَدِم عليه من غَطَفَان: من الذي يقول

حَلَفتُ، فلم أترِكْ لنَفْسِكَ رِيبَةً ... وليس وراءَ اللّهِ للمرءِ مَذْهَبُ

قالوا: نابغةُ بني ذبيان! قال: فمَن الذي يقولُ هذا الشعرَ:

أَتَيتُكَ عارِياً خَلَقاً ثيابي ... على وَجَلٍ تُظَنُّ بيَ الظنُونُ
فأَلْفَيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها ... كذلك كان نُوحٌ لا يَخُونُ

قالوا: هو النابغةُ! قال: هو أشْعَرُ شعرائكم[2]. . . ويُروَى أنه كان في

---

(١) مصطفى صادق الرافعي ـ تاريخ آداب العرب: ١/٨٧، ٩٥.
(٢) العقد الفريد: ٥/٢٧٠.

فقالوا: هذه سِمْطُ الدَّهر[1]، ثم عاد إليهم العامَ المُقْبل، فأنشدهم:

طَحَا بكَ قلبٌ في الحِسَانِ طَروبُ بُعَيْدَ الشبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

فقالوا: هاتان سِمْطا الدَّهْر[2]... جاءت هذه الإشارة في الأغاني، إلى إشارة أخرى مُخالِفَةٍ قيل فيها: «كانت العربُ تُقِرُّ لقُريشٍ بالتقدُّم في كل شيءٍ عليها إلا في الشعر، فإنها كانت لا تُقِرُّ لها به، حتى كان عمر بنُ أبي ربيعة، فأقَرَّت لها الشعراءُ بالشِّعْر أيضاً، ولم تُنازِعْها شيئاً»[3]... ومن شأن هذا كله أن يَضَعَ دَوْرَ قريش قي تهذيب لغة العرب، في الجاهلية، حيث يجب أن يكون، إلى جانب أدوار غيرها من القبائل أمثال: تميم وإيَاد وأسد وقيس، ممَّن اشتُهِرت أيضاً بالفصاحة وصناعة الكلام... وإذا أخذنا بما ذكره إبنُ منظور من حديث ابن مسعود: «فلما وضعتُ رِجْلي على مُذَمَّرِ أبي جهل قال: أعْلِ عَنِّجْ، أي تَنَحَّ عني، وأراد بعَنِّجْ عني، وهي لغة قومٍ يقلبون الياءَ في الوقف جيماً»[4]، وهي من عيوب النطق، فإنَّ لنا أن نتساءل: أكانت العَجْعَجَةُ في قضاعة أم في بني مَخزوم؟

والحقيقة، إذا كان الدورُ البارزُ في تهذيب العربية دَوْرَ عكاظٍ، وهو كذلك حقّاً، فإننا لا نستطيع نِسْبَتَهُ إلى جماعةٍ مَخْصُوصَةٍ، فليس في أخبار عكاظ، كما رأيناها، ما يحصرُ فعلَ التهذيب بقريشٍ، أو بغيرها من قبائل العرب، وإنما كان تهذيبُ العربية، وتوحيدُها، وارْتِقاؤها نتيجةَ عملٍ جماعيّ، أسْهَمتْ فيه طوائفُ العرب المختلفةُ، التي كانت تجتمعُ بعُكاظٍ ومواسِمِ الحجِّ، ثم غلبتْ عليه لهجةُ الحجاز ونَجْد، ونشأتْ بذلك لغةٌ أَدَبيَّةٌ

(١) السِّمْط: هو الخيطُ ما دام اللؤلؤ منتظماً فيه.

(٢) الأغاني: ٢١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٨٣.

(٤) لسان العرب: ١٥/ ٨٦ (علا).

أبـا هنـدٍ فـلا تَعْجَـلْ علينـا وأَمْهِلْنـا نُخَبِّـرْك اليقينـا
بـأنـا نـوردُ الـرَّايـاتِ بيضـاً ونُصـدِرُهُـنّ حُمْـراً قـد رَوِينـا

وأَحَبَّ أن تَسِيرَ في الناس، ويُكتَبَ لها الخُلودُ، سَعَى إلى سوق عكاظ، وقام بها خطيباً في أحد المواسم[1]، فأُعْجِبَ الناسُ بها، وتلقَّاها الرواةُ، ونقلوها إلى قبائل العرب. والقولُ نفسُه يمكنُ قولُه في سائر المُعلَّقات الطِوَالِ، فما كان الإجماعُ لِينعَقِدَ على فَوْزِها بالسَّبْق، لولا أنها أُعْلِنَتْ على المَلأِ في عكاظ، وشَهِدَ لها المُحَكَّمونَ والنقَّادُ بالجَوْدَةِ والتفوُّق، ولولا أنها صِيغَتْ بلُغَةٍ أدبيَّةٍ مِثاليَّةٍ، يَفْهَمُها العربُ جميعاً، بمُخْتَلِفِ لهجاتهم، وليس فئةً مخصوصةً منهم.

وكان ذلك شأن سائر الشعراء، فهذا أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ الخُزَاعيُّ، يهجو حسَّانَ بنَ ثابت، ويُمْعِنُ في قَدْحِه بقصيدةٍ، لا تَشْفِي غَليلَهُ، إلا إذا دَبَّتْ إلى عكاظ، فتَقبَّلَها العربُ قَبولاً حَسَناً، وانتشرتْ في مَجَامِعِهم:

ألاَ، مَـنْ مُبْلِـغٌ حَسّـانَ عنـي مُغَلْغَلـةً تـدبُّ إلـى عُكـاظِ
أليـسَ أبـوكَ، فينـا، كـان قَيْنـاً لدىٰ القَيْناتِ، فَسْلاً في الحِفاظِ[2]
يمـانِيّـاً، يظـلُّ يَشُـدُّ كِيـراً وينفُـخُ دائمـاً لَهَـبَ الشُّـواظِ[3]

فيَرُدُّ عليه حسَّان بقصيدةٍ، يريدُ لها كذلك أن تَنْتَشِرَ في المجامع من عكاظ:

أتـانـي عـن أُميَّـة زُورُ قَـوْلٍ وما هو في المَغِيب بذي حِفَاظِ

---

(١) الأغاني: ١١/٤٨.
(٢) القَيْن: الحدّاد، وكل صانع عند العرب قين. **الفَسْلُ والمفسول**: من الرجال، الرديء.
(٣) الكِيرْ: كيرُ الحدّاد الذي ينفخ به النار.

المطلب الثالث ـ الحُكُومَةُ بين الشُّعَراء:

كان للعرب في سوق عكاظ قُضَاةٌ للشِّعْرِ، أو حُكَّامٌ يتحاكمُ إ
الشعراءُ، تُضْرَبُ عليهم قبَابٌ حُمْرٌ من أَدَمٍ، تكريماً لهم. فيَتَقدَّم منهم ش
كلِّ قبيلةٍ، فيَعْرِضُ عليهم جديدَ ما قاله من الشِعْر، فما اسْتَجادَهُ القضاةُ
الجيِّدُ، وما حكموا بضَعْفِهِ فهو الرَّكيكُ...

وكان ينتشِرُ حول هذه القباب رُوَاةُ الشِعْر، وأبناءُ القبائل من الر
والنساء، قَدِمُوا إلى عكاظ، ومع كل قومٍ شاعِرُهم، يستمعون إلى ما
للموسم الجديد، وينتظرونَ حُكمَ القضاءِ فيه، فما يكادُ القاضي يُ
حُكمَهُ، حتى يتناقلَ الرواةُ والناسُ المجتمعون القَصِيدةَ الفائزة، وينشد
في أَحْياءِ العرب، فتَلْهَجُ بها الأَلْسُنُ في الحَواضِرِ والبوادي، وتَسِيرُ لصا
شهرةٌ بين القبائل، تُشَجِّعُهُ، وتُغْري غيرَهُ من الشعراء بنَظْم القص
وإنشادِها في الأسواق والمواسم، تخليداً للذِّكْرِ، أو طلباً للشهرة... و
ذلك كان الشاعِرُ الفائزُ ما يلبث حتى يُصْبحَ شاعِرَ القبيلة، المُتكلِّمَ باسْ
والمُدَافِعَ عن حُقوقها... ومن شأن هذا أن يُطْلِعَنا على أمرين في ،
شعراء الجاهلية.

الأول: أن الشِعْرَ الجاهليَّ كان يقوم على الصَّنْعة، فلم يكن ال
يقولُ شِعْرَهُ ارْتجالاً، أو عَفْوَ الخاطِرِ، وإنما كان يَعْكفُ على نَسْجِهِ، و
فيه رأيهُ، يُجَوِّدُه ويُزَوِّقُهُ، يُرقِّقُهُ أو يجعلهُ جَزْلاً. ومن مظاهرِ الصَّنْعةِ
كانوا يُطلِقُون على الشعراء ألقاباً، تُصوِّرُ مقدارَ ما أحْسَنُوا صُنْعَهُ في شعر
أو ما سبقوا إليه من القول فمَهرُوا فيه[1]. ومن ذلك مثلاً أنهم مَنَحُوا عَدِ

---

(١) د. شوقي ضيف ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ١٣ ـ ١٤، ٢٣.

ربيعة التغلبيَّ لقَبَ «المُهَلْهِل»، لما ظهر في شعره من الرِقَّة[١]. كما مَنَحُوا زيادَ بنَ مُعَاوية الذبيانيَّ لقَبَ «النابغة» لتفوُّقِهِ ونُبوغِهِ في الشِعْر[٢]، ومَنَحوا عمرو بن مالك، من قيس بن ثعلبة، لقبَ «المُرَقِّش» لقوله:

الـدارُ قَفْـرٌ، والـرُّسُـومُ كمـا   رَقَّشَ في ظهر الأَدِيم قَلَمْ[٣]

فكأنما كان هنالك ذَوْقٌ أدبيٌّ عامٌّ في مجامع العرب، يدفعُ الشعراءَ والخطباءَ إلى تجويد أقوالهم، وصَقْلِها، وتهذيبِها، عَمِلَ على نَشْأَتِهِ ونَمائِهِ النشاطُ الأدبيُّ واللغويُّ في المواسم الكبرى، ولا سيما منها عكاظ، حيث كان الخطباء والشعراءُ، يتبارون فيها، وكلٌّ يريدُ أن يَنتزِعَ وسامَ السَّبْق على أقرانِهِ، عند أهل الموسم[٤].

والثاني: أن المعنى الحقَّ لشاعر القبيلة في العصر الجاهلي، هو أنه كان يَشْغَلُ فيها وظيفةً ذاتَ خَطَرٍ، هي وظيفةُ الشاعرِ العامِّ، مَثَلُه في ذلك مَثَلُ فارسِ القبيلة، يَذُودُ عن حِمَاها، ويُدافِعُ عنها، ويفتخرُ بأمجادها، وقلَّما كان شاعرُ القبيلة يتحدَّثُ عن نَفْسِهِ إذا افتخر، وإنما كان يتحدَّثُ بضمير الجماعة التي يُمثِّلُها، ويَعْتزُّ بانتمائه إليها[٥]... ومن هنا كان تَفوُّقُ الشاعر على

---

(١) **المُهَلْهِلُ**: أبو ليلى، عَدِيُّ بن ربيعة، من بني جُشَم، من تَغْلِب. شاعر من أبطال العرب في الجاهلية، لُقِّبَ مُهَلْهِلاً، لأنه أولُ من هَلْهَلَ نَسْجَ الشعر، أي رقَّقَهُ. وكان من أصْبَحِ الناس وجهاً، ومن أفْصَحهم لساناً. عكف في صِبَاهُ على اللهو والغزل، فسمَّاهُ أخوه كُلَيبُ بنُ ربيعة «زِيرَ النساء» أي جَليسهنَّ. ولمّا قَتَلَ جسَّاسُ بنُ مُرَّة أخاهَ كليباً ثار المهلهلُ، وانقطع عن الشراب واللهو، وأقسم أن يثأر لأخيه، فكانت وقائع بكر وتغلب المشهورة، التي دام النزاع فيها أربعين عاماً. توفي نحو سنة (٥٢٠ م).

(٢) وقيل: بل لقوله: «فقد نَبَغَتْ لهم منَّا شُؤونُ...» ـ الأغاني: ١١/٣.

(٣) لسان العرب: ٦/ ٣٠٥ (رقش)، وجاء فيه أن المرقّش من بني سدوس، وهو غلط.

(٤) د. شوقي ضيف، البلاغة تطورٌ وتاريخ: ١٠ ـ ١١.

(٥) انظر كتاب بنت الشاطىء ـ قِيَمٌ جديدة للأدب العربي: ٣٤ ـ ٣٧.

عَــرَفْــتُ مَنــازِلاً بعُــرَيْتِنــاتٍ فَــأعْلَــىٰ الجِــزْعِ، لِلْحَــيِّ المُبِـنِّ[١]

فما كاد حَسَّانُ بنُ ثابت يستمعُ إلى مَطْلَعِ القصيدة، حتى أسرع يقول: هَلَك الشيخُ! فقد رأيتُه تَبعَ قافِيَةً مُنكَرَةً. ولكنَّ النابغةَ اسْتمرَّ في إنْشَادِ قصيدته، وهو على مَوْقفِهِ في مَوْضِعه، فما زال يُنْشِدُ حتى أتَىٰ على آخِرِها، فكانت من أرْوَعِ شِعْرِهِ، وأشْجَاهُ نَغَماً، وأكْمَلِهِ أداءً... فأُعْجِبَ بها حسَّانُ أشدَّ الإعجاب[٢]... ومما قاله النابغةُ في هذه القصيدة:

تَعَــاوَرَهُــنَّ صــرْفُ الــدهــرِ حتــى عَفَــوْنَ، وكــلُّ مُنْهمــرٍ مُــرِنِّ
وَقَفْتُ بها القَلوصَ، على اكْتِئابٍ وذاك تَفــارُطُ الشَّــوقِ المُعَنِّــي
بكــاءُ حَمــامــةٍ، تــدعــو هــديــلاً مُفجَّعــةٍ علــى فَنَــنٍ تُغنِّــي
أَلِكْنــي يــا عُيَيْــنُ، إليــكَ قَــوْلاً ســأُهــديــه إليــكَ، إليــكَ عنّــي[٣]

* * *

(١) عُرَيْتِناتٌ وأعلى الجِزْع: إسمان لموضعين. المُبِنّ: المقيم بهذه المنازل المرتفعة. يذكر المنازلَ التي كان يقيم أحبابه فيها.

(٢) الأغاني: ٣/ ١٠، والنابغة الذبياني للعشماوي: ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٣) تعاورهُنَّ: تداولهنّ وتعاقب عليهن. صرفُ الدهر: أحداثه. عَفَوْن: ذهبتَ آثارُها ودَرَسَتْ. المنهمرُ المُرِنُّ: المطر ذو الرعد. يقول: إن أحداث الدهر، وكلَّ مُنْهمِرٍ من السماء، تعاقبت على هذه المنازل حتى ذهبت آثارها، ولم تُبقِ غير الذكرى.
القلوص: الناقة، التفارط: السبق والتسرّع. يقول إنه وَقَفَ بها ناقَتَهُ مُكْتَئباً لذهاب أهلها ودُرُوسِ آثارها، وسبب كآبته شدَّة الشوق. الهديل: زعموا أنه زوج الحمامة. الفَنَن: الغصن. فهو يبكي بكاءَ حمامةٍ على غصنٍ تدعو زوجها أو حبيبها. أَلِكْني: أبلغ رسالتي. إليك عني: أبعد عني.

وتنافَسُوا اختلفوا وتخاصَمُوا. . . فإذا آن للحرب أن تضعَ أوْزارَها، وللخُصُومات أن تَهْدأَ ثائرتُها، قام الحكماءُ يَعِظُون المتخاصمين، ويُصْلحون بين المختَلِفين، لا مُتَباهِينَ ببلاغتهم، ولا مُقِيمينَ سوقاً لها، بل عامِلِين لتَهْدِئةِ الخواطر، وإعادةِ السَّكِينة والسَّلْم، حتى تتَّصِلَ التجارةُ. . . فأمَّا ما يضافُ إليها من صُوَرِ مَحافِل الشعر، ومُبَاريات الشعراء، وتنافُسِ الخطباء، فخَيَالٌ لا يصفُ الواقعَ، أبْدَعَهُ الأُدَباءُ والكُتَّابُ بعد أن عَفَّىٰ الزمنُ على عكاظ، وهو خيالٌ لا يتفق مع ما يُرْوَىٰ عن عكاظ، وما كان يجري فيها من التجارة، وما يتَّصِلُ بالتجارة من لَهْوٍ وعَبَثٍ، وما يجرُّ ذلك إليه من خصوماتٍ وحروبٍ مُتَّصِلةٍ». واستشهد بعدئذٍ بوقائع الفِجَار الأول، وهي ثلاثةٌ ليس وراءَها أيُّ منافسةٍ تجارية، أو ما يتَّصِلُ بالتجارة! وقد علَّق على بعضها بقوله: فاقْتَتَلوا قتالاً شديداً، ووقعتْ بينهم دماء[1]. . . مع أن المؤرخين أطْبقوا على أن وقائع الفجار الأول لم يكن فيها قتال[2]. ثم استشهدَ بخطبة قُسٍّ بن ساعدة وقال: فليس يحمِلُ قُسّاً على أن يُلقي هذا الخطابَ، في سوق يتَّجِرُ فيها الناسُ، إلاّ خلافٌ شَجَرَ بينهم، وبلغ التفاخرَ بأصنامهم، فلمَّا هَدَؤُوا، وآن لذوي الرأي أن يحسموه بالحكمة، تحدَّث قُسٌّ هذا الحديثَ، مُتأثِّراً فيه، لا ريب، بعقيدته المسيحية، ولكنْ من غير حِرْصٍ على الدعوة إليها، دعوةً قَلَّ أن تُؤْتي في مثل هذا الجمع ثمرتها»[3]. . . مع أن كلَّ موارد الأخبار أجمعتْ على أن الرجل ألقَى خطبتَه بعكاظٍ على سبيل التبشير والموعظةِ، وليس لإصْلاحِ ذاتِ البين، ودعا فيها إلى التأمُّلِ

---

(١) في منزل الوحي: ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٢) الكامل في التاريخ: ١/ ٥٨٨ ـ ٥٨٩، والعقد الفريد: ٥/ ٢٥٢، والمعارف: ٦٠٣.

(٣) في منزل الوحي: ٣٧٠ ـ ٣٧١.

والاعْتبار فيما خَلَق الله، ولم يذكرْ تَفَاخُراً بالأصنام ولا خلافاً شَجَر بسببه. وكان محمد عليه السلام يسمعُ الخطبةَ، فأعجبتْهُ، فقال بعدئذٍ: يرحمُ اللَّهُ قُسّاً، إني لأرجو أن يُبْعَثَ يومَ القيامة أُمَّةً وحدَهُ.

ثم استشهد بحرب الفِجَار الثاني بعُكاظ، وذكر أن شعراً كثيراً قيل فيها، كان يُذَاع في الناس، ولا يبتغي قائلوه الاحتكامَ إلى نُقَّادِ الشعر، بل الفخرَ والدعاية[1]... والحقيقة أن حرب الفجار الثاني لم تنشبْ بسبب مُنافسةٍ تجاريّة بين التجَّار بعكاظ، وأن الشعرَ الذي قيل فيها لم يكن له علاقةٌ بعكاظ، فقد قيل والسوقُ مُعَطَّلة، ولم يدَّعِ أحدٌ أنه عُرِضَ على النقَّاد يومئذٍ والحربُ دائرةٌ، أو أن كلَّ شعرٍ قالتْه العربُ كانوا يحتكمون فيه إلى نُقَّادِ الشعر بعكاظ! فهذا كلُّه من تَوَهُّم الدكتور هيكل بعدما انتزع نفسَهُ من بيئتها، ونقلها إلى عصر الجاهلية. والغريبُ في مذهبه أن أخبار عكاظ، كما تَقَصَّيْناها وأحْصَيْناها، ليس فيها جميعاً خبرٌ واحدٌ، على الأقلّ، يُنْبِئُنا عن مُتَاجرةٍ أو مُبَادَلةَ مُعَيَّنَةٍ بين تاجِريْن، أو فريقَيْن تنافَسا في سلعةٍ أو مَتاعٍ، أو سُمِّيَ لنا إسمُ تاجرٍ نافَسَ آخَرَ، إلاما كان من أمر بعض الرقيق الذي بيع بعُكاظ! ومع ذلك فإنه يزعم أنّ ما رُوِيَ عن عكاظٍ كلَّهُ مُتَّصِلٌ بالتجارة والتجَّار، وهذا غير صحيح قطعاً، وهو شَبيهٌ بقوله، من غير حُجَّةٍ أو سَنَدٍ: كان يُباح بعكاظ ما لم يكن يُباح بمجَنَّةٍ وذي المجاز من ألوان اللهو والمجُون، ومن ضُروب التجارة والتبادُل، لأن ذا القعدة الذي كانت عكاظٌ تُعْقَدُ فيه لم يكن له من الحُرْمَةِ ما كان لذي الحجَّة[2]... وهذا قولٌ غير صحيح أيضاً، ولم يَقُلْ به أحدٌ من السَّلَفِ، ولا من الخَلَفِ. والمواسمُ

---

(١) في منزل الوحي: ٣٧٢.

(٢) المرجع نفسه: ٣٦٧.

الثلاثةُ كانت سواءً في ضروب التجارة، وألوان اللهو، وحُرْمَةُ ذي القَعدة، كما أشرنا آنفاً، كحُرْمَةِ ذي الحجة، وقد سَمَّتِ العربُ المتحاربين بعُكاظٍ فُجَّاراً، لأنهم خرجوا على شِرْعةِ العرب في التحريم، وتقاتلوا في ذي القعدة، فَفَجَرُوا فيه.

صفوةُ القول في مذهب هيكل أنه قام على التوهُّم لا على الأَدِلَّة والأخبار المُسْنَدَةِ، وإلا فأين الإجماعُ الذي رأيناهُ على حكومة النابغة الذبياني بين الشعراء؟ وأين ما قيل عن مُعَلَّقَةِ عمرو بن كلثوم وسائرِ المُعَلَّقات؟ وأين ما قيل في المواسم من شعرٍ في أغراض مختلفةٍ، كالمُعَاظَمةِ في الحزن، والدفاع عن القبيلة، والتهاجي؟ وهل قال الأعشى قصيدته في مدح المحلَّق بعكاظ، لأسبابٍ تتعلَّقُ بالخصومات والحروب؟... أو لأسبابٍ تتعلَّقُ بالتجارة؟ نحن لا نريد الذهابَ إلى أن كلَّ أشْعَارِ العرب أُنْشِدتْ بعكاظ، وذاعتْ بعدما تناولها النقَّادُ هنالك بالنَّقْد، ولكننا نؤكِّدُ أن عكاظاً صارت مَحْفلاً للشعراء والخطباء، من حيث كانت موسماً للتجارة والاجتماع، وهو ما أَثبتْناهُ بما عَرَضْناهُ من أخبار عكاظ، وما ناقشناه في الفصول السابقة من خصائصها... ونحن لا نريد الزَّعْم بأن الخطباءَ وَرَدُوا عكاظاً، ليَتَبارَوْا في البلاغة والبيان، ولكننا نؤكد أنهم كانوا يحضرون مواسمَ عكاظ، بوَصْفِهم أشرافَ قومِهم وسادَتَهم ومُقَدَّميهم، فكانوا، إذا تكلَّموا في الناس داعينَ إلى الصَّلاح والهُدَىٰ، أو مُتَفاخِرينَ، يخطبون بلُغَةٍ أدبيَّةٍ مثاليَّةٍ، مُصْطَفاةٍ، مُنْتَقَاةٍ، ليفهمَ عنهم العربُ جميعاً ما يقولون، فكانوا بذلك يُسْهِمون في إزَالةِ التبايُنِ بين لهجات العرب، وفي الاقتراب من اللغة العربيَّة الموحَّدة... وأوضحُ مِثَالٍ على ذلك خطبةُ قُسِّ بنِ ساعدة، التي ذكرنا بعضَها، ثم دعوةُ النبيِّ الكريم قبائلَ العربِ، على اختلاف لهجاتها، إلى الإسلام، وغيرُ ذلك من الأَمثلة التي تَدْحَضُ مذهبَ

وقد خصَّ الكاتبُ سوقَ عكاظ بفصلٍ من كتابه، فوق ما قاله عنها في مواضِعَ أُخْرى من سائر الكتاب، فأسْرَفَ في وَصْف مَوْسم الشِعْر بها، حتى غَلَبه الخيالُ على ما أراده من بحث التاريخ والاجتماع في حياة العرب، وحتى شَطَّ به الوهمُ أحياناً عن المَحَجَّةِ، فمضى يُعَيِّنُ أيّاماً، وأسباباً، وتفاصيلَ للحوادث، ليس لأحَدٍ عِلْمٌ بها، أو بشيءٍ منها، وليس في كتابه ما يُشير إلى سَنَدِه فيها! كقوله مثلاً:

«مَضَتْ أربعةُ شهورٍ على رجوع أبي سفيان بن حرب من الشام إلى مكة، فنحن الآن في اليوم الخامس من شهر أيلول سنةَ اثنتين وثمانين وخمسِ مئةٍ، وفي مكة، حيث أخذت وفودُ القبائل تتهافتُ من كل حدب وصَوْبٍ على الكعبة، للاجتماع حولها، ثم لإعْدادِ المعدَّات اللازمة لجعْلِ موسم الشعر في عكاظ، في هذا العام، موسماً حالِيَاً بالروعة والجَلال، وقد ضاعَفَ في تَشَوُّفِ الناس إلى هذا الموسم، وتَحمُّسِهم لتجميله وتَزْيينِهِ، ذلك الروحُ الجديدُ، الذي تملَّك القبائلَ بعد الانتصارات المتتالية، التي أحْرَزَها القُرشيُّون في مكة، والحِمْيريُّون في اليمن... وزَهْوٌ طغَى على النفوس لاشتراك اليمن والعراق ونَجْد والشام في موسم عكاظ، الذي اعتاد العربُ تجديدَهُ، وتَنْعِيشَهُ في كل عامٍ، لتكريم الشعراءِ النابِهين... وكانت الشَّحنَاءُ، القائمةُ بين الغَساسِنَةِ في الشام والمنَاذِرَة في العراق، العاملَ الأصليَّ في عُزُوفِ ملوك غَسّانَ عن إيفاد مُمَثِّلِيهم إلى عكاظ، مع أن ملوك العراق أحاطوا هذه السوقَ برعايتهم وعنايتهم، ووضَعوا الجوائِزَ القيِّمةَ باسم الشعراء البارعين...»[1].

وذكر في موضع آخَر أن وَرَقة بنَ نوفل اعتلى المنبر بمكة في ذلك

(١) سيِّدُ قريش: ٢/ ٢٢ ـ ٢٣.

الخـاتمــة:

أمَّا بعدُ، فقد كان من طبائع الأمور إذن، كلما ذُكرت أسواقُ العرب في الجاهليَّة، أو كلما ذُكر مَجمَعٌ للناس عامٌّ، أن تكون سوقُ عكاظ أوَّلَ ما يأتي في الخاطِر، وأوَّلَ ما ينطق به اللسانُ، فكأن اسمها صار عَلَماً على كلِّ مَجْمعٍ، ورمزاً لكلِّ نشاطٍ يتَّصلُ بما كان يجري في عكاظ من قريبٍ أو من بعيد... وما من شيءٍ ذُكر في كُتب التاريخ والأدب والأخبار مثلما ذُكرت عكاظ، ومع أن سُوقَيْ مَجنَّة وذي المجاز اتَّصل مَوْسِماهما بموسم عكاظ في نَسَقٍ زَمَنيّ واحد، فإنهما لا تُذكران إلا عند الكلام على مواسم الحجِّ وشعائره، فكأنهما كانتا أكثرَ اتصالاً بمواسم عَرَفَة ومِنىً والكعبة منهما بموسم عكاظ، غير أن التجارة فيهما كانت مُبَاحةً، وفي مِنىً وعَرَفَةَ كانت مَحْظُورةً.

وإني أعتقد أن ما قدَّمتُهُ في كلامي على عكاظ، قد استوفيتُ فيه كلَّ ما يجب على الباحث الصادق، في مثل هذا الموضوع الخطير، أن يستوفيه، وما كان حُلماً فيما أَشْكَلَ أو خَفِيَ من أمور عكاظ، جعلتُه بالبحث والتحقيق والاستقراء حقيقةً وعِلْماً.. فقد كشفتُ عن خصائص هذه السوق، وعيَّنْتُ موقعها، وبيَّنْتُ طبيعةَ موضعها، وذكرتُ أصحابَها، وولاةَ القضاءِ فيها، وزمانَها، وأفَضْتُ في الحديث عن مجامع العرب فيها، ومنابرها، ومحافل الشعراء والخطباء بها، ووصفتُ منازلَ القبائل وعدَّدت النزلاء وأشياءَ أُخرى كثيرة، ولعلِّي فيما بذلتُ من الجهد قد أَصَبْتُ ما أصبو إليه من النجاح.

* * *

الأغراض الاجتماعية والأدبيَّة، فكان يجري في هذا الموسم ما كان ي
في مجنَّة وعكاظ ومُعْظَم المواسِم الكبرى. بل كان يجتمع فيه أكبرُ حَفْ
قبائل العرب، تَفِدُ إليه من اليمن وحضرموت وعُمَان والبحرين
والحجاز وتهامة والعروض، وبلاد الشام والعراق... ذلك أن
ذي المجاز كان آخر مواسم الحجّ التي يَحلُّ لهم فيها الجمعُ بين ال
والنُّسكِ، ثم يمتنعون من التجارة في عَرَفَة ومِنًى بعد انقضاء م
ذي المجاز.

٣ ـ من وقائع مواسم ذي المجاز:

وقد أُثِرَتْ وقائعُ كثيرةٌ ممّا كان يجري في ذي المجاز أيّامَ
موسمه، فأحْصَينا جُملةً منها تُشير إلى بعض أنْشِطَة العرب فيه.

● الدعوة إلى الإسلام:

ذكر ابنُ كثير في روايةٍ مُسْنَدةٍ، نقلها عن الإمام أحمد، أن ر
الله ﷺ كان في الجاهلية يسيرُ في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «
الناسُ، قولوا لا إلّه إلا الله تفلحوا»، والناسُ مجتمعون عليه، ووراءَهُ
وَضيءُ الوجه، أحْوَلُ، ذو غَديرتَيْن، يقول: إنه صابئٌ كاذبٌ، وكا
الرجلُ عمَّه أبا لهب...

وذكر في روايةٍ أخرى أنه كان، عليه السلامُ، في سوق ذي المجا
الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله... وأنه كان في مقتبل الدعوة ي
نفسَه على قبائل العرب في كل موسم، ويسأل أشرافَهم أن يُؤْوُوهُ ويَمْ
ويقول: «لا أُكْرِهُ أحداً منكم على شيء، مَن رضيَ منكم بالذي أدعو
فذلك، ومَن كَرِه لم أُكْرِهْهُ، إنما أريد أن تُحْرِزوني فيما يُراد لي من ا

حتى أُبَلِّغَ رسالةَ ربّي، وحتى يقضي اللَّهُ لي ولمن صَحِبَني بما شاء»[١].

وذكر البلاذريُّ أن شيخاً من بني كنانة رأى رسولَ الله بسوق ذي المجاز، في بُرْدَيْن أحمريْن، مَرْبُوعاً، حَسَنَ الوجهِ، شديدَ سواد الشَّعْر، سابِغَهُ، شديد البياض[٢]. وقد ذكر ابنُ سعد هذه الرواية أيضاً[٣]، ونقل عن رجُلٍ من قوم طارق بن عبد الله قوله:

«إني بسوق ذي المجاز إذ مرَّ عليَّ رجُلٌ شابٌّ، عليه جُبَّةٌ من بُرْدٍ أحمر، وهو يقول: يا أيها الناسُ قولوا لا إلّه إلا الله تفلحوا. . . ورجُلٌ خَلْفَه يرميه، قد أدْمَىٰ عرقوبَيْه وساقَيْه، يقول: إنه كذَّابٌ فلا تُطيعوه! فقلتُ: من هذا؟ قالوا: غلامٌ من بني هاشم يزعم أنه رسولُ الله، وهذا عَمُّه عبد العُزَّى»[٤].

ولقيَ النبيُّ بسوق ذي المجاز سُوَيْدَ بنَ الصَّامت الخَزْرَجيَّ، وكان قومُه يُسَمُّونه «الكامل»، فدعاهُ إلى الإسلام، وقرأ عليه شيئاً من القرآن، فاسْتَحسنه، ثم انصرف عائداً إلى المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرجُ، وكان ذلك قبل الهجرة[٥]. . . وبسُوق ذي المجاز أيضاً لقيَ رسولُ الله قيسَ بنَ الخطيمَ[٦]، فدعاه إلى الإسلام[٧]، فتريَّث في قُبوله، فقُتل قبل أن يُسْلم.

* * *

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية: ٣/ ١٣٦ ـ ١٣٨.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٣٩٦.

(٣) الطبقات الكبرى: ١/ ٤٣٣.

(٤) المرجع نفسه: ٦/ ٤٢.

(٥) الأعلام: ٣/ ١٤٥.

(٦) قيس بن الخطيم بن عديّ: من شعراء يثرب في الجاهلية، وأحَدُ صَنَاديد الأَوْس، له ديوان شعر جيّد، ذكر فيه أيامَهم، ووصَفَ النساءَ والحربَ، وحياةَ البُدَاةِ والمتحضّرين.

(٧) الطبقات الكبرى: ٨/ ٣٢٣.

الفصل الثامن

موسم الحج إلى الكعبة

- مقدمة - كان العرب في الجاهلية يحجون إلى الكعبة
- مناسك الحج كما كانت في الجاهلية - الحُمْسُ - الحلَّة
- موسمُ الحجِّ في الإسلام فريضةٌ من أركانه
- زمنُ موسم الحجِّ
- أخبار الشعراء في موسم الحجِّ: المعلقات أو المذهبات، أَخَذَ الشعرُ أشكالاً جديدة بعد ظهور الإسلام، مجالس الشعر والغناء.

عمر بن أبي ربيعة، عائشة بنت طلحة، عمر وعائشة في الطواف، عائشة وسكينة في الحجِّ، عمر والوليد بن عبد الملك، عمر في مِنَى، عائشة والحارث المخزومي، ليت الحجَّ كان كل يومين، عمر والنَّوَار، سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف، عمر يزوج محبين، طائفة بالبيت تنشد غزلاً. بكاء عاشقة في المزدلفة. لقاء كُثَيِّر وعَزَّة في موسم الحجِّ، أشعر من قال في مشاعر الحج. مجنون ليلى في موسم الحجِّ. أخبار مختلفة.

- تعقيب على أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز.

وحتى اليوم، أكثَرُ من اثنين وثلاثين قرناً من الزمان، وأنه يُعَدُّ أقدمَ موسمٍ دينيّ واجتماعيّ وتجاريّ في العالم المعروف. . . ولا سيما إذا لاحظنا، أن مَن كان يَشْهَدُهُ، في عصر الجاهلية، لا يكاد عَدَدُهم يتجاوزُ بِضعةَ أُلُوفٍ إلا قليلاً، وأن مَن يشهدُهُ اليومَ بلغ عددُهم أكثرَ من مِلْيونَيْن من المسلمين، من مختلف الأقوام والأجناس والبُلدان، تنظرُ إليهم، وهم في مَلابِسِ الإحْرام البيض، فلا ترىٰ إلا صَعيداً تَرامَتْ أبْعادُهُ، وكأنما غَطَّتْهُ الثلوجُ، وتُصْغي إليهم، فلا تسمع إلا نشيداً واحداً: لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْكَ، لبيك لا شريكَ لكَ لبيك، إن الحمدَ والنعمةَ لك والمُلْكَ لا شريكَ لك. . . إنه التوحيدُ في أكْمَلِ صُوَرِهِ نزاهةً وإخلاصاً.

* * *

● **الشعراء في مواسم الحج:**

لا شك في أن شعراءَ العرب كانوا، في الجاهلية، يَشْهدون المواسمَ بمكة ومِنىً وعَرَفَة، كشُهُودِهم مواسمَ عكاظ وغيرها، وكانوا يقولون شعراً فيما عَرَض لهم بها، في أيامها أو بعد انقضائها. غير أن ما تَيَسَّر لنا من النصوص لا يُشِير إلى الكثير في هذا الباب، سوى ما ذكرتُه عن تَفاخُرِهم وتهاجِيهم في «شِعْبِ الصُفِيِّ» بالمُحَصَّبِ من مِنىً، وما سبق أن أشرتُ إليه، في كلامي على عكاظ، من احتفالِ العربِ بقصائد الفُحول من شعرائهم، فكانوا بعدما يُنْشِدُها الشعراءُ في المجامع الكبرى، كسُوق عكاظ، يُعَلِّقونها في أسْتارِ الكعبة، تَنْويهاً بها وبقائليها. . . وفي هذا قال ابنُ عبد ربه: «لقد بلغ من كَلَفِ العرب بالشعر، وتفضيلها له، أن عَمَدَتْ إلى سبع قصائدَ، تخيَّرتْها من الشعر القديم، فكتبتْها بماء الذهب، في القَبَاطِيِّ المُدْرَجَة[1]،

---

(١) **القَبَاطِيُّ**: ج قُبْطِيَّة، وهي نسيجٌ من كتَّانٍ أبيض. **المُدْرَجَةُ**: المَطْوِيَّةُ: أو الملفوفة.

وعلَّقتْها بين أستار الكعبة، فمنه يُقال: مُذَهَّبَةُ امرىء القيس، ومُذَهَّبَةُ زهير، وسائرُ المُذَهَّباتِ السبع، وقد يقال لها: المُعَلَّقاتُ»[1]... وسمَّاها الباقِلاَّنيُّ: السَّبْعيَّات، وأشار إلى أنها اخْتِيرت من أَجْوَدِ شعر العرب فصاحةً وبراعةً وإبداعاً[2]، ولم يذكر شيئاً عن تعليقها بين أستار الكعبة بمكة! بينما قال ابنُ خلدون في سبب تَسْميتها بالمعلَّقات: إنهم كانوا يقفون بسُوق عكاظ، لإنْشَادِ الشعر، والتنافُسِ فيه، «حتى انتَهْوا إلى المُنَاغَاة[3]، في تعليق أشعارهم، بأركان البيت الحرام، مَوْضعِ حجِّهم وبيتِ إبراهيم، كما فعل امرؤ القيس بنُ حُجْر، والنابغةُ الذبيانيُّ، وزهيرُ بنُ أبي سُلْمى، وعنترةُ بنُ شدَّاد، وطَرَفَة بن العبد، وعَلْقَمةُ بن عبدة، والأعشى، أصحابُ المعلَّقاتِ السَّبْع وغيرُهم فإنه إنما كان يَتوصَّلُ إلى تعليق الشعْرِ بها، مَن كان له قدرةٌ على ذلك، بقومه، وعَصَبِيَّته، ومكانِهِ في مُضَر، على ما قيل في سبب تَسْميتها بالمعلَّقات»[4].

والواقع أن الشهرةَ المُستفيضةَ لهذه القصائد قامت على أنها المعلَّقاتُ، وأن أوَّلَ شِعرٍ عُلِّق في الجاهلية شعرُ امرىء القيس، عُلِّق على ركنٍ من أركان الكعبة أيامَ الموسم ثم أُحْدِرَ، فعلَّقَتِ الشعراءُ من بعده، وكان ذلك فخرَ العرب في الجاهلية[5]... ولكن هذا المذهبَ في علَّةِ تسميتها بالمعلَّقاتِ أمرٌ غيرُ مُتَّفَقٍ عليه، فهنالك من أنكر أنها كانت تُعلَّقُ حقّاً على

---

(١) العقد الفريد: ٥/ ٢٦٩.

(٢) إعجاز القرآن: ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣) المُنَاغَاةُ: المُبَاراةُ، وتناغَى القومُ: تَبَاروا وتغالَبُوا.

(٤) مقدّمة ابن خلدون: ٥٨٠ ـ ٥٨١.

(٥) شرح القصائد السبع: ١١ (من مقدمة التحقيق).

لقريشٍ بالتقدُّم عليها في كل شيء، إلا في الشعر، فإنها كانت لا تُقِرُّ لها به، حتى كان عمرُ بن أبي ربيعة، فأقرَّتْ لها الشعراءُ بالشعر أيضاً»[١]. وكان عمرُ من أسرةٍ واسعة الثراء، عظيمة المكانة منذ أيام الجاهلية. نشأ على الترف، ورخاءِ العيش، والدَّلال، مُفْرِطاً في التجمُّل والتطيُّبِ والتزيُّن، وكانت أحبَّ الأيام إلى نفسه أيامُ مواسم الحجِّ، فكان يرتدي أحسنَ الثياب من الوَشْي والمُخَطَّط والمُسَيَّرِ، ويُسْبِلُ لِمَّتَهُ على أُذُنَيْه، ويُطيلُ إزارَهُ، ويخضبُ نَجَائِبَهُ (إبِلَهُ) بالحِنَّاء، ثم ينتقلُ من ناحيةٍ إلى أخرى، يَتَعرَّضُ للحاجَّات في مَراكِبهنَّ أو مَضَارِبهنَّ، فيتراءَىٰ لهنَّ، ويَتَرائَيْنَ له، ثم يصفُهنَّ في شِعْرِهِ، ويتفنَّنُ في تفصيل أوصافِهنَّ ومحاسِنهنَّ، حتى ذاع أمره في الناس، فكانت النساءُ تتمنَّى أن يقول فيهنَّ شعراً، وكانت الأشرافُ تخاف على نسائها وبناتها من أشعاره. وكان بعضُهم يُحذِّرُ بعضاً بقوله: لا تَحمِلُوا فتياتكم على رواية شعر ابن أبي ربيعة لئلا يَتورَّطْنَ في الفُسوق تَورُّطاً... وكانوا يقولون: ما دخل على الفتيات في حِجَالِهنَّ شيءٌ أضَرُّ عليهنَّ من شعر عمر بن أبي ربيعة[٢]. وقال ابنُ قتيبة: «كان عمرُ فاسقاً، يتعرَّضُ للنساء الحَوَاجِّ في الطَّوافِ وغيرِهِ من مشاعر الحجِّ، ويُشبِّبُ بهنَّ، فَسَيَّرهُ عمر بنُ عبد العزيز إلى الدَّهْلِكِ، وهي جزيرةٌ بالبحر الأحمر، فغزا، فأُحْرِقت سفينتُهُ، فمات فيها»[٣].

● عائشة بنت طلحة:

وأما عائشة فهي بنت طلحة بن عُبَيد الله، من بني تَيْم، وأُمُّها أمُّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وخالتُها عائشة أمُّ المؤمنين. وكانت أديبةً، عالمةً

---

(١) الأغاني: ١/٨٣.
(٢) المرجع نفسه (وتَراءَى لهُنَّ: تَصدَّىٰ لِيَرَيْنَهُ).
(٣) الشعر والشعراء: ٥٥٤.

بأخبار العرب، فصيحة[١]، تزوَّجَتْ عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدِّيق، ثم مُصعب بن الزبير بن العَوّام، ثم عمر بن عبيد الله بن معمر التيميّ[٢]. . . قيل إنها وفدتْ على هشام بن عبد الملك، فبعث إلى مشايخ بني أمية أن يسمروا عنده، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب، وأشعارها، إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجمٌ ولا غاب إلا سمَّتْهُ، وأخبارُها مع الشعراء كثيرةٌ، ولعمر بن أبي ربيعة غَزَلٌ بها، وقد تُوفيت سنة (١٠١ هـ = ٧١٩ م)[٣]. . .

ولم يكن لها شبهٌ في زمانها حُسْناً، ودماثةً، وجمالاً، وهَيْأةً، ومتانةً، وعِفَّةً[٤]. . . وكانت لا تسترُ وجهها من أحد، ولمّا عاتبها في ذلك زوجُها مُصْعبُ بن الزبير، قالت: إن الله تبارك وتعالى وَسَمَني بمِيسَم جمال، أحببتُ أن يراهُ الناسُ، ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنتُ لأستره، واللَّهِ ما فيَّ وصمةٌ يَقْدِرُ أن يذكرني بها أحد[٥]. . . وقد نظر إليها «ابن أبي ذئب»[٦] تطوف بالبيت فقال لها: مَن أنت؟ فقالت:

من اللاَّءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبةً ولكــنْ ليقتلــنَ البــريءَ المُغَفَّــلا

فقال: صان اللَّهُ هذا الوجه عن النار! . فقيل له: أفَتَنَتْكَ؟ قال: لا،

---

(١) الأعلام: ٣/ ٢٤٠.

(٢) المحبَّر: ٤٤٢.

(٣) الأعلام: ٣/ ٢٤٠.

(٤) الأغاني: ١١/ ١٧٢.

(٥) المرجع نفسه: ١١/ ١٦٥.

(٦) ابنُ أبي ذئب: (٨٠ ـ ١٥٨ هـ)، أبو الحارث، محمد بن عبد الرحمن، من قريش، ومن أوْرَعِ الناس وأفضلهم في عصره. تابعيٌّ من رُوَاة الحديث، كان يُفتي بالمدينة.

ولكنَّ الحُسْنَ مرحوم[١]. ورآها أبو هريرة فقال: سبحان الله! ما أحسنَ ما غَذَّاكِ أهلُكِ، لكأنما خرجْتِ من الجنة[٢]...

وكانت عائشةُ تُعِدُّ للحجِّ عُدَّةً ما أعَدَّتْ مثلَها امرأةٌ قطُّ، في فَخَامتها، وكثرةِ رَوَاحِلها، وجمالِ مَن يُرافقها من الإمَاءِ والجَواري، وتنوُّعِ ما تحملُ معها من المتَاع والألْطافِ والهدايا... ويقال إن عاتكةَ بنتَ يزيد بن معاوية، استأذنتْ زوجَها أمير المؤمنين عبدَ الملك بنَ مروان في الحجِّ، فأذِنَ لها... ولكنه قال: ارفَعي حوائجَكِ، فإن عائشة بنت طلحة تحجُّ! ففَعَلتْ، وجاءت بهَيْأَةٍ جَهِدَتْ فيها... فلما كانت بين المدينة ومكة، إذا موكبٌ قد جاء، فزَحَمَها، وضَيَّق عليها، وفَرَّق جماعَتَها، فقالت: أظنُّ هذه عائشةَ بنتَ طلحة، وسألتْ عنها فقالوا: هذه خازِنتُها... ثم جاء موكبٌ آخَرُ أعظمُ من ذاك، فقالوا: عائشةُ عائشة... فزاحَمهم، فسألت عنه، فقيل لها: هذه ماشِطَتُها! ثم جاءت مواكبُ على هذا السَّنَن، وكلما مرَّ منها موكبٌ أحَسَّتْ عاتكةُ له في حَلْقها مثلَ الغصَّة، وفي قلبها شبهَ الحَسْرة، حتى أقْبَلتْ كوكبةٌ فيها ثلاثُ مئةِ راحلةٍ، عليها القبابُ والهوادِجُ، وفيها عائشة، فقالت عاتكة: ما عند الله خيرٌ وأبْقَى[٣]...

* * *

● **عمر وعائشة في الطواف:**

بينا عمر بنُ أبي ربيعة يطوفُ بالبيت، إذ رأى عائشة بنت طلحة، وهي

---

(١) العقد الفريد: ٦/ ١٠٩.
(٢) الأغاني: ١١/ ١٧٩.
(٣) الأغاني: ١١/ ١٧٨.

تريدُ الركنَ تَسْتلمه، فبُهِتَ لمّا رآها، ورأَتْهُ فعلمتْ أنها قد وقعت في نفسه، فبعثت إليه بجاريةٍ وقالت لها: قولي له اتَّقِ الله ولا تَقُلْ هُجْراً، فإن هذا مقامٌ لا بدَّ فيه مما رأيت! فقال للجارية: أَقْرِئيها السلامَ وقُولي لها ابنُ عمِّك لا يقول إلا خيراً... ثم قال فيها:

لعائشةَ ابْنَةِ التَّيْميِّ عندي ... حِمىً في القلب، لا يُرْعَى حِمَاها
يُذكِّرُني ابنةَ التيميِّ ظَبْيٌ ... يَرودُ بروضةٍ سَهْلٍ رُبَاها
فقلتُ له، وكاد يُراعُ قلبي ... فلم أَرَ قطُّ كاليوم اشْتِبَاها
سوى حَمْشٍ بسَاقِكَ مُسْتَبينٍ ... وأنَّ شَواكَ لم يُشْبه شَوَاهَا
وأنك عاطِلٌ عارٍ، وليستْ ... بعَارِيَةٍ ولا عُطُلٍ يَدَاها
وأنك غيرُ أَفْرَعَ وهي تُدْلي ... على المَتْنَيْن أَسْحَمَ قد كسَاها
ولو قَعَدتْ ولم تَكْلَفْ بِوُدٍّ ... سوى ما قد كَلِفْتُ به كفاها[1]

ولم يَزَلْ يتغزَّلُ بها أيام الحجِّ، ويطوف حولها، ويتعرَّضُ لها، حتى وافَقَها وهي ترمي الجِمار بمنىً سافرةً، فنظر إليها، فقالت: أما واللَّهِ لقد كنتُ لهذا منك كارهةً يا فاسق!... فقال فيها يومئذٍ:

إنـي وأوَّلُ ما كَلِفتُ بحبِّها ... عَجِبٌ، وهل في الحبِّ من مُتعجِّبِ
غَـرَّاءُ يُعْشي الناظرين بياضُها ... حوراءُ، في غُلَواءِ عَيْشٍ مُعْجِبِ
إن التي في أرضها وسمائها ... جُلبتْ لحَيْنِكَ ليتها لم تُجلَبِ[2]

ثم لقيها بعدئذٍ بمكة، وهي على بغلةٍ لها، فقال: قفي حتى أُسمِعَكِ ما

---

(١) الحَمْشُ: دِقَّةُ الساقين. الشَّوَىٰ: ظاهر الجِلْد، واليدان والرجلان. العاطِلُ: ليس عليه حُليٌّ. العَاري: ليس عليه ثياب. الأفْرَعُ: الكثيرُ الشَّعر. الأسْحَم: الأسودُ.

(٢) الغُلَواءُ: الغُلُوُّ وهو الزيادة والارتفاعُ وأوَّلُ الشيء. الحَيْن: الهلاك.

على أيديهنَّ آثارُ الضَّرْبِ بالعَصَا على الماشِيَة، وتبدو على وجوههنَّ آثارُ الريح السَّمُوم التي تهبُّ عليهنّ عادةً أثناء الرَّعْي، فقال فيها:

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ من مِنىً	ولي نظرٌ لولا التحرُّجُ عارِمُ
فقلتُ: أشمسٌ أم مصابيحُ بِيعَةٍ	بدتْ لكَ خلف السَّجْفِ أمَ أنتَ حالمُ
ومَدَّ عليها السَّجْفَ يومَ لقيتُها	على عَجَلٍ تُبَّاعُها والخَوادِمُ
فلم أسْتَطِعْها غير أن قد بدا لنا	عشيَّةَ راحتْ وَجْهُها والمعَاصِمُ
معاصِمُ لم تضرِبْ على البَهم بالضحى	عصاها، ووجهٌ لم تَلُحْهُ السَّمَائمُ
نَضيرٌ تَرىٰ فيه أسَاريعَ مائِهِ	صبيحٌ تُفَادِيه الأكُفُّ النواعم[1]

كلُّ هذا، وأكثر منه كما في بقيَّة القصيدة، رآهُ في المرأة وقد نظر إليها نظرةَ تحرُّجٍ فقط، خوفاً من الإثم، مع أن نَظَرهُ لولا التحرُّجُ، كما قال، حديدٌ شديدٌ، ومع أن الخَدَمَ مَدُّوا عليها ستراً كيلا يراها.

● عائشة والحارثُ المخزوميُّ:

كان الحارثُ بنُ خالد بن العاص المخزوميُّ شاعراً غَزِلاً على مذهب ابن أبي ربيعة، وكان من المفتونين بجمال عائشة بنت طلحة، يقولُ فيها الشعرَ كلَّما قدمتْ مكةَ للحجِّ، أو للعُمْرة. وكان له قَدْرٌ ومَنْظَرٌ في قريش[2]، فولاَّهُ عبدُ الملك بنُ مروان على إمارة مكة (٨٠ ـ ٨١ هـ)، وكان أبوه

---

(١) الأغاني: ١/ ١٣٠ ـ ١٣١. . عارم؛ شديدٌ حادٌّ. البِيعَةُ: معبد النصارىٰ، ويبدو أن المصابيح التي تستعمل فيها كانت شديدة النور. البَهْمُ: الصغيرُ من أولاد الضأن والماعز والبقر. نضيرٌ: حسن، جميلٌ، ناعمٌ. الأَسَارِيعُ: واحِدُه أُسروع وهو الخطُّ أو الطريق، يريد أنه يترقرقُ في وجهها النضير ماءُ الشباب.

(٢) الأعلام: ٢/ ١٥٤، (وقد غلط الزركلي إذ جعل وفاته سنة ٨٠ هـ)، لأنه كان يومئذٍ أمير مكة.

وقيل إن سعيدَ بنَ المُسَيّب[1]، سمع هذا الشعر فقال: لقد كلَّفَ المسلمين شَطَطاً! فقال مُحدِّثُه: إن في نَفْسِ الجَمَل شيئاً غير ما في نفس الجمَّال[2].

● عُمَرُ والنَّوَار:

وكانت النسوةُ القادماتُ للحجِّ يَعْلمنَ أن عُمَرَ لهنَّ بالمِرْصَادِ، يختلسُ النظرَ إليهنَّ، ليُشَبِّبَ بهنَّ، ويشيدَ بذكرهِنَّ، فكانت العجائزُ تُحذِّر الشابَّاتِ منه أن يَراهُنَّ، فيَفْضَحهنَّ بِشعره في أحياء العرب.

وبينما عمرُ مُنْصرفٌ من المزدلفة إلى مِنىً، إذ بَصُرَ بامرأةٍ في مركب على بعير، ففُتِنَ بها، وسمع عجوزاً تُناديها: يا نَوَارُ[3]، اسْتُري لا يَفْضحْكِ عمرُ بن أبي ربيعة!... فاتَّبَعَها عمرُ وقد شَغَلَتْ قلبه، حتى نزلت بمِنىً، في فسطاطٍ كبير، فنزل إلى جنب الفسطاط، ثم لم يزل يَتَلطَّفُ حتى جلس معها، وحادَثَها، وإذا هي أحسنُ الناس وجهاً، وأحلاهم مَنْطقاً، فزاد ذلك في إعجابه بها، فأراد مُعاوَدَتَها، فتعذَّر ذلك عليه، وكان آخرَ عهده، ومما قال فيها وقتئذٍ:

عَلِقَ النَّوَارَ فؤادُهُ جهلاً ... وصَبَا فلم تترك له عقلا

---

(١) سعيد بن المسيب: من بني مخزوم، سيد التابعين في عصره، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان يعيش من التجارة بالزيت، ولا يأخذ عطاءً من بيت المال. توفي سنة (٩٤ هـ) عن اثنتين وثمانين سنة.

(٢) مصارع العشاق: ٢/ ١٦٠.

(٣) النَّوَارُ: المرأةُ النَّفُور من الريبة والشر، أمّا النُّورَة التي تُسمَّى بها البناتُ اليوم، فهي كلُّ علامةٍ بمَكْوَىً على بعيرٍ أو غيره، وهي أيضاً الكلْسُ الذي كان يُحلَق به شعرُ العانَة.

● **بكاءُ عاشقةٍ في المزدلفة:**

وفي أخبار العاشقين، نقل أبو محمد السرَّاج عن أحدهم قولَه: إني لبالمزْدَلفة بين النائم واليقظان، إذ سمعتُ بكاءً مُتتابعاً، ونَفَساً عالياً، فاتَّبعتُ الصوتَ، فإذا أنا بجاريةٍ كأنها الشمسُ حُسْناً، ومعها عجوزٌ، فلَطِئْتُ بالأرض أنظرُ إليها، وأُمَتِّع عيني بحسنها، فسمعتُها تقولُ وهي تبكي:

دعــوتُــك يــا مــولاي ســرّاً وجهــرةً	دعاءَ ضعيف القلب عن محمل الحبِّ
بُليتُ بقاسي القلب لا يعرف الهوى	وأَقْتَـلِ خَلْـقِ اللَّـهِ للهـائـم الصـبِّ
فـإن كنـتَ لـم تقـضِ المـودَّةَ بيننـا	فـلا تُخْـلِ مـن حـبٍّ لـه أبـداً قلبـي
رضيتُ بهذا في الحياة، فإن أَمُتْ	فحسبي ثواباً في المَعَادِ به حسبي

فقمتُ إليها، فقلتُ: بنفسي أنتِ، أَمَعَ هذا الوجه يمتنعُ عليكِ من تحبِّينَهُ؟ قالت: نعم، وفي قلبه واللَّهِ أكثرُ مما في قلبي. فقلتُ: إلى متى هذا البكاء؟ قالت: أبداً، أويصيرَ الدمعُ دماً، وتتلفَ نفسي غمّاً. فقلت لها: إن هذه لآخِرُ ليلةٍ من ليالي الحجِّ، فلو سألتِ الله التوبة مما أنتِ فيه، رجوتُ أن يُذهبَ حبَّه من قلبك! فقالت: يا هذا، عليك بنفسِكَ في طلب رغبتك، فإني قد قَدَّمتُ رغبتي إلى من ليس يجهل بُغْيَتي... وحَوَّلتْ وجهها عني، ورجعت إلى شِعْرها وبكائها[1].

● **لقاءُ كُثَيِّر وعَزَّة في الحجّ:**

ذُكر في أخبار كُثَيّر صاحبِ عَزَّة، وكان عفيفاً في حُبّه وغَزَله، أنه وَفَد على عبد الملك بن مروان، فسأله عن أَعْجب خبر له مع عَزَّة، فقال:

---

(١) مصارع العشاق: ١/ ٧٧ ـ ٧٨.

عليه، واجتمع الناسُ حوله، ونَضَحوا الماءَ على وجهه، وأبوه يبكي عند رأسِهِ. ثم أفاق وهو مُصْفَرٌّ لونُه، مُتَغيِّرٌ حالُه، فأنشأ يقول:

وداعٍ دعا، إذ نحن بالخَيْفِ من منىً فهيَّجَ أشواقَ الفؤادِ ولم يَدْرِ
دعا باسْم ليلى غيرِها، فكأنَّما أطار بليلى طائراً كان في صدري

وبينا أبو قيس يطوفُ بالكعبة، ويدعو الله له بالعافية، كان قيس يقول:

دعا المُحْرِمونَ اللّه يستغفرونه بمكة، وَهْناً، أن تُمَحَّىٰ ذنوبُها
وناديتُ أن يا ربِّ أوَّلُ سُؤْلَتي لنفسيَ ليلى، ثم أنت حَسِيبُها
فإن أُعْطَ ليلى في حياتيَ لا يَتُبْ إلى اللّه خَلْقٌ توبةً لا أتُوبُها[1]

ويبدو أن قيساً كان يرجو لقاءَ ليلى وهي ترمي الجِمَارَ بِمنىً، فلم يَرَها، فقال:

ولم أرَ ليلى، بعد موقفِ ساعةٍ بخَيْفِ مِنىً ترمي جِمَارَ المُحَصَّبِ
ويُبْدي الحصَى منها إذا قَذفتْ به من البُرْدِ أطرافَ البَنَانِ المُخَضَّبِ
وأصبحتُ من ليلى الغداةَ كناظرٍ من الصبح في أعقابِ نجمٍ مُغَرِّبِ[2]

* * *

وأخيراً، لا شك في أن مواسم الحجِّ كانت تشهدُ، فضلاً على مجالس الشعر والشعراء، جوانبَ مختلفةً من الحياة الاجتماعية، كانت تجري بعد انقضاءِ أيام الحجّ بمكة، ولا سيما أن كثيرين من أشراف العرب، كانوا يَظَلُّون فيها حتى تُسْتَرَ الكعبةُ في العاشر من المحرَّم، ويُغادِرَ وقتئذٍ آخِرُ

(١) الشعر والشعراء: ٥٦٧ ـ ٥٦٨، ومصارع العشاق: ٢/ ٥٣، و ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤١٢.

الحاجّ مكة إلى بلادهم[1]. . . أمّا حكاياتُ الشعرِ والشعراءِ في مواسم الحجِّ، فكانت كثيرةً جداً بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين، ولكنني اجتَزَأْتُ ببعض النماذج الطريفة، لعلّي أُقدِّم من خلالها صورةً واضحةً لمجامع العرب العامّة في ذلك الزمن.

ويبدو من استقراء بعض الأحاديث، أن الغناءَ ولَعِبَ الجواري بالدفوف في أيام الحج، لم يكن عملاً مُسْتقبَحاً، لأن رسولَ الله قال: «يومُ عَرَفَة، ويومُ النَّحْر، وأيامُ مِنىً: عِيدُنا أهلَ الإسلام، وهي أيامُ أكلٍ وشُرْبٍ»، رواهُ أبو داود والنَّسَائيُّ والترمذيُّ[2]. ورُوي عن السيدة عائشة أن أبا بكر دخل عليها في بعضِ أيام الحجِّ، وعندها جاريتان تُغنّيانِ، وليسَتا بمُغَنِّيَتَين، فأنكر ذلك عليها، فقال رسولُ الله: يا أبا بكر، إن لكلِّ قوم عيداً، وهذا عيدُنا. . . وفي الصَّحِيحيْن أنه قال: دَعْها يا أبا بكر فإنها أيامُ عيد. . . وكانت تلك الأيام أيامَ مِنىً[3]. . . ومما يُذكر أيضاً أن مواسم الحجِّ كانت خير مناسبة لإذاعةِ خبرٍ، أو إعلانه في الناس، لأنها أكثرُ عُموميَّةً من المواسم الأخرى. . . ومن ذلك أنه لمَّا تُوفيَ الزبيرُ بنُ العوَّام، وفَرَغَ ابنُه عبدُ الله من قضاء دَيْنِهِ، قال بنو الزبير: إقْسِمْ بيننا ميراثَنا! فقال: لا واللَّهِ، لا أَقسِمُ بينكم حتى أنادي في الموسم أربعَ سنينَ: ألاَ من كان له على الزبير دَيْنٌ، فلْيَأْتِنا فنقضيه. . . فجعل كلَّ سنةٍ يُنادي بالموسم، فلمَّا مضت أربعُ سنين، قَسَمَ بينهم[4].

---

(١) أخبار مكة: ١/٢٥٢.

(٢) ابن تيميّة ـ اقتضاء الصراط المستقيم: ١٩٤.

(٣) المرجع نفسه: ١٧٩، ١٩٣.

(٤) الطبقات: ٣/١٠٩.

حامد الفقي، دار المعرفة ـ بيروت.

١٣ ـ **الأمالي**:
أبو علي، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ـ المكتب التجاري، بيروت، عن نسخة دار الكتب المصرية.

١٤ ـ **الإمتاع والمؤانسة**:
أبو حيّان التوحيدي، علي بن محمد. نشرة أحمد أمين وأحمد الزين بالقاهرة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٤ م)، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

١٥ ـ **أنساب الأشراف**:
أحمد بن يحيى البلاذري ـ الجزء الأول، تحقيق د. محمد حميد الله. دار المعارف ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة (١٩٥٩ م).

١٦ ـ **أيام العرب في الجاهلية**:
محمد أحمد جاد المولى، وعلي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبة العصرية ـ بيروت وصيدا، عن طبعة (١٩٤٢ م).

١٧ ـ **البداية والنهاية**:
ابن كثير، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي ـ دار الكتب العلمية، طبعة (١٩٨٩ م) بيروت.

١٨ ـ **البُرصان والعرجان والعميان**:
أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ ـ مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة (١٩٨٧ م).

١٩ ـ **البلاغة تطوُّرٌ وتاريخ**:
د. شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٥ م).

٢٠ ـ **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**:
محمود شكري الألوسي ـ شرح محمد بهجة الأثري ـ دار الكتاب العربي بمصر، الطبعة الثالثة.

٢١ ـ **البيان والتبيين**:
أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ ـ المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (١٩٣٢ م)، تحقيق حسن السندوبي.

٢٢ ـ **تاريخ آداب العرب**:
مصطفى صادق الرافعي ـ طبعة مصر.

٢٣ ـ **تاريخ التمدن الإسلامي**:
جرجي زيدان ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

٢٤ ـ **تاريخ دمشق**:
ابن عساكر، المجلد العاشر، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق.

٢٥ ـ **تاريخ الشعوب الإسلامية**:
كارل بروكلمان ـ ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ـ دار العلم للملايين (١٩٧٩ م) بيروت.

٢٦ ـ **تاريخ الطبري**:
أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف (١٩٦٠ م) القاهرة.

٢٧ ـ **تاريخ العرب**:
د. فيليب حتي، وإدورد جرجي وجبرائيل جبور ـ دار غندور (١٩٨٦ م) بيروت.

٤٤ ـ **الطبقات الكبرى:**
محمد بن سعد بن منيع الزهري ـ دار صادر، بيروت (١٩٦٨ م).

٤٥ ـ **عبقرية الإسلام في أصول الحكم:**
د. منير العجلاني ـ دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية، بيروت (١٩٦٥ م).

٤٦ ـ **عبقرية عمر بن الخطاب:**
عباس محمود العقاد ـ دار الهلال بمصر.

٤٧ ـ **عجائب المخلوقات:**
الأبْشيهي، محمد بن أحمد ـ منشورات المتوسط (١٩٨١) بيروت.

٤٨ ـ **العرب قبل الإسلام:**
جرجي زيدان ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٧٩).

٤٩ ـ **العقد الفريد:**
ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي ـ شرح أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي ـ لبنان (١٩٨٢ م).

٥٠ ـ **عكاظ والمربد:**
د. أحمد أمين ـ مجلة الرسالة، العددان ١٣ و٢٥ لعام ١٩٣٣.

٥١ ـ **عيون الأخبار:**
ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت، عن طبعة دار الكتب المصرية (١٩٢٥ م) القاهرة.

٥٢ ـ **الفاروق عمر بن الخطاب:**
د. محمد حسين هيكل ـ دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة (١٩٨١ م).

٥٣ ـ **فجر الإسلام:**
د. أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية (١٩٦١ م) القاهرة.

٥٤ ـ **الفن ومذاهبه في الشعر العربي:**
د. شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٠ م).

٥٥ ـ **في الأدب الجاهلي:**
د. طه حسين ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٢ م).

٥٦ ـ **في منزل الوحي:**
د. محمد حسين هيكل ـ مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م). القاهرة.

٥٧ ـ **القيان والغناء في العصر الجاهلي:**
د. ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٨ م).

٥٨ ـ **قيم جديدة للأدب العربي:**
د. عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف بمصر (١٩٧٠ م).

٥٩ ـ **الكامل في التاريخ:**
ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد ـ دار صادر ـ بيروت (١٩٧٩ م).

٦٠ ـ **كثيّر عزّة ـ حياته وشعره:**
أحمد الربيعي ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٧ م).

٦١ ـ **لسان العرب:**
ابن منظور الافريقي المصري، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ـ دار صادر ـ بيروت.

٦٢ ـ **مجالس ثعلب:**
أبو العباس، أحمد بن يحيى ثعلب ـ شرح وتحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٠ م).

٦٣ ـ **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول:**
د. شكري فيصل ـ مكتبة الخانجي بمصر والمثَّنى ببغداد (١٩٥٢ م).

٦٤ ـ **مجلة المسلمون** ـ دمشق (المجلد: ٤، العدد الثالث أيار ١٩٥٥) ـ حديث العيد: علي الطنطاوي.

٦٥ ـ **مجمع الأمثال:**
الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٦١).

٦٦ ـ **المحبَّر:**
أبو جعفر، محمد بن حبيب البغدادي ـ دار الآفاق الجديدة، بيروت، عن نسخة مطبعة حيدر أباد الدكن (١٣٦١ هـ ـ ١٩٤٢ م) تحقيق د. إيلزة ليختن شتيتر، ومراجعة د. محمد حميد الله.

٦٧ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر:**
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين ـ دار الأندلس، بيروت (١٩٧٨ م).

٦٨ ـ **المستطرف في كل فن مستظرف:**
الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٨٦ م).

٦٩ ـ **مصارع العشاق:**
أبو محمد، جعفر بن أحمد السرَّاج القارىء ـ دار بيروت ودار صادر، بيروت (١٩٥٨).

٧٠ ـ **مطلع النور:**
عباس محمود العقاد ـ دار الهلال بمصر.

٧١ ـ **المعارف:**
ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٩).

٧٢ ـ **معجم البلدان:**
أبو عبد الله، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ـ دار صادر، بيروت (١٩٧٧ م).

٧٣ ـ **معجم تاج العروس من جواهر القاموس:**
محمد مرتضى الزبيدي ـ طبعة مصر بالمطبعة الخيرية (١٣٠٦ هـ)، وطبعة الكويت.

٧٤ ـ **معجم قبائل العرب:**
عمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٧٨ م).

٧٥ ـ **معجم متن اللغة:**
الشيخ أحمد رضا بن إبراهيم العاملي ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٥٨ م).

٧٦ ـ **معجم محيط المحيط:**
المعلم بطرس البستاني ـ مكتبة لبنان، بيروت (١٩٧٧).

٧٧ ـ **المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام:**
د. جواد علي ـ دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة ببغداد (١٩٧٨ م).

٧٨ ـ **المفضَّليات:**
المفضَّل الضبِّي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٤ م).

٧٩ ـ مهد العرب:
د. عبد الوهاب عزام ـ دار المعارف بمصر (١٩٤٦ م).

٨٠ ـ موقع عكاظ:
د. عبد الوهاب عزام، وحمد الجاسر، ومحمد بن بليهد ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٠ م).

٨١ ـ النابغة الذبياني:
د. محمد زكي العشماوي ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٠ م).

٨٢ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب:
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ـ تحقيق إبراهيم الأبياري ـ دار ا لكتب الإسلامية بالقاهرة وبيروت، الطبعة الثانية (١٩٨٠ م).

* * *

(ز)

(س)

(ش)

* * *

فهرس أسماء الأمكنة والبلدان

* * *

شكر وتقدير

يسعدني في ختام هذا الكتاب، أن أَشْكرَ للأخ الأستاذ عدنان الغَوْر، حُسْنَ قيامه على تنضيده، وصَبْرَهُ الجميلَ على ما احتمله في إخراجِهِ من الجهد والنَّصَب، صَنِيعَهُ في كُتُبي الأُخرى: مواسم العرب الكبرى، وقواعد الأمن في مجتمعات الجاهليّة، والمواسم وحساب الزمن عند العرب، فاستحق بذلك حُسْنَ التقدير.

موسمَها في تلك السنة، وكان في القوم رجلٌ يقالُ له: المُحلَّقُ بن حَنْتَم الكِلابيّ[١]، وكان مِئْناثاً مُمْلِقاً[٢]، له ثمان بناتٍ، لا يَخطُبهنَّ أحَدٌ لمكان أبيهنَّ من الفقرِ وخُمولِ الذِكْر. فقالت امرأةُ المحلَّقِ لزوجها: ما يمنعُكَ من التعرُّضِ لهذا الشاعر وإكْرامِهِ؟ فما رأيتُ أحداً أكْرمَهُ، إلا أكْسَبَهُ خيراً. فقال: وَيْحَكِ! ما عندي إلا ناقتي. فقالت: يُخْلِفُها اللّهُ عليك.

فقام المحلَّقُ بعد تَردُّدٍ، ورَصَدَ الأَعْشى في مَقْدَمِهِ، حتى يَتَلقَّاهُ قبل أن يسبقَهُ إليه أحَدٌ، وكان الأعشى كفيفاً يقوده ابنُه، فلما وصَل، أقبل عليه المحلَّقُ، فأخذ بخِطام ناقته[٣]، فقال: من هذا الذي غَلَبَنا على خِطام ناقتنا؟ فقيل له: هذا المحلَّقُ. فقال: شريفٌ كريم. ثم أمَرَ ابْنَهُ أن يَدَعَ المحلَّقَ يقتادُ الناقةَ، فاقتادها إلى منزله، وأكرمَهُ، ونَحرَ له الناقةَ الوحيدة التي يملكُها، وأَوْلَمَ له وليمةً عظيمةً، وجعلت بناتُ المحلَّق يَدُرْنَ حول الأعشى، ويُبالِغْنَ في خدمته، فسأل: ما هذه الجواري حولي؟ فقال المحلَّقُ: بناتُ أخيك، وهُنَّ ثمانٍ، نَصيبُهنَّ من المال قليل!

فقام الأعشى من عنده، وخَرَجَ من غير أن يقولَ شيئاً، وقصد إلى عكاظ من ساعته... ثم خرج المحلَّقُ، فوافَىٰ عكاظاً، فإذا هو بسَرْحَةٍ[٤]،

---

(١) **المُحَلَّقُ بنُ حَنْتَم**: من بني شَدَّاد الكلابي العامِرِيّ. كريم جاهلي، اشْتُهر بما قاله فيه الأعشى. يقال إن اسمه عبد العُزَّى بن حنتم، وغلب عليه لقبُ المحلَّق، لِشَجَّةٍ كانت في وجهه تشبه الحلقة، من عَضَّة حصان، أو من أثَر كَيٍّ. ومن نسله «أم الهيثم» الكلابية راوية أهل البصرة.

(٢) **المِئْناثُ**: الكثير الذريَّة من البنات. **المُمْلِقُ**: من أنفق ماله حتى افتقر.

(٣) **الخِطَام**: حبل يُجعل في عنق البعير، يُقاد به.

(٤) يبدو أن أشْجَارَ السَّرْح كانت مجتمعَ الناس إلى الشعراء، وأنها كانت كثيرةً في سهل عكاظ، يستظلُّون فيها.

اجتمع الناسُ إليها، وإذا الأَعْشَى يُنشِدُهم قصيدةً أَنْشَأها في مَدْح المحلَّق، ويقول فيها:

أَرِقْتُ وما هذا السُهادُ المؤرِّقُ ... وما بيَ من سُقم، وما بي مَعْشَقُ
لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوء نارٍ، باليفاع، تُحرَّقُ[1]
تُشبُّ لمقرورَيْن، يصطليانها ... وباتَ على النار، الندىٰ والمحلَّقُ[2]
ترىٰ الجودَ يجري ظاهراً فوق وجهِهِ ... كما زانَ متنَ الهندوانيّ رَوْنقُ[3]

ما كاد الأعشى ينتهي من إنشاد قصيدته، إلا والناسُ يَنْسَلُّون إلى المحلَّق يُهنِّئونه، ثم لم تمضِ سنةٌ عليه، حتى زَوَّج بناته، ويَسُرَتْ أحواله[4]. . . ومن ذلك وأمثاله، يتبيَّن لنا ما كان لعكاظ من آثار اجتماعية واضحةٍ، في مجتمعات العرب، من خلال ما تُعالجُه من مواضيع الشعر والشعراء.

* * *

(١٦) ـ تأديبُ السُّفَهاء:

يُحكى أنه كان لعبد الله بن جَعْدَة[5]، وهو من شيوخ بني عامر بن

---

(١) اليَفَاع: التلُّ المُشْرِف، وكلُّ ما ارتفع من الأرض.
(٢) تُشَبُّ: تُوقَد، المَقْرور: البَرْدَانُ، النَدَى: الكرم.
(٣) الهُنْدُوانيُّ: سيفٌ. أي أن الكرم يزينُ وجَهَ المحلَّق، كما يزين متنَ السيف الهندُوانيّ الرَّوْنق واللمعان.
(٤) الأغاني: ٩/ ١١٠ ـ ١١٤، والأعلام: ٧/ ٣٤١.
(٥) بنو جعدة: حيٌّ من قيس، وهو جَعْدَةُ بنُ كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، ومنهم الشاعرُ النابغة الجعدي.

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com